أ.د عشراتي سليمان



# الأمير عبد القادر السياسي

## قراءة في فرادة الرمز و الريادة

دار الغرب للنشر و التوزيع



**أ.د.عشراتي سليمان**

## الكتب الصادرة

- الخطاب القرآني
- العهد القديم والواقعة الإسرائيلية
- الستر والعري في أخلاق العهد القديم
- العقيدة الانجيلية وجدلية الانغلاق والانفتاح
- السياسة وإشكال الشرعية في الإسلام
- بديع زمان النورسي
- النورسي في رحاب القرآن

بالإضافة إلى أعمال أخرى في الحضارة والأدب والإبداع السينمائي.

---

**دار الغرب للنشر و التوزيع**

# الأمير عبد القادر

[illegible]

[illegible]

[illegible]

أ.د. عشراتي سليمان

# الأمير عبد القادر

## قراءة في فرادة الرمز والريادة

الطبعة الثانية 2004

دار الغرب للنشر والتوزيع

**يا أيها الفجر الذي انطمست تقاسيمه في**
**العين وبقيت جمارا في الأعماق تتقد،**
**أيا طلعة غراء غرسوا فيها وتدا من حقد**
**وضرجوها بلون الراية ،**
**إليك أهدي هذه الفاتحة**

## استفتاح

### 1- المقاومة الوطنية مسار جهادي واحد دشنه الأمير واسترسلت حلقاته عبر المراحل.

تكرست مكانة الأمير عبد القادر وبصورة نهائية عميدا للأبطال ورمزا للمجاهدين الجزائريين الذين قدموا كل ما وسعهم تقديمه في سبيل الحرية وعزة الوطن.

بل لقد أضحت حركة الأمير وتجربته الجهادية رأس نهر المقاومات الوطنية الكفاحية التي خاضها الشعب الجزائري دفاعا عن استقلال وسيادته.

فجهاد الأمير كان الرد النضالي النوعي الذي دشنت به الجزائر تاريخها المعاصر.

والانتفاضات التي تعاقبت على الساحة الوطنية ظلت جميعا موصولة بالنبع الأول، أي بما قام به الأمير وجيوشه المجاهدة من بذل واستماتة .

فتلاحق الأجيال في الجهاد لم ينقطع طيلة القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، ذلك لأن دافعية الجهاد كانت واحدة والباعث عليها مشتركا وهو مقاومة المحتل وإجلاؤه عن البلاد.

من هنا تتابعت الحركــات الجهاديــة، بــل وتــداخلت وأضحت الساحة الوطنية مسرحا واحدا للنزال، وباتت الحُدود الأهلية من مختلف المناطق معنية جميعا بمصــير الــوطن، الأمر الذي فتح أمامها باب المرابطة على ساحة المواجهــة كلما دعا الداعي.

ذلك لأن الشعب الجزائري الذي عاش مع كفاح الأمير مسلسل التحولات الجذرية السارة منها والمفجعة -وهو مــا عمق فيه أكثر روح المقاومة - قــد بــات لا يتــردد فــي الاستجابة إلى الجهاد أينما شــبت نــاره، والانخــراط فيــه بمختلف الأشكال، رغم أحوال الوهن المادي والمعنوي التي ألحقتها به محنة الاجتياح والاستيلاء على الوطن.

من هنا لا غرابة أن نجد حركة جهادية تكاد تكون تلقائية في عمومها ظلت تستقطب المقاتلين نحو مواقع الكــر كلمــا تفجرت مقاومة في جهة ما من الوطن.

ولا عجب أن نلاحظ تداعي الجماعــات والفئــات بــل والأفراد إلى المواقع في أي جهة قام بها الاعتراك، وتحــت قيادة أي مكافح وطني تمت المواجهة، لا يقعد بهم انكســار عن تلبية، ولا يثنيهم انهزام عن استجابة. لكأنهم عاهدوا الله والوطن على المرابطة والمضي على طريــق الجهــاد مــا أسعفهم الأجل وسعى بهم رجل.

وحين تخبرنا الرواية الاستعمارية مثلا عن وجود مقاتل متميز شوهد بين صفوف ثوار أولاد سيدي الشيخ، وتبين أنه

كان ينتسب إلى جيش الأمير عبد القادر خلال مقاومته، فذلك يعني أن جيلا ممن عاصروا كفاح الأمير، سواء أشاركوا معه عن كثب أم ظلت وقائع ذلك الكفاح محفورة في مواجدهم منذ الطفولة، قد مضوا على نفس الطريق الجهادي الذي شقه الأمير، فهم وإن لم تنتظمهم حركة وطنية واحدة يمتد بها الكفاح من أقصى البلاد إلى أقصاها في موجة كاسحة واحدة، إلا أنهم ظلوا وقودا لتلك الانفجارات الجهوية التي سميناها المقاومة والتي كان بعضها ينتشر فعلا على المدى الوطني تقريبا، وإن كانت امتداداته الموجية لا تكاد تبتدئ في جهة ما حتى يكون منطلقها قد خبا أو فتر في جهة أخرى بسبب عدم الانتظام وانعدام التخطيط وترامي مساحة الوطن وتعذُر أسباب الاتصال وعدم علم النواحي والمناطق بما كان يتقرر ويحدث في النواحي والمناطق الأخرى إلا بعد أن يفوت معه وقت التدارك المؤثر.

بل لا أحد ينكر أن تقاطعات كثيرة في الزمن سجلت بين وقائع مقاومتنا الوطنية في مراحل متعددة تجاوبت فيها أطراف الوطن جميعا أو كادت وانخرطت في القتال، ألم تتقاطع انتفاضة أولا سيد الشيخ مثلا مع انتفاضة المقراني وما أرهص لها أوأعقبها من أعمال جهادية في نواحي أخرى من البلاد، جعلت حال الحرب تشمل أرجاء الوطن عامة وإن تفاوتت مظاهر الانخراط وفاعليات التجند ؟

بل من ذا الذي يستطيع أن يميز الحدود الفاصلة في شريط وقائع المقاومة منذ عهد الأمير إلى عهد الشيخ آمود ؟

فحين انتهت مقاومة الأمير في 1847 كان المجاهد بوحمار وجموع الزعاطشة وطوائف المقاتلين سواء الذين سبق أن تجندوا تحت لواء الأمير أو من التحق بهم من الجيل الصاعد، قد شرعوا في الثورة ضد العدو بمناطق الزاب والحضنة وتوقرت وسائر تخوم تلك الناحية، فقد حدثتنا المصادر الفرنسية التي كتبت عن تلك الانتفاضة أن الأهالي تداعوا من أنحاء الوطن للمشاركة في القتال بتلك النواحي، الأمر الذي يبين أن الأهالي لم يعودوا يميزون بين جهة وجهة للانخراط في الفعل الثوري، بل كان يكفيهم أن يسمعوا عن معركة نشبت ضد العدو أو انتفاضة استهدفت قواته في جهة ما حتى يتسارع منهم المتطوعة بما كانوا يملكون من جاهزية بسيطة.

وحين نحدد انفجار تلك الانتفاضة – انتفاضة الزعاطشة- بسنة 49 فذلك شأن التاريخ الذي يسعى تحت دواع ما يتوهم أنه الدقة واصطناع الموضوعية إلى حصر الأحداث في تحديدات رقمية قد تجني على الحقيقة.

والواقع أن المنهجية التاريخية المتبصرة لم تشتغل يوما بالأرقام مجردة، واعتبر ذلك بمقدمة ابن خلدون، فهي تنظير عال لعلم الحضارة والعمران، وهي تأريخ على أدق ما يكون التدقيق، لأنها تعالت عن التحديد الرقمي، ولم يسقط ابن خلدون في الضحالة والتكرار إلا حين التفت إلى الأرقام والأسماء يوظفها في مفصلة الأحداث.

ثم هل هناك من مبرر للفصل بين مقاومة الزعاطشة ومقاومة ورقلة التي ظهرت في أعوام 47-48-49 50- وهل نستطيع التقاضي عن انتفاضة الأغواط التي زامنتهما عام 50 ؟ ثم كيف لنا أن نتجاهل صلة هذه الانتفاضات بانتفاضة أولاد سيد الشيخ ؟ لقد عرفت انطلاقتها عام 61 لكن قراءة ملابساتها سيبين لنا أن الفواعل البشرية التي قامت بتلك الانتفاضات الأسبق، هي ذاتها تقريبا التي نهضت بمقاومة أولاد سيد الشيخ، وهي نفسها تقريبا التي تواجهت فيما بينها خلال تلك المقاومة: حمزة -بن شهرة- الشريف[1] بلحرش وآخرون.

أما فيما يخص ثوار أولاد سيد الشيخ أنفسهم، فقد وجدناهم بعد أن حازوا خصوصية واعتبارا في دولة الأمير، قد تحولوا من خلال أسر منهم إلى طاعة الاستعمار شأن كثير من الوطنيين الذين فتح في وجوههم مصير الأمير عبد القادر مع فرنسا ذلك الباب الذي أضحوا بفعله موظفين أهليين في الإدارة الفرنسية، وهكذا ظهر حمزة بن بوبكر على مسرح الأحداث التي عرفتها الصحراء وإقليم ورقلة تحديدا حيث كان الشريف بن عبد الله مرابطا في شبه استقلال بتلك النواحي، وشاء القدر أن يكون سقوط ذلك الاقليم على يد حمزة بوبكر وأتباع أولاد سيد الشيخ وطائفة أخرى من وجهاء الجهاد في عهد الأمير.

---

[1] - اقتحم مدينة ورقلة أول مرة حمزة ثم أعقبه ابنه بوبكر عليها، إذ هو الذي قبض على الشريف كما سنشير إلى ذلك في موضعه.

في حين سنجد طائفة أخرى من رفقائهم بالأمس في الجهاد يختارون صف المقاومة - بن شهرة وبوديسة وبن عودة وآخرين - وسيتصادمون مع إخوة الخندق من مجاهدي الأمس، وتتلاحق الأحداث فيغتال - في رواية - حمزة على يد المستعمرين بالسم، في إطار الانقلاب الغادر الذي سيستهدف الأسر والطوائف التي اعتمد عليها المستعمر في توسيع انتشاره العسكري والاستيطاني عبر الوطن وفي استكمال أهبته الحربية للاجهاز على البقية الترابية، وسيتولى أبو بكر بن حمزة الباشاغوية مكان أبيه، وسيمضي على طريق الخدمة، فينازل ثائر الرمال بن عبد الله ويقبض عليه ويتشتت الثوار في الصحراء والواحات وينزحون إلى الحدود ثم لا يتصرم وقت حتى تتقلب أسرة أولاد سيد الشيخ ضد فرنسا.

فجدلية المقاومة كانت مستمرة وقوية ومؤثرة ومحركة للضمائر بما كان يجري على أرض الواقع من أحداث لا يزداد به وجه العدو المحتل إلا بشاعة وشناعة.

فقد ظل التيار الوفي للمقاومة في تلك الجهة الجنوبية متأهبا لمواصلة القتال، متطلعا إلى استكمال العطاء، فلذلك استرسلت المقاومة وكان وقودها أولئك الوطنيون الذين انحلت عصبتهم بإيقاف زعيم المقاومة السابق الشريف بن عبد الله، إذ تسارع أتباعه إلى الالتئام من جديد وراء ثوار أولاد سيد الشيخ، ذلك لأنه كان على الزاوية الشيخية أن تنهض -في تلك النوبة - بدورها في قيادة المقاومة، وهكذا استوعبت الحركة الجهادية بسائر من ظلت قلوبهم تنبض

بالحقد على المستعمر والنقمة على طغيانه الأعمى، وسيتداعى مجاهدو الزعاطشة والأغواط بل وحتى مجاهدون ممن كانوا جندا نظاميا في جيش الأمير، وسيلتحمون جميعا في الميدان وراء الزعماء الشيخيين.

ولن نستطيع تفسير صلة المقرانيين[2] بالأمير إلا عن هذا السبيل، فقد رأينا الأمير يخرج عن امساكه في المغترب بالشام ويكاتب في شأنهم باي تونس من أجل رعايتهم ورد بعض ما كان أخذ منهم من أملاك، ونفس الصلة ربطت بن شهرة والكبلوتي والآموديين بالأمير، فقد كانوا جميعا إما ممن ساهموا في المعركة معه أو كانوا ممن صاغت أخبار جهاده مواجدهم فشبوا ثوارا، وسلخوا العمر كله في القتال.

ولن تجد لصلة بن شهرة تأويلا، ولن تتمكن من إدراك الدافع الذي كان وراء إختياره أن يلتحق بالأمير وأن يموت بالشام بعد أن قضى عمره في الثورة، إذ انتظمته ثورة الشريف بن عبد الله وكان وزير دفاعها تقريبا، ثم انتظمته ثورة أولا سيدي الشيخ، وكان ركنا من أركانها، وقبلهما كان أحد الذين جندوا قبائل الأرباع وأهل الأغواط وشق بهم الطريق نحو بسكرة حيث شاركوا في ثورة الزعاطشة، كما رأيناه يغدو سيفا من سيوف مقاومة المقرانيين، وممن اتصلوا بسبب أو بآخر بابن الأمير عبد القادر حين أقبل على الوطن

2- راجع في هذا الشأن ما كتب د. يحيى بوعزيز فقد ألقى مزيدا من الاضواء على علاقة الأمير بالأسرة المقرانية، وهذا في أكثر من مصدر من مصادره المهمة.

يشارك في تحريره في سبعينات ذلك القرن. كل ذلك لأن بن شهرة كان واحدا ممن صقلت المقاومة في عهد الأمير عبد القادر روحه، وتمكنت من أن تجتذبه وترسم له طريقه وأن تهيئه على ذلك النحو لذلك الدور الثوري الذي لم يكل ولم يستكن.

إن هذه الحال تقال عن المقرانيين أيضا، ألم يكونوا جنودا تحت لواء الأمير؟

لقد جند الأمير بلاد القبائل وتخوما من أقاليم الشرق، وجعل الأهالي هناك ينخرطون في الحرب معه، بل لقد ظلت جيوب في تلك الجهات تتعاطى القتال حتى بعد أن استسلم الأمير. فمن كان أولئك المجاهدون يا ترى إذا لم يكونوا هم آل مقران وآل الحاج السعدي وآل نسومر وآل.. أو من كان ينتسب إليهم بسبب، من مجاهدين ومريدين وطلبة ومعارف.

بل علينا أن ندرك أن أعدادا كثيرة من المجاهدين كانت تنسحب من الوطن ولا ينتظمها سبيل واحد كلما انكسرت انتفاضة وانقهر مدد، وهو ما حدث عقب مقاومة الأمير مثلا، وحدث أيضا بعد انتفاضة المقرانيين، إذ تشتت المجاهدون عبر البلاد المختلفة، منهم من انتهى به الجهد إلى صحراء تونس، ومنهم من حملته الأقدار إلى ليبيا أو مصر أو الحجاز، بل إن منهم من شق طريقه إلى اسطنبول، وأما بلاد المغرب فقد كانت بحكم وجود قبائل جزائرية فيها، بعد أن

انقسمت تلك القبائل بتعسف السياسة الاستعمارية[3]، تمثل مجالا مهيئا لاستقبال اللاجئيين الجزائرين على مدار تعاقب سائر الانتفاضات الوطنية.

وبغض النظر عن هذا وذاك، لابد من الاقرار بأن روح المقاومة الوطنية كانت عامة أو شبه عامة على الأقل، وإلا كيف نفسر هذا التلاحق والتداخل في سلسلة الانتفاضات التي لم تكن لتنطفئ في جهة حتى تشتعل في أخرى أوتتوازى معها.

لا أحد ينكر أن أقاليم الوسط قد بارزت العدو ووقفت في وجهه منذ الساعة الأولى واستمرت في المقاومة على نحو أو آخر، بحيث سوف نجد رجالها وقبائلها تمضي في الكفاح ولم تستسلم قط، بل أخذت مكانتها في الجهاد طيلة مراحل المقاومة سواء مع الأمير أو مع ثوار أولاد سيد الشيخ[4] أو ما تبع ذلك.

---

[3] - تكرر النظر في الحدود أكثر من مرة، إذ رأينا الأتراك يتواضعون مع السلطان المغربي على حد، ثم رأينا المستعمرين الفرنسيين يتواضعون أثناء كفاح الأمير على حد، ثم سيعيدون النظر في ذلك أثناء ثورة أولاد سيد الشيخ.. وهكذا . فالأحوال السياسية والجهادية هي التي ظلت ترسم خطوط الخغرافية بين الشعوب والأقطار.

[4] -لابد أن نتيقن من ان ثورة أولاد سيد الشيخ لم تنته في 1869، إنما استمر جناحها الثوري بقيادة سيدي حمزة وسي العلا ثم بوعمامة إلى ما بعد موف القرن التاسع عشر، من هنا نراها انتفاضة محرية استوعبت الانتفاضات التي زامنتها وصبت معها في نفس الاتجاه مثل انتفاضة المقراني ، انتفاضات المقار ومناطق التل.

ولهذا نرى أنه لم يسيء أحد لتاريخنا أساءتنا نحن له حين جزأناه حلقات وثورات وانتفاضات جهوية وإقليمية متفككة ومتناثرة ولا صيت لها.

لقد جعلنا للغرب ثورة الأمير، وللجنوب الغربي ثورة أولا سيد الشيخ، وللقبائل المقراني ونسومر، وسمينا انتفاضة الزاب معركة الزعاطشة، وقلنا مثل ذلك عن جهاد توقرت وورقلة والشرق القسطيني.

وجعلنا تاريخنا الحديث على هذا النحو رقعا ملونة لا لاحم بينها.

فبأي روح يقرأ الجيل هذا التاريخ ؟ أبروح العصب والجماعات والدواوير ؟ أم بأي رؤية غير تلك الرؤية المفككة يستوعبه ؟

ومن جهة أخرى أوقعَنا هذا التفتيت لتاريخنا – تفتيت كانت دوافعه جهوية وذاتية أكثر مما هي شيء آخر – في مزلق التضخيم والتفخيم، وذلك حين رحنا نكيل أحيانا الأعمال والانجازات النضالية مجازفة وبلا ترو ولا حساب، ونتج عن ذلك أن أضحى الدرس التاريخي مزايدة تستهدف الاستجابة لدواعي الجهة أكثر مما هي نظرة قومية تقوم الأحداث بمعيار الموضوعية والواقعية.

لقد أودت بنا نزعة التنزيه والتهويل وتضخيم الحقائق بلا اتزان فاستنمنا للغرور، وهو ما حجب عنا أحوال قصورنا ووهننا، الأمر الذي جعلنا ننحدر إلى الهاوية.

لقد سقطنا في مزلق التنميط وأسأنا إلى المواقف الأصيلة والمنعطفات الحاسمة، إذ قومنا جهود السلف بنمطق المزايدة الجهوية بحيث تغاضضنا عن العثرات وساوينا بين الوقائع والأعمال والزعامات بمعيار التنويه، فخلطنا الحابل بالنابل، وأوقعنا درس التاريخ بذلك الاجتهاد التعصبي الأعمى في الضحالة المعرفية وهونا من شأنه.

وإنك لتتابع إعلامنا وهو يعرف بأبطال الثورة، فإذا الواحد جميع، وإذا الجميع واحد، نفس اللغة ونفس التمجيد ونفس الخراقة، وكأن الأمة التي عرفت ويلات الحرب لا تريد أن تسمع إلا الثناء والاشادة بمآثرها وبمثالية مجاهديها ولا شيء غير ذلك، متناسين هامش استخلاص الدروس التي مجالها التاريخ وما يحفل به من شواهد القوة والضعف، وغافلين عن أهمية أن يكشف للأجيال عن نقائص الأفراد بإزاء كمالاتهم من أجل أن تكون الأحكام أكثر واقعية وأكثر معقولية، وهو ما يكفل لها التأثير وتوصيل الرسالة.

ولن نفسر هذا الواقع إلا بكون الذين يصنعون بتاريخنا هذا الصنيع هم إما متأزمون نحوه، وإما محركون بالوطنية الساذجة التي ما أكثر ما عانى الوطن من ردود أفعالها الصبيانية المخزية.

لم يكن أبدا تاريخ الجزائر منظومة من المُزَق والحوادث المتناثرة التي استأثرت منها كل جهة بحادثة أو بمجموعة حوادث وقرأت فيها على ذلك النحو العرضي إسهام قبيلها في تأدية الواجب الوطني.

إنما الذي زج بنا في مقارفة هذا التشرذم التاريخي هو منطق العصبية والعشائرية الذي يميز نظرة المتنفذين في الشأن العام من غير أن يكون لهم التأهيل والكفاءة وبعد نظر.

أم يحسب الجهويون أن التاريخ مواسم ووَعْدَاتٍ ينهض فيها كل قبيل بنوبته في يوم معلوم من أيام الوطنية ؟

لقد ثبت أن هناك مناطق من الوطن لم يكن رد فعلها ضد الاحتلال ظرفيا ولا عابرا، وإنما ظلت تحتفظ بموقف الرفض والمقاومة للعدو على مدار العقود.

ولو أخذنا على سبيل التمثيل بلاد القبائل، وهي الأقليم الذي يحاذي مدينة الجزائر، حيث تم الانزال الفرنسي، وحيث عمل المحتلون جهدهم على إخماد نار المقاومة الفاعلة تمكينا لأقدام العدو من الرسوخ في عاصمة الوطن والتوسع في ما تاخمها من المناطق كمقدمة للانتشار في باقي جهات الوطن، فسنتوقع أن المقاومة بتلك النواحي تكون قد توقفت لأن القوات المحتلة سرعان ما عملت على التغلغل بعد أن كثفت من أعدادها وضاعفت من قمعها وملاحقتها لكل من كانت ترى فيه خطرا على بقائها.

والحقيقة التي لا ينكرها التاريخ أن مقاومة أبناء تلك الجهة استمرت بدون انقطاع وتكيفت مع ظروف الاجتياح، وثبتت على نحو يشرف رغم الاختراقات والنكوصات التي سجلت هنا وهناك، وإلا كيف نفسر التحاق زعماء هذا الاقليم بالأمير ما أن أعلن الجهاد، لو لم يدأبوا على المرابطة ومواصلة الكفاح بما امتلكوا من أسباب المقاومة؟

لقد ألفينا الحاج علي بن سعدي مثلا وكان قائدا للمقاومة في بلاد القبائل، قد تصدر النشاط الجهادي ميدانيا، وشن عمليات لم يكشف بعد عنها النقاب في قلب العاصمة ذاتها، إذ قامت فرق من المقاومين المنتسبين إليه بعمليات فدائية وباختطافات ونهب وسلب، وحولت ليالي العدو إلى اقتحامات باسلة، ثم لما اشتدت حيطة العدو وتأهب للرد المناسب، وجعل يهجم بدل أن يدافع، ويستهدف القرى والمراكز بدل أن يترصد المجاهدين في الأدغال، تحول بن سعدي إلى أسلوب آخر من الحرب أكثر ملاءمة، وتصدى للخونة من أبناء الجهة ومن تمكنت منهم الإغراءات الاستعمارية، واستطاع أن يستنقذ جهات وشخصيات، وأن يواصل المقاومة طيلة ذلك، وكان من نتائج تلك المقاومة انحصار المستعمر في قطاع جغرافي لم يعدُه إلا قليلا في تلك المرحلة.

بل لقد رأينا العدو يقتحم في اتجاه العمق مناطق المدية على سبيل المثال - ومثلها أقاليم الشرق - لما كان يلمسه من ضعف في هيكلة تلك المناطق التي كانت الإدارة المحلية لا تزال تديرها، ومن ثم كان المحتل يسلك إلى أهدافه من خلال

مصانعة العناصر الأهلية التي كان يدرك أنها كانت تسعى إلى الخلاص من البايلك. لا سيما وأن دعايته كانت توهم ضيقي النظر بأنه لم ينزل إلى البر إلا من أجل تخليص البلاد من الاتراك.

هكذا حافظت منطقة القبائل ورجالها على المقاومة ولم يقطعوها، بل تماسكوا ووقفوا لا يضيرهم أن تكون جهودهم تضررت بفعل ضغوط العدو وضخامة وسائله، ولم يهادنوه أو يعقدوا معه صلحا، وإذن فالتسلسل عضوي بين حلقة الكفاح الذي خاضه إقليم الوسط، باعتباره إقليم المواجهة وبين حرب المقاومة بقيادة الأمير، ومن يقل إن انتفاضة بلاد القبائل قد انطلقت مع نسومر أو المقراني فقد نظر إلى تاريخنا بمنظور الصحافة الاستعمارية التي لم تكن تلتفت إلى واقع الأهالي إلا إذا كانت الحادثة مهددة لوجوده.

ونفس الصلة العضوية نجدها تسترسل وتلحم بين انتفاضة الزعاطشة وبين مقاومة الأمير، إذ من يكون الزعاطشة وما تكون مناطقهم؟ أليست هي التي باشر الإشراف عليها البركاني خليفة الأمير ما أن تم له فتح المدية؟ ألم تكن مناطق الزاب على الدوام مناطق مقاومة بما في ذلك مقاومتها أثناء العهد التركي، حتى إذا نهض الأمير استجاب أهالي تلك الأقاليم إلى داعي الجهاد، واستمروا في المقاومة مع الأمير، ثم واصلوه بعده النزال ،وظلوا يهبون بجهدهم لالتحاق بكل مناد إلى الجهاد، فدعموا ثوار ورقلة

والأغواط [5] والبواشخة والمقراني وستلعب الزاوية الرحمانية دور المساند والمعيل والملاذ الذي يأوي إليه المجاهدون في كل وقت، ذلك لأن الجهاد كان بالنسبة إليهم فعلا قوميا ووطنيا مشتركا لا يتلون بلون الجهات التي تنهض به ولا بد من تلبيه وتقديم الضريبة فيه.

حقا، إننا بنظرة موضوعية مستقرئة سوف نجد عددا من الوجهاء الذين استوعبتهم مقاومة الأمير سيتحولون إلى الانخراط تحت لواء الإدارة الاستعمارية.

ذلك لأنهم كانوا قد انتهوا إلى القناعة التي انتهى إليها الأمير نفسه، وهو أن البنية القبلية التي كانت عليها الجماهير والأهالي وطبيعة الترامي القطري، وهزال العدة، وبدائية النظرة والتخطيط بالقياس إلى استعدادات العدو وتجهيزاته، لا تتيح لهم أن يستمروا على المقاومة، فأسرة بلحرش وبن سالم (يحي أخي الباشاغا بن سالم الأغواطي) وأولاد سيد الشيخ، وبوديسة، وبوضياف والمقراني و.. وغيرها من الأسر كانت جميعا مجندة ذات يوم مع الأمير، ثم ما عتمت أن أرغمتها تقلبات الحال إلى التعامل مع الفرنسيين، وربما اقتدت في ذلك بالأمير نفسه، ثم ظلت هذه الأسر ذاتها مصدرا للانقلاب والانقضاض على العدو، لأنها كانت تعلم

---

[5] - كانت منطقة بسكرة وسيدي عقبة وغيرها ملجأ للمجاهدين، لا سيما بعد النكبات، مثلما حدث لسكان مدينة الأغواط حين اقتحمها المستعمرون وباشروا مجازر للسكان العزل، فقد تشتت الأهالي ولجأ كثير منهم إلى بسكرة وكورها.

أن جنوحها للعدو إنما كان عن ضعف مادي وانعدام وسيلة، وليس عن ردة أو خيانة.

حقا لقد كان هناك من تلك الأسر عناصر أو حتى عائلات وزمر ثبتت خيانتهم، لكن التمعن العميق في أوضاعهم يجعلنا نقر أن المقاومة في عهد الأمير قد جهدت في أن تضم كثيرا منهم إلى حظيرتها، وهو ما جعلهم يتفتحون على آفاق ومفاهيم وطنية وقومية لم يكونوا يدركونها قبل المقاومة، لكن المآل الذي آلت إليه المقاومة الوطنية تحت قيادة الأمير - ولا نقول مقاومة الأمير باعتبار أن الأمير كان هو ذاته موصولا بإرهاصات المقاومة التي سبقته كما رأينا- قد هيأ ذلك التحول في التوجه بالنسبة لبعض تلك الأسر والقبائل.

بل لقد رأينا المستعمر نفسه يعمل على ضم تلك البيوتات والزمر إليه لما خبره فيها وفي دورها الجهادي من أهلية وقدرة على التحكم في زمام القبائل والأهالي.

وارتسمت بيانية المقاومة في صورة تواز وطني امتد نحو -وعبر- حدود الوطن الشرقية والغربية، إذ توجهت القوات الاحتلالية نحو إقليم قسنطينة، وتوجهت كذلك نحو إقليم وهران في نفس الوقت الذي استمرت فيه تفاعل إقليم الوسط.

ولما كانت الاستجابة الكفاحية الأهلية واحدة تقريبا في تلك الاتجاهات المختلفة، فقد هيأ ذلك الوضع قيام دفاعية

وطنية عامة ستنتظم الوطن وستستغرقه على نحو لا يكاد ينقطع، دفاعية كانت تأخذ أحيانا وجها ايجابيا وأحيانا أخرى وجها سلبيا.

إذ لا ينبغي أن نعتبر الحرب مستوى من الاشتداد العراكي قارا وثابتا على وتيرة مطردة واحدة، بل علينا أن نرى في سير المقاومة بيانية من الصعود والهبوط في المستوى، وعلينا أن ندرك أن أحوال الهبوط المسجلة في هذه الفترة أو تلك لم تكن قط توقفا أو انقطاعا، وإنما كانت الضرورة العراكية هي التي تقتضيها، وهي توقفات لا تخرج عن منطق الكر والفر الذي نجد المقاومة ككل قد مارسته، لكنه كان أسلوبا كليا من المد والجزر الذي يعوزه الانضباط لتعدد الفواعل وتباعد المدى الجغرافي بين الجهات والأقاليم الوطنية.

فما يمكن أن يسجل من توقف إنما كان في حقيقته مجرد انحسار وجزر تسجله المقاومة، كما أن تأخر التحام وتواصل الوقائع الكفاحية إنما كان يقع أحيانا بفعل الترامي القطري كما أسلفنا ولم يكن انقطاعا بالمعنى التفككي.

ولا ينبغي أن نتوهم أننا نريد أن نزعم من وراء هذا أن الروح القومية والوطنية كانت راجحة لدى الأهالي في تلك المرحلة، ولكننا نريد أن نثبت أن الاستجابة قد انتظمت الأنحاء كافة حسب تدرج و تجاوب أهلي تحكمت فيه عوامل الجغرافية في كثير من الأحيان، فأخرت شبوبه في ناحية عنه

في ناحية أخرى، لأن روحية الدين والجهاد هي التي كانت تلحم الضمائر.

فالمحرك كان روحيا جمعيا، ومن ثمة كانت الانتفاضات كلها تستهدف غاية انعتاقية ملية واحدة، الأمر الذي أضفى عليها جميعا صبغة المقاومة المشتركة على الرغم مما شاب الأفعال أحيانا من انحصار اقليمي أو مرحلي، وإلا من ذا الذي يدعي أن حروب الأمير كانت مقصورة على الغرب وحده، ومن ذا الذي ينكر انتهاؤها إلى الحدود التونسية شرقا وإلى شواطئ القالة وعنابة شمالا، رغم جثو المستعمر على تلك الأقاصي وتبلبل العمل الجهادي بسبب انقسام القيادة الذي ميز مرحلة أحمد باي؟

ثم من ذا الذي يدعي أن المقاومة في عهد أولاد سيد الشيخ انحصرت في نواحي البيض وشطر من الصحراء، وأنها لم تنته إلى سطيف وإلى ما حاذاه شرقا وشمالا وجنوبا، وأن التدافع الجهادي قد جعل المتطوعين، بل والقبائل من الأقاصي تهب إلى النواحي الجنوبية تواصلا مع القيادة في معركة لم يكونوا يريدونها أن تحرر منطقة بعينها، وإنما كانوا ينشدون تحرير الوطن كله من الدخيل الكافر؟ لقد انحدرت جموع قبائل رحمان وأخواتها من عشائر الشمال والشرق وأخلت أو كادت مواطنها في الحضنة وفي بريكة وفي التيطري والشلف وفي سبدو والتحقت بالهضاب، ونفس الاستجابة سجلتها عشائر التوارق من قلب العرق ومن أقاصي الصحراء وانزاحت في مدود نحو المنيعة ومزاب وبريزينا وللماية حيث كان مقر القيادة، وكان مقصد تلك

الجموع التي تركت أوطانها ومضاربها وهبت تستجيب إلى داعي الجهاد هو مبياعة أولاد سيد الشيخ على تولي القيادة ومواصلة الجهاد الذي كان الأمير قد عمق من مستوياته وشق دروبه المختلفة في وجه الجماهير.

إذ لا ننس أن حِلّية الجهاد ضد المحتلين ومشروعيته قد حسمت منذ المرحلة الأولى التي ظهرت فيها المقاومة. وتأكدت هذه الحليّة أو الشرعية بعد ذلك من خلال ما نشرته ثقافة الجهاد في دولة الأمير، حتى وإن ظل المستعمر يعترض على الإرادة الأهلية بواسطة صنائع ظلوا يهيئون له الفتاوى المضادة على مدى تاريخ الاحتلال، بما في ذلك تلك الفتاوى التي ارتفعت تطعن في شرعية جهاد ثورة نوفمبر نفسها بعد أزيد من قرن من مقاومة الأمير.

وما قلناه عن المقاومة في ظل أولاد سيد الشيخ نقوله عنها مع انتفاضة المقراني، إذ لا يمكن لعاقل أن ينظر إلى تلك الانتفاضة على أنها كانت جهدا قتاليا ونضاليا منفصلا عما سبقها وما لحقها من مظاهر الكفاح الأهلي، وإلا كيف نفسر الانتشار الواسع الذي عرفه العنف والتصدي للمحتل عبر مساحة تعدت نطاق الجهة إلى نواح عديدة بالصحراء والشرق والوسط؟ ثم كيف نفسر الوجهة التي أخذها المجاهدون المقرانيون بعد تفاقم الوضع من حولهم وسقوط قيادتهم المحلية أي بعد استشهاد المقراني؟

فالمكافحون المقرانيون أخذوا وجهتهم نحو الصحراء حيث كان في انتظارهم أركان من ثوار أولاد سيد الشيخ، من

أمثال بوشوشة وبن شهرة وسي العلا وطائفة الوجهاء ممن كانوا يواصلون عراكهم وفضلوا أن يستمروا على درب المقاومة ولا يلتزموا بالصلح الذي أبرمه فريق من أولاد سيد الشيخ مع فرنسا.

فقد تجاوب أولئك الأفذاذ مع الانتفاضة المقرانية وهبوا يوسعون من نطاقها في نواحي الهضاب والصحراء، لأنهم لم ينظروا إليها إلا على أنها جزء عضوي من تيار جهادي عام كانت الهبات المحلية تواصله وتصعد من وتيرته على ذلك النحو الكرونولوجي المتداخل أو المتعاقب. ثم علينا أن نتساءل بعد هذا كله، هل توقفت الأعمال الجهادية بعد انكسار المقرانيين وانسحابهم الصوري من الميدان ؟ ألم يواصل سي العلا وبوشوشة وبن شهرة كفاحهم الذي وسع من مساحته وجعل من تخطي الحدود الشرقية والغربية استراتيجية يتعبأ بها للكر؟

ثم ألم تبق الصحراء برجالها وقبائلها من التوارق الأحرار صامدة ومتصدية للعدو ومداومة على ردع كل مسعى لاقتحام حمى تلك الفيافي المترامية طيلة نصف قرن من ذلك التاريخ؟ أم أننا سنعتبر جهاد الصحراء وكفاح أبطالها وزعمائها من أمثال الشيخ آمود، نشاطا نضاليا مستقلا وغير مندرج في مجرى المقاومة الوطنية التي كان أبناء تلك الجهات من فواعلها ووقودها منذ وقت مبكر ؟

علينا أن نتيقن أن المقاومة لو كانت أفعالا محلية متقطعة لما دامت واسترسلت على مساحة تاريخية قاربت القرن، إذ

كيف تشاء الجماعات المحلية والجهوية لنفسها أن تقوم بذات الفعل اليائس الذي أودى بغيرها في جهات أخرى ؟ فلقد كان في تكرر انكسار الجهات التي قهرتها القوات الاحتلالية عبرة لمن يعتبر لو أن الأمر كان اختياريا، إنما المسألة الكفاحية كانت تفرض نفسها على البقاع والجهات جميعا ولم يكن الأهالي في أي منطقة يفكرون في حساب العاقبة ولا كانوا يضعون -كثيرا- في الاعتبار ما آل إليه مصير جيرانهم، لأنهم كانوا حيال مبدإ الجهاد المقدس، فلم يبقوا حبيسي منطق الانعزال والعزلة، بل كانت الموجة الكفاحية ما أن تنتهي إليهم - بدخول المستعمر ناحيتهم، أو حلوله قريبا منهم، أو نتيجة تواصلهم بسبب من الأسباب مع المقاومة حتى في جهات بعيدة - حتى تتحرك فيهم دوافع الجهاد، وحتى ينهض الطلائعيون - وفي الناس وفي الجماعات دائما طلائع - فيجرفوا من ورائهم الأهالي ويتقد على ذلك النحو موقع آخر على خريطة الوطن بلهيب الثورة، وبروح أهلية جهادية حافزها الانتصار لدين الله وللشرف.

على أننا من جهة أخرى نؤكد أن الرؤية الوطنية الموحدة بين الأهالي من جميع النواحي والأصقاع كانت ضعيفة وأحيانا عديمة، وربما كان من مظاهر ذلك الضعف الرؤيوي تفرد زعامات محلية أحيانا بانتفاضات وأعمال جهادية ضد العدو في معزل عن حركة الجهاد الكلية، لكن أمر هذه الحالات لم يكن ليغطي على الطابع الالتحامي الذي كانت وقائع المقاومة العامة تصب فيه والذي كان يضفي عليها صبغة التساوق في الهدف والغاية على الأقل.

فلو اعتبرنا مثلا بمقاومة الثائر المعروف ببومعزة الذي ظهر في نواحي الشلف، والذي نازل في أكثر من موقعة حربية القوات الاستعمارية وانتصر عليها قبل أن ينكسر ويتشرد وينتهي به المطاف عند الأمير عبد القادر هو وآله، لأدركنا أنه حتى فرديات الحوادث كانت تنزع إلى المجرى العام للمقاومة، إذ أن طبيعة أعمال العدو ذاتها وتنكيله بالأهالي على نفس الدرجة من الوحشية وشيوع أخبار جرائمه ضد القبائل كان يترك أثره البارز في الضمير الجمعي الأهلي، ويوحد بين مشاعرهم إزاء الظاهرة الاستعمارية، ويجعلهم يقفون منها على صعيد ردود الأفعال تقريبا ذات الموقف الدفاعي الذي كان يجد ترجمته في المقاومة.

**2- الأمير عبد القادر ومنزلة الريادة والرمزيـــة فـــي الجهاد .**

لعلنا لا نوصم بالسذاجة إذا ما تساءلنا عن مكمن عظمة الأمير عبد القادر في خريطتنا التاريخيـــة الوطنيـــة، وعـــن الخصائص والامتيازات التي تأتت له حتى يغدو حائزا على هذا الاستحقاق الذي لا يكـــاد يعتـــرض علـــى مشـــروعيته معترض ؟

فقائمة المجاهدين الذين التهمتهم نيران العراك دفاعا عن الحوزة والدين، يعدون بعشرات الألوف، إذا لم نقل بمائات الألوف، فكيف يرسو الرجحان على شخص الأميـــر فيفـــوز بصدارة المستأهلين ويغدو رسمه علامـــة رامـــزة للـــوطن، جامعة لمواجد العزة فيه ؟

وإنه لثابت أن الزعامات الكاريزمية تستمد على نحو أو آخر بسالتها من التربة والمحيط البشري الذي تظهر فيه.

أحيانا تتناغم فواعل الالتحام والبذل والبطولة في أوساط الجماهير فلا يلبث الوضع أن يتمخض عن مـــيلاد البطـــل القومي الذي يتقدم المسيرات الكبـــرى ويكتســـح الأرجـــاء، وأحيانا تتساوق جهود وتطلعات الجماهير المدنية والسياسية المشتركة وتهفو إلى أفق من الكمال الانساني فيكون الحاصل

ميلاد أسطورة سلمية وظهور الرجل الرمز الذي يجسدها على نحو ما جسدها غاندي ومن سار على خطاه.[6]

ولا تكاد حال الأمير تخرج عن هذه المعادلة، إذ أنه وليد بيئة أهلية أصيلة في القتال والمكابدة، فالرعيل الذي قاده الأمير إنما كان يجسد مستوى من الصلابة لا تبارى، وتكفينا شهادة بعض القادة الاستعماريين عن بأس أولئك الأخيار من سلفنا لنعلم مستوى فذاذتهم، لذا لابد أن نقر أن تأجج روح الإقدام التي تميز بها الأمير والتي شهدت بها تمرساته النزالية المتواصلة وجراحاته الجسدية العديدة وتكرر تساقط خيول النطاح من تحته إنما كانت حالة قتالية عالية تتجانس مع علو الأهداف القدسية التي كان ذلك الرعيل ينافح عنها بلا هوادة.

لقد كانت البسالة هي رأسمال الجيل الأول من المجاهدين، ولا غرابة أن يكون الأمير على تلك الحمية وهو يتوج هرما من الأشاوس ومن القادة الاستشهاديين أمثال الأخوين بن علال، بن سالم، والبركاني، والولهاصي وبن عراش، وآخرين..

---

[6] - يمكن أن ندرج زعماءنا المسلمين من أمثال بورقيبة ومحمد الخامس وفرحات عباس وزعيم حزب الوفد المصري زغلول وهلم جرا، فهؤلاء وظفوا خطابا معتدلا في مقارعتهم للاستعمار، فنشأت لهم في ضمير شعوبهم قامات وجسدوا مستوى من الأسطورة في الشعور العام.

وليس مبررا أن يظل عماليق الوطنية هؤلاء نكرة لدى الأجيال، تتجاهلهم (أجندات) تشريفاتنا بلا مبرر، بل إنه لوجه من التناسي يشبه العقوق أن لا نسمع بأسمائهم تطلق على دفعات الجند المتخرجين، بل ليت شعري متى ترشد دروسنا العسكرية والتربوية فتجعل من سير هؤلاء المغاوير مادة التأثير والاعتبار. أم أن الاستحقاق الوطني يسقط بالتقادم في وطننا العزيز؟

يكفي أن نستحضر وقفة التشريف التي حظي بها مثلا القائد الشهيد محمد بن علال من قبل الجيش الفرنسي نفسه بعد أن سقط هذا البطل في المعركة مستبسلا، ونتذكر ما صرح به بعض القادة الفرنسيين في ذلك الموقف المهيب وهم يعاينون جثمانه الطاهر مضرجا بالدم الزكي، لندرك القيمة الامتيازية التي كانت لذلك الأسد من رجال الجهاد الذين واجهت بهم الجزائر تحت زعامة الأمير قدرها الفاجع مع الاستعمار الأوروبي الحديث.

وبكل تأكيد أن القائد ابن علال لم يكن إلا واحدا من سور من الرجال الصناديد الذين وقفوا للعدو وألحقوا به ما ألحقوا من هزائم لو لم يغالبهم بالعتاد المتطور وبالجاهزية اللوجيستيكية لصدوه وأعادوه من حيث أتى.

ولن نتردد في القول إن امتياز الأمير جاءه – زيادة على نبوغ شخصيته الملموس – من كونه أول من وضع الحجر الأساس لبناء الدولة الوطنية الجزائرية في العصر الحديث.

فقد كانت المسؤولية التي أخذها على عاتقه تتعدى بكثير بذل النفس في سبيل الوطن منافحة عنــه، ذلــك لأن أمــر التطوع للجهاد كان يعني عامة الأهالي، إذ كل مواطن كــان مرشحا لأن يغدو مكافحا ومشاركا للبقية في البــذل بمجــرد الانخراط في الصفوف، أما أن يتأهل لأن يتفــتح بجهاديتــه على مجالات مدنية تأسيسية وفي مقدمتها أمر بنــاء الدولــة وتشييد صرحها من عدم، فذاك هو البلاء المبين الذي واجــه تبعاته الأمير على أشق ما تكون المواجهة، وأمكنه أن يثبت الأهلية والتحدي بازائه.

وإنه ليسعدنا أن نقدر الجهد بسهولة كبيرة إذا نحن التفتنا إلى راهننا الوطني اليوم، إذ أنه وعلى الرغم مــن تصــرم زهاء الأربعة عقود على تحررنا من نير الاستعمار، إلا أننا وحتى اليوم نعيش -باعتراف الجميع -من غير مــا دولــة محترمة[7] ناهضة تمتلك القوامة التي تجعلها ســيدة الجميــع وتحظى بقبول الجميع.

إن هذه الاعتبارات التي عشناها في تجربتنا العبثية مــع ما أسميناه بناء الدولة في ظل التحرير والاســتقلال، ورفــع شعار (دولة لا تزول بزوال الأشخاص)، والنتائج المخزيــة التي حصدناها بعد عقود من الحرية والتحكم الذاتي، تجعلنــا فعلا نقدر الجهد الجبار الذي اضطلع بــه الأميــر ورجــال

[7]-لا ينبغي لنا أن نتضايق من وصف الغرب لكثير من دولنا بـــ L. etat voyou- وإن كان النعت ينطبق على بعض دولهم، لا سيما تلك التي أوقعتها مكاسبها الامبريالية في العجرفة، مثل الولايات المتحدة.

المقاومة الطلائعيون، في تأسيس دولة من عدم وفي أشق الظروف ضراوة، والصمود بها في وجه العدو الغاصب.

وإنه لثابت أن الأمير – ومجمع أهل الحل والعقد – ومنذ الانطلاقة الأولى قد أخذوا على عاتقهم مسؤولية إحداث القطيعة مع نظام البايلك البائد في ما يشيدونه من جهاز حكم وإدارة يسيرون بها شؤون البلاد.

لقد كان الحس السليم والتماس العضوي بالواقع الأهلي يجعل من أمر القطيعة فعلا رهانيا ومصيريا تتحدد في ضوئه تجربة بناء الدولة التي كانت أولوية الأولويات. إذ كان مطلب الجهاد عرضة للتبخر ما لم تتهيأ له الشروط الموضوعية التي تنهض به والمتمثلة في قيام الدولة المجاهدة.

لقد نص الأمير وأهل الرأي من الوطنيين في محضر البيعة ذاته على طبيعة السياسة المغايرة التي سينتهجونها للسير بالأهالي في طريق الانعتاق.

" اعلموا معاشر العرب والبربر أن الإمارة الاسلامية والقيام بشعائر الملة المحمدية قد آل أمرهما الآن إلى ناصر الدين ..وصار أميرا لنا ومتكلفا بإقامة الحدود الشرعية، وهو لا يقتفي آثار غيره ولا يحذو حذوهم، ولا يخصص لذاته مصاريف زائدة على الحاجة، كما كان الغير يفعله، ولا

يكلف الرعية شيئا لم تأمر به الشريعة المطهرة، ولا يصرف شيئا بغير وجه الحق[8].

لقد كان الأمير وأهل الرأي معه على وعي تام بما كان يجب أن تلتزمه القيادة والإدارة من قواعد سلوكية وتسييرية قادرة وحدها على أن تستهوي الأهالي وتستقطبهم وتجعلهم يتعاقدون مع الدولة الوليدة ويتواثقون من موقع الإخلاصية.

من هنا كان التشديد على ذلك الإجراء الذي كان على القيادة أن لا تتردد في اتخاذه، وهو الاعلان للجماعات والسكان كافة عن عزمها الحاسم على إحداث القطيعة في التسيير وفي السياسة مع ما سبق للإهالي أن عرفوه في ظل النظام البائد، وهو ما يعني أن السلطة الجديدة قد وضعت في الرهان أمر بناء دولة تختلف كلية عن الكيان المخزني السابق لاسيما على مستوى أساليب الإدارة والتسيير، معولة في توطيد ذلك التغيير على الالتزام بأخلاقيات التجرد ونكران الذات أساسا للترشيد.

ولما كان الأمير سيشكل رأس هرم الحكم وواجهته الإدارية، فقد كان مناسبا أن يبرز بيان البيعة الصورة المخالفة لما ترسخ في الأذهان عن أهل الحكم في العهد السابق، وذلك بغرض إظهار الصورة التي سيكون عليها العهد الجديد وضوابط سياسته ومنهاج قادته التسييري.

---

[8] التحفة 161.

لقد كان على الأمير أن يبدأ التأسيس في مجال السياسة الوطنية من الخطوة الأولى، وأن يضع حجر الزاوية لسيرة قيادة يريدها أن تكون ميمونة، وتحظى بثقة الناس وإجماعهم، وكان عليه تحقيقا لذلك القصد أن يعلن ومن أول يوم عن طبيعة القيم والمبادئ التي سيتبعها، وأن يشهر ذلك في الناس من خلال التصريح بتلك العهود وتلك التعهدات.

ومن سوء طالع شعبنا أنه ظل يجد نفسه يرث عن التاريخ شغورا مزمنا في مجال الأنظمة والهيئات الإدارية والمدنية التي تحكمه، إذ عاش الوصاية قرونا متتابعة حتى أوشك أن يستكين لقدر مسترسل من مصادرة الحقوق ومن السيبة والشرود المدني.

لقد عاش غيرنا تحت وصاية المستعمر لكن ذلك لم يؤثر كثيرا على نظمهم الإدارية وتقاليدهم السلطوية التي وجدهم المستعمر عليها، إذا لم يكن ألهمها إمكانيات عصرنة ارتقت بها.

بعكس حالنا تماما، لقد وطأ المستعمر أرضنا ونحن شبه عطل من النظام الإداري الأهلي الذي يجعلنا على صلة تمرسية بالمدنية، فاسترسل هذا المستعمر في عزلنا عن إدارة شؤوننا وحال بيننا وبين الشأن السلطوي العام، فلم يتحقق لنا من حظوظ الاندماج المدني والسياسي إلا ما ناضلنا طويلا من أجل افتكاكه، ولم يكن الحاصل منه –رغم كل الويلات– بالمعتبر، لذلك جاءت معركة التحرير ونحن على عدة محدودة من الاستعداد والجاهزية النظامية، فكانت تلك المعركة بحق بمثابة الطفرة التي تمكنا فيها من تحقيق التحول

النوعي الملموس، لكن ذلك التحول كان غير مهضوم وغير مصقول، مما ترتب عنه ظهور روح الاعتساف والغرور واستسهال المهام، بل والاخلال بها، لأننا فعلا أعطينا لحدث الاستقلال من الاعتبار وأضفينا عليه من التهويل ما جعلنا نستنيم للمشاعر والأهواء ولا نقدر خطورة المضي في قطع الأشواط.

والأدهى أننا عملنا على أن نطابق نظرتنا إلى الدولة مع نظرة الغرب إليها، ذلك لأن الدولة عندهم هي المنشأة المدنية التي يقيمها المجتمع لإدارة مصالحة وتسيير شؤونه بصورة تراجحية ينتفي فيها – ما أمكن الانتفاء- الإحساس بالطغيان والتنفذ والوصاية غير المؤسسة على الديمقراطية.

فنظرة الغرب إلى الدولة هذه تحكمها ظروف تاريخية عاشتها المجموعات الأوروبية في كنف ظلامية الكنيسة والاستبداد الملوكي المتأله.

وحساسية الغرب للديمقراطية تعكس منزعا جمعيا ينشد المشاركة في الشأن العام وفي سن نظمه وممارسة حق الاقتراح والاقتراع، وكل ذلك يشف عن الطبيعة التنازعية التي تنطوي عليها معاني الدولة. يمين يسار وسط وهلم جرا.

بل لقد رأى الفكر الأوروبي في الدولة التجسيد الحي للإرادة الجماعية التي نزعت منذ فجر التاريخ بالانسان إلى مقاومة التسلط والعبودية. فالدولة –من هذه الوجهة- هي الميزان الوضعي الذي تتعادل فوق كفتيه الإرادات المجتمعية

المتواجهة، وتتراجح، وتكتسب من ثمة شـرعية الاسـتيلاء على الزمام وقيادة المجتمع.

فالخلفية الابستمولوجية الغربية للدولة خلفية خضـوع وغلبة – اعتبارا للماضي الاقطاعي والوصاية الكهوتيـة – كما أن الصيرورة التاريخية للغرب أضفت على مفهوم الدولة بعدا جماهيريا من خلال تتـويج المسيرة هنـاك بالأخـذ بالديمقراطية شـكلا معاصـرا للحكـم، وهـو مـا جعـل الابستمولوجية الخاصة بمفهوم الدولة نفسها تتلبس بمعـاني النزاع والمغالبة والتجاذب والتباري على السدة.

فمعنى الدولة ETAT يفيد في جملـة معانيـه : الحالـة والوضع وهي من الدوال المحيلة على السكون والاستقرار بعد الحركة والاضطرام، إذ أن من مكونـات دال ETAT = ETE، ويفيد الكينونة المنقضية = كان. وهذا يثبت أن أحوال التغير والحؤولة والصيرورة (صار يصير وحال يحول) هي أصول معنوية في دلالة لفظ ETAT، ممـا يوسـع الدلالـة لاستيعاب معنى التجدد والتطور أيضا.

كما أن فحوى ETAT أضحى يفيد مآلا وتتويجا لحركـة التاريخ ونهاية وقف عندها الفكـر الغربـي وارتضـى أن يمارس رهاناته التغالبية السياسية والاجتماعية والحضـارية في محطتها، رغم أن الماركسية شاءت للدولة مصيرا زواليا تماما تتحول به من حالة تحكم طبقي إلى حالة أخرى مثالية أو شبه مثالية حيث تغدو المجموعة المدنية هي بذاتها مصدر

الأمر والنهي، أي تقوم مقام الدولة في صـــورتها الطبقيـــة القاهرة الزائلة.

بل إن الانجازات الباهرة في نظم الاتصال والتعـــاملات الرقمية، وتوجهات العولمة لتشرئب برأسها نحو حال كونية افتراضية لنظم التسيير المستقبلية والتي ربما ســـتغدو فيهـــا صورة الدولة بمحدداتها المعاصرة مجرد شكل بدائي بائد.

إن هذه الخلفية الفكرية والتصورية التي ينطوي عليهـــا مفهوم الدولة لدى الغرب قد تورطنا في استنســـاخه وشـــكل أساس تمثلنا للدولة كآليات سلطوية تنازعية وكبُنـــى تســـيير مهيمنة وكاعتبارات تنفذ قهرية تحوز القيادة وتدبير الشؤون العامة بالإرغام والإكراه.

وهو ما جعل بين طرفي معادلة التمثل والواقـــع هـــوة سحيقة من التناقضات والمفارقـــات والإشـــكالات التـــي لا تنحصر مضارها في مستوى التباين الاجتماعي والحضاري بين واقعنا العربي الاسلامي المتخلف وواقع الغرب المسيحي المدني المتطور، ولكنها تشمل نوعية وخلقية القوى المنـــوط بها الأمر السياسي والتسييري، وهو ما عمق من التكـــاليف والأضرار.

فتجربة بناء الدولة تعد مظهرا إشكاليا سياســـيا ومـــدنيا مرتبطا بعملية بناء المجتمع المعاصر ذاتـــه، إذ أن مســـألة البناء الاجتماعي تشترط توفر مهندسين مدنيين على وعـــي عميق بمكونات المجتمـــع وبمقوماتـــه الفكريـــة والروحيـــة

والحضارية، وما يجري عندنا هو تحكيم قيم ومعرفة لا تنسجم إلا مع أحوال وأوضاع طبقة التنفذ، وهي أحوال وأوضاع متهجنة ولا تماسك لها، لذا كان ذلك التعارض الواضح والمتزايد في الرؤية بين القوى الفوقية المستلبة والطبقات التحتية المقهورة.

وينبغي أن نسجل هنا أن الرؤية التحتية - الشعبية- أوشكت اليوم أن تفقد ثوابتها وارتكازاتها المدنية والاجتماعية والمعتقدية بسبب انحسار دائرة المجتمع التقليدي وانقراض الاجيال التي حملت القيم الأصيلة وحافظت عليها وانطواء صفحتها الوشيك أمام ظهور الأجيال الجديدة التي فتحت عينيها على اللا أصالة وعاشت لا هي بالعصرية ولا هي بالتقليدية، الأمر الذي نتجت عنه مضاعفات، وساهم في ظاهرة التفكك والقطيعة بين دوائر الحكم والمجتمع. ولن يمتلك المجتمع غدا توازنه إلا بجهد تحصيفي مُلحٍّ، يبدأ ضرورة من ابسط المظاهر الحياتية والذوقية بدءا من تأصيل مجال (الموضة) إلى أسمى مظهر في سلم القيم التمدنية الوطنية.

لم يعش الأمير ما نعيشه اليوم في مضمار بناء الدولة، فقد تمكن بجهد وببصيرة أن يفاعل المجتمع من خلال مقوماته الأخلاقية والعرفية والنزوعية، واستطاع أن يسير به نحو النهج الذي يجعل من المجتمع ماهية مترابطة متصدية للعدوان، وهذا رغم أوضاع الحرب ورغم طبيعة البنية القبلية السافرة التي كانت قاعدة الاجتماع ومرتكز أخلاقياته في ذلك العصر.

هل يسعنا أن نقول إن الوضع الخام الذي كان عليه المجتمع من حيث المستوى الفكري والاجتماعي البسيط، قد ساعد الأمير عبد القادر على إنجاز المشروع الوطن بأدنى التكاليف قياسا إلى ما نتكبده نحن اليوم في عملية تأسيس الدولة وإقامة دعائم المجتمع المعاصر؟

دعونا نتعرف أولا على شيء من الخطوات العملية التي انطلق منها الأمير نحو تنفيذ خطته، ليتسنى لنا في ضوء ذلك تقويم مواطن القوة ومواطن الضعف في منهجه.

وعلينا في البداية أن نلاحظ أن المشروع الوطني الذي قاده الأمير كان مشروعا تبنته الجماعة، بل وهيأته بنفسها، وانخرطت تتابعه، إذ الأمير كان يتحرك ضمن تيار نخبوي أهلي جامع، بادر إلى التصدي لملء الفراغ السياسي والجهادي الذي طرأ على البلاد عقب انهيار الأتراك، وتوسل إلى ذلك بخلق الهيئات التمثيلية وذات الحظوة والاعتبار الأهليين.

شرع الأمير في تأسيس الدولة الوطنية، فأقام الهياكل وشرع يتوسع في بسطها عبر النواحي فيما كانت تواجهه من صعيد آخر، إدارة طفقت تنشئها الإدارة الفرنسية وتحوز بها الأهالي إليها كلما توسعت في الزحف والعدوان. كما كان هناك قطاع إقليمي آخر يتبع سلطة أحمد باي، الأمر الذي عرقل انعقاد الوحدة وبالتالي فوت على التجربة الوطنية فرصة أن تتعزز بالتحامها غربا وشرقا وتطويقها للثغور الشمالية حيث نفذ الدخيل، وهو ما هيأ الأسباب لما ستعرفه

الجزائر من أطوار ستعيشها تحت نير الاستعمار، وإن كان ذلك الواقع غير المتوحد جنب البلاد مصير التمزيق، إذ أن احتمال نشوء ساحل منسلخ عن الرقعة الوطنية الأم على نحو حال مليلية وسبتة، قد تجاوزته الجزائر بوقوعها جملة في الأسر، وإلا كان سيسع الغاصب أن يركز أقدامه على الشاطئ، ويفرض على البلاد بالمواثيق أن تعترف بسيادته، ونخسر بذلك جزءا من كياننا الجغرافي والوطني.

لم يكن الأمير يتحرك - كزعيم سياسي أو قومي- من أجل استزراع نظام اجتماعي مستورد يريد أن يكيف الأهالي على الأخذ به وتنميط أحوالهم الحياتية والروحية عليه، ولكنه صدع فيهم من أول لحظة بأن مرجعيته ستكون الكتاب والسنة وأن شريعته هي شريعة القرآن، وبذلك الحسم في اختيار العقيدة التي سيسير المجتمع على وفقها، يكون الأمير ومن معه من الطليعة حسم إشكال الايديولوجية- وإن كان الفكر الايديولوجي بمعناه المعاصر لم يظهر إلا فيما بعد- الأمر الذي ذلل في وجهه كثيرا من الصعاب، بحيث أزال تقريبا من الطريق الموانع التي كان يمكنها أن تعترض على المشروع الوطني لو أن هذا المشروع لم يتخذ شعاره القرآن والعقيدة الاسلامية، حيث يمد الوجدان الأهالي جذوره.

ليس معنى هذا أن الأهداف العليا كانت جلية أمام الرأي العام - إذا صح التعبير - ويكفي أن نذكر بمصير القاضي ابن طاهر، أستاذ الأمير نفسه الذي عارض شرعية الجهاد، وحاول وأمثاله أن يقفوا حجر عثرة في سبيل المشروع الوطني، لندرك الصعوبة الكبيرة التي كانت تواجه الأمير.

لكن الأمير كان ينطلق من حافزية مزدوجة، مكنته من أن يتجاوز الاعاقات ويحقق النتائج الأولية المنشودة على صعيد نشر لواء الدولة عبر كامل ما كان يقع تحت يده من مناطق الوطن : فقد كان داعي الجهاد يدفعه إلى أن يلزم كل صقع أهلي استطاع أن ينفذ إليه بوجوب الانصياع إلى النظام والتسليم بالالزامات التي يقتضيها منه الكفاح ضد الكافرين.

ومن جهة أخرى كانت الشرعية تسوغ له أن يفرض سلطته على الجهات والجماعات لأنه السلطان المبايع والرأس المنوطة به تبعات فرض الشرعية والعمل على استتباب النظام وحشد الطاقات الدفاعية صدا للعدوان.

من هنا تكثف الجهد وتصاعدت وتيرة التفاعل الايجابي بين السلطة والأهالي، لا سيما وقد باتت النظم الاجتماعية نفسها تعرف تحولا، من خلال تصدي المجتمع، بتوجيه من الدولة، لمحاربة الأمراض والآفات الاجتماعية من زنى وسكر وتدخين وما إلى ذلك. فالدولة توسلت - من هذا الصدد - إلى إثبات حضورها الحيوي، عن طريق تطبيق برنامجها الذي أعلنته أول الأمر وهو تحكيم الشرع، وتركت للأهالي مجال المشاركة والتفاعل البناء، اعتبارا من أن ذلك كان مطلبا جماعيا وقاسما مشتركا بين الأهالي جميعا.

أجل لقد كانت مرحلة المقاومة منعطفا أساسيا في تاريخ مدنيتنا، إذ تم خلالها التّماس المباشر مع مدنية الآخر والتفتح

عليها، ليس فقط عبر جدلية المقاومة والرفض، ولكن أيضا عبر منطق الاستئناس والانبهار والتقبل والتبعية.

وكان على الأمير عبد القادر أو على الدولة الجزائرية بالأصح أن تتمرس على الثبات في الحمية، وفي نفس الوقت كان عليها ألا تتردد أبدا في تعديل الخطط وترجيح الميل الاجتماعي والثقافي والسياسي كلما استلزم الأمر ذلك من أجل تفادي العثار أو السقوط والفشل.

وإنه لمنطقي أن ترتبط شروط البناء السياسي والقانوني والمدني التي كانت تخوضها الجزائر بأحوال قادتها وظروفهم والجهود التنويرية التي بذلوها في تحقيق الأهداف السامية للوطن.

من هنا لا نستغرب إذا ما ربط الدارس بين أوضاع المؤسسات الادارية والقانونية والعسكرية والتمثيلية والأهلية، أي بين الدولة وبين القيادة، بل بينها وبين الأمير نفسه، إذ لا يمكن أن نتصور قيام كينونة سلطوية ذات بعد تأطيري وتجنيدي وطني أهلي من غير بروز قيادة رمزية تشخص الأهداف وترسم الوسائل والغايات. من هنا يغدو الحديث عن شخص الأمير في الواقع حديثا عن الدولة الوطنية التي أقامها وحكَم من خلالها البلاد ست عشرة سنة أو نحوها، والتي زالت بزوال مقاومته أو بتوقفها مرحليا على الأصح.

وإنه لطبيعي أن تغدو سيرة القائد – لذي شاء له القدر – أن يبرز إلى الصدارة في مرحلة جهاد وصدام حضاري

مريع، سيرة أعباء وجراحات ونكبات. فحياة الأبطال الوطنيين المجاهدين ينسدل دائما عليها ستار من تفاصيل درامية تتعدى أصداؤها النطاق الفردي لتغدو حالة من الحداد الجمعي لا تجد ما يلطف بعضا من مأساوتها إلا هذا التواتر الذي يضعها فيه العرف حين يجعل منها ذكرى قومية تنحني لها الأجيال.

إذ ليس هناك ما يفي الأبطال حظوظهم وحقوقهم لدى الخلف إلا لحظة الصمت والترحم التي يرتبونها لهم كلما حلت ذكراهم[9].

ولئن تتبعنا باختصار شديد المنعطفات البارزة في حيلة الأمير، لرأيناها منعطفات اكتسبت مأساويتها من جذريتها، فالأمير ظل يتحول بحياته من حال إلى حال معاكسة تماما في أكثر من مرحلة من عمره، ولم يكد يتوقف مجرى ذلك الانعطاف الجذري المتواتر في مسيرته إلا بوفاته عليه رحمة الله.

بل لقد شاء القدر أن تمضي سيرة الأمير على وقائع غاية في التناظر والتباين لتنتهي من حيث بدأت، راسمة على

---

[9] - يروى عن ديدوش أنه أوصى إخوانه قائلا "، أحيوا ذاكرتنا حين يغيبنا الموت في سبيل هذا الوطن" وإني لا أحد أبلغ ولا أوعب لكل ما يمكن أن يعتلج في نفس الانسان من كثيف الخواطر التي يريد أن يعهد بها إلينا لحظة الرحيل، من هذه العبارة.

ذلك النحو دائرة كان مفتاحها في المنطلق والمختتم الجو الروحي التصوفي الذي توارثت العيش فيه الأسرة القادرية.

أجل لقد عاش الأمير بين هذا وذاك حياة مفتوحة على المجهول قائمة على التكيف مع اللامتوقع إذا جاز القول، فمن أحضان الحياة الأبوية المتسمة بالصون والعناية العائلية إلى حياة الفتوة والسياحة في الأوطان، إلى الانخراط في الجندية وضرب السيف والخوض في المعمعان، فإلى قيادة البلاد وإدارة سياستها وبناء مرافق دولتها الوطنية، فإلى النكبات والانكسارات التي اعترضت السبيل الوطني وأجهضت مشروعه، ثم ما أعقب ذلك من تشريد وأسر ونفي، وما استجد بعدئذ على تلك الحياة في وطن الغربة من حظوظ ومن ذيوع مدني عالمي أطبق الآفاق.

إن التمزقات التي عرفها الأمير كانت ضارية ومتداعية، فحياته لم تجر على منوال اعتيادي ولم تأخذ مسارا طبيعيا متسق الأشواط، بل لقد رأيناها تمضي على وتيرة من الانعطافات غاية في المفارقة من حيث الوجهة والمصير، إذ أن الانكسارات التي عاشها الأمير هي التي عمقت من الميزة الوجودية والانسانية البارزة لحياته.

فموقع السقفية الذي شاء الله أن يحتله هذا الأمير الشاب في وقت عز فيه المثال والقدوة السياسية على مستوى العالم الاسلامي في تلك المرحلة المنحطة، كان أبلغ أوجه المعاناة التي تكبدها الأمير بكامل الاحتساب والعزم والاستخارة.

كان عليه أن يصنع الحدث الوطني بكل ما يتطلبه ذلك منه من جلد واحتراق وتحد واجتهاد، وأن يتلقى الوقائع بروح لا عاصم لها إلا الإيمان وصدق العزيمة. فهو في سائر مساره السياسي كان ينجز الأعمال من خلال المبادرة البكر بكل تكاليفها الثقيلة.

إن النوعية الباسلة من القادة الذين اتخذهم ركائز لدولته وحرابا لجهاده تبين طبيعة ومستوى الخصال التي كان الأمير يتحلى بها، فقد كانت همة أولئك القادة الذين ظل يحتفظ بهم طيلة عهد الكفاح تتجانس مع ما كان يحمل بين جوانحه من حمية وبأس وعنفوان.

كما أن نظرته إلى الانسانية ظلت - حربا وسلما -نظرة اعتبارية رحيمة لا شائبة فيها من عنصرية، منتصرا ومنكسرا، فهو يرى في المخلوقات البشرية عبادا لله. ولاغرابة أن نجده يعرب في جدله مع القادة المحتلين عن مشاعر المشاركة الانسانية وعن تلك الروح التي استحكمت فيها قناعتها الدينية المقربة بين البشر، فلم يعد يضيرها أن تظهر استعدادها لتقاسم المكاسب، بل وحتى الممتلكات متى كان الوازع انسانيا، فهو يخاطبهم بما معناه: لو أنا نعلم أن وطنكم ضاق عنكم وجئتمونا طالبين أن نفسح لكم لتعيشوا معنا لما ترددنا في التنازل لكم عن أرض تسعكم وتأويكم إلى جوارنا، فالأرض أرض الله وأنتم عباد الله، لكنكم جئتمونا غزاة محتلين، وهو ما أوجب علينا مدافعتكم بكل سلاح.

لقد دأب الأمير طيلة حياته يستخدم عبارة عباد الله الأصيلة التداول في الثقافة العربية الاسلامية، ولم يسعه أن يستخدم عبارة حقوق الانسان إلا كنتيجة تثاقفية على إثر احتكاكه بالغرب وإقامته في بلادهم.

بل لقد رأيناه يجنح إلى تأصيل تلك العبارة المكتسبة فيستخدم بإزائها تركيبا أكثر تراثية هو: حقوق الناس. الأمر الذي يعكس مدى تفتح وأصالة الحس التفكيري لديه.

لقد ظلت الجزائر تحت قيادته وحيدة بمفردها تقارع الغزو الصليبي، لم يُجْدِها استصراخ الأشقاء فتيلا، فأيقنت أن الأمة كانت تغط في سبات من الانحطاط عميق، ما لا يتوقع معه نصرة أو إغاثة. وكان ذلك التفرد مظهرا دالا على عظمة الأمير، إذ قارع أخطر الانتهاكات القومية وحده وصنع البأس هو وشعبه بعصامية لم تتوفر إلا للأفذاذ.

وقد يَعِنُّ لنا بعد كل ما عرفنا عن سيرة الأمير الجهادية والسلمية أن نتساءل :

لماذا أعرض الأمير عن تجديد التواصل مع الوطن بعد محنة النفي ؟ ألأنه كان ملتزما بالعهد الذي قطعه للفرنسيين الذين أضحوا مصدر معاشه أم أن الجراحات كانت غائرة وأن آثار الخيانات كانت من العمق بحيث لا يسع المرء معها أن يلتفت إلى الماضي ولا أن يفكر في ما آلت إليه أحوال الوطن؟ أم أنه كان – كما يرى بعضهم – أذكى وطني عرف قبل غيره أن طالع هذا الوطن نحس على كل ذي مصداقية،

وأن الوطني لا يجني من تضحياته وعطاءاته الوطنية إلا الشوك والدموع والغصص. لذلك عزف الأمير عن الاهتمام بشؤون الوطن العقوق وأدار وجهه عنه نهائيا؟

من الواضح أن هذا القول على سخريته البينة، لا يخلو من حقيقة سيعيشها كل فذ هب يحمل روحه على كفه يفدي بها الوطن وعزته، فقوافل الفدائيين والطلائعيين ظلوا في جملتهم – هم و ذووهم – محل تجاهل ونكران من قبل الرسميين لا الشعب.

بل لقد تبين بما لا لبس فيه أن التاريخ في وطننا لا يقاس بمعيارية موحدة، أو أنه لا يثبت على أحكام قارة، وفي ذلك ما فيه من استهتار يضر بالأخلاق والقيم، ويهبط بها إلى حضيض من المضاربة والسمسرة السياسية.

ومن غير شك أن هناك من الآثار التي قد يظهرها المستقبل ستكون أقدر على الإجابة عن هذا التساؤل وتكشف علة انقباض الأمير وعدم التفاته بوجهه ناحية الوطن.[10]

إنما الذي لا ينكره أحد أن الأمير قد أسعفه استعداده الروحي القدري وتمرسه الجهادي الكبير أن يتجاوز الصدمات والهزات العنيفة التي تلقاها في حياته، كما أن تلك الصدمات والهزات البالغة قد عمقت بدورها لديه ذلك المنحى

---

[10] – ومن يدري فقد نتبين أن الأمر على ما توهمنا، وأن الأمير ظل موصول الصلات بالجزائر رغم ما لحقه فيها على يد المنهزمين.

الروحي التصوفي الذي ظل يحمل بذوره منذ نشأته وطفق يعرب عنه باستمرار، الأمر الذي مكنه من أن يعبر المراحل الدقيقة من حياته بسلام.

فالمنزع التصوفي تعمق في روحه بتأثير الزلازل التي عاشها عبر حياته، إذ أضحت نظرته إلى الكون نظرة انسانية شاملة تمجد الانسان أنى كان.

فقد أضحى الأمير ينتمي إلى صنف من الانسانيين الذين يتحولون بتاثير ما يترقرق بين جوانحهم من فيض إلى ينابيع تغدق الحب والسماحة والسلام على بني البشر مهما كانوا.

فالتقوى حين تطفح بحب الله تتجاوز المنطق والمعايير التي يتواضع عليها البشر، لتغدو تنظر إلى الوجود والمخلوقات من خلال تعال روحي رحماني، وتلك منزلة يؤتيها الله لأولي الحظوة، وقد كان الأمير من ذوي الحظوة، وهو ما ظل يؤكده في ما كتب.

لقد دون الأمير سيرة حياته بدقائها في مؤلفه " المواقف".

فمن شاء أن يقرأ يوميات أو مذكرات الأمير فليعد إلى المواقف، فقد ضمنها ظاهر حياته وباطنها، ولم يكن مجالها الفيض وحده.

ولقد سبق الأمير في هذا المجال الصوفي المصلح العثماني النورسي رحمه الله الذي جعل من رسائله النورية هو أيضا [11] مدونة لسيرته الذاتية.

وذلك هو شأن العشاق دائما، بدءا بابن عربي وأضرابه، ممن أداروا مكتوباتهم حول معايشاتهم اليومية، فكتبوا مذكراتهم[12] ولكن بخطاب يشارف الواقع من علو نوراني سحيق.

وقد تتبدى لنا بعض أبعاد انسانية الأمير في مواقفه الشهمة مثل موقفه من مسيحيي الشام، وحتى في اختياره أن يثوي بجثمانه إلى جوار ابن عربي إمام القائلين بوحدة الوجود، تلك الفلسفة الروحانية التي نظرت إلى الانسانية بعين الغفران.

ومما يسجل في هذا المضمار عن تلك السيرة الانسانية المتفردة في تماسكها الصارم ما كان يتميز به الأمير من سلوك تعبدي يعبر عن الروح الصميمة التي كان يؤدي بها الواجبات الشرعية.

فمن الأحداث البسيطة- التي سجلها له الأوروبيون- التزامه الشديد بأداء الصلاة التي كان يأتيها بلا توان أو

---

[11] - راجع كتابنا : النورسي في رحاب القرآن . شركة سولر .1999. وقد عرضنا في بعض المقارنات إلى تماثل وتباين يجمع سيرة العلمين المجاهدين .

[12] - الفتوحات المكية هو من بعض وجوهه مدونة سيرة ذاتية.

تحرج أنى حان وقتها، الأمر الذي كان يجعله حقا نموذجا استثنائيا لا سيما في تلك البيئة الأوروبية وفي ذلك العصر وضمن تلك الظروف التقييدية غير المضمونة.

ويمكن أن نورد هنا ما وقع له ذات يوم بعد تسريحه من الأسر، إذ دعي لزيارة ملك فرنسا، فاتجه إلى القصر، وفي قاعة الانتظار، وكان برفقة تشريفات ووجاهات، وقعت عينه على ساعة حائطية[13]، وبعد حديث حول فارق التوقيت بين فرنسا والحجاز، راح يضبط ساعته على توقيت الحجاز، ثم بعد حين قام واتجه بكامل البساطة والتلقائية إلى ركن القاعة وشرع يؤدي صلاته إذ أدركه الوقت هناك. وكانت تلك التلقائية، وتلك الوقفة الخاشعة المستكينة لله، محل دهش وتقدير زاد من قيمة الأمير عند الحضور.

وستتكرر واقعة الصلاة في أكثر من موقف ومناسبة، مثلما حدث له ذات مرة وهو يجول عبر حديقة قصر الوزير الفرنسي، فقد انعطف فجأة عن مرافقيه وراح يؤدي صلاته فوق عشب الحديقة بكامل التواصل الروحي مع الله.

وهناك مثال آخر يؤكد روحانية الأمير التي لا تخطئه أنى كانت الظروف المحيطة به. موقف التفرد الذي جعله يوم أن دعي إلى حفل تدشين قناة السويس يمضي وحده ساعات الليل تحت نفس السماء وفوق نفس رقعة الأرض مع أسياد العالم ووجهائه، لكنهم قضوا هم ليلتهم في قصف وصخب

[13] - راجع تشرشل : حياة عبد القادر .ش.و.ن.ت.

وقضاها هو في استغراق وتأمل روحيين لفتا الأنظـار، لـم يختلط بالمحتفين في سائر ما أتوه من ألوان القصف والزهو والتحرر. لقد انفصل عنهم ناحية وبقي على وقاره يتدبر من بعيد كأنه غائب عما يدور أمامه. وتلك سجية روحية أخلاقية من العفة والتسامي كانت تسم رجال مجتمعنـا إلـى وقـت قريب.

سنعود إن شاء الله إلى هذا الجانب من سيرة الأمير في حديث آخر نخصصه لدراسة فكره وأدبه ومناقبه الشخصـية والوجدانية.

فهنالك يطيب الحديث عن جوانب النفس والـروح كمـا كان الأمير يميز بينهما، فقد ظل يقرر أن على الانسـان أن يقتل النفس ليحيي الروح إكمالا لشروط الحظوة.

أما الآن فسنقارب شيئا من التاريخ النضالي للأمير وهذا من خلال مباحث خمسة تتوزعها المحاور التالية:

**1–سيميائية الدولة الشبحية : الوصاية والمصادرة**

**2--أمـير الدولـة. دولـة الأمـير.**

*قراءة في شخصية الأمير وفي ملابسات تنصيبه*

**3--الحربيـة.**

**4--الدبلوماسـية.**

**5–البناء الثقـافي في دولة الأمـير عبد القادر.**

إننا نريد بهذا البحث الافتتاحي أن ننجز قــراءة أعمــق وأوسع نطاقا لتراث الأمير، وهو ما باشرناه فعلا، وأملنا أن يحالفنا التوفيق، والله المستعان.

وهران في 15-05-2001

د.عشراتي سليمان

## 3-سيميائية الدولة الشبحية : الوصاية والمصادرة

ما بين سقوط الدولة الزيانية العبد الوادية في القرن السادس عشر وظهور دولة الأمير عبد القادر تمتد مسافة زمنية قوامها ثلاثة قرون أو تزيد. إذ أن قيام دولة الأمير يتحدد بصورة مبدئية بتاريخ بيعته في نوفمبر 1832،

وحقا إنها لفترة طويلة هذه التي تفصل التاريخين بعضهما عن بعض، إذ هي فترة خليقة بأن تترك آثارها جلية على وجه الزمن.

لقد عاشت بلاد المغرب الأوسط قبل العهد التركي في كنف دولة جزائرية قح، هي دولة بني عبد الوادي، الامتداد الطبيعي والسلالي للدولة الزيانية.

وعاشت بعد العهد التركي في إطار دولة جزائرية قح أيضا، هي دولة الأمير عبد القادر المجاهدة .

فيما عاشت - كما نعلم - المدى التاريخي المديد الفاصل بين المرحلتين تحت راية حكم تركي.

ومن غير شك أن التطورات المدنية التي تقع لمجتمع ما أو لوطن بعينه تحت مظلة الحكم الأهلي تختلف حتما في الكثير أو القليل من حيث الخصائص عنها إذا ما كانت البلاد محكومة بالأجنبي. (هذا إذا افترضنا أن الأتراك كانوا أجانب عن الوطن والبيئة الجزائرية).

إذ أن تصدر الجماعات الأهلية لواجهة الأحداث وتوليهم إدارة الشؤون العامة وتوجيه الوقائع وكفالة سياسية الملك، كل ذلك يعد في ذاته امتيازا وعامل ارتقاء اعتباري واجتماعي يتأتى للمجموعة القومية ويتيح لطوائف منها أن تتنفذ من خلال امتلاكها للمقاليد، الأمر الذي يحقق لها مستوى تمايزيا تغدو به صفوة أو بالأحرى تغدو أوساطا فاعلة في كيان المجتمع، مهيأة لتزويد المجتمع بالكفاءات وبالنخب التي يؤهلها وضعها المدني لأن تكون طليعة في مضمار مواجهة الطوارئ، ومرجعية يُفزَعُ إليها حين تقتضي الحاجة الجماعية ذلك.

ولكن هل يحق لنا أن نتحدث عن وجود حكم أهلي في تلك العهود الاسلامية التي كانت الأمة ملة واحدة تتكافل ويتولى الأمر فيها كل صاحب شوكة مهما كان قبيله؟

من هنا كان طبيعيا أن يتضمن حديثنا عن المجموعة الأهلية بالضرورة الحديث عن ذلك الوضع الملي الذي لم تكن فيه المجموعات المحلية تنفرد بنفسها على الصعيد السياسي عن واقع الأمة في كليته.

فالنظام السياسي نشأ في الاسلام نظاما مليا، لا اعتبار فيه للعرقية.

وعلى الرغم من استتباب السلطان لخليفة المسلمين اعتبارا لبواعث اجتهادية وتغالبية، إلا أن الشرع لم يحصر السلطة في جماعة أو في عرق.

من هنا رأينا توالي شعوب اسلامية عربيـــة وفارســية وتركية وبربزية على سدة الحكم الاسلامي، لا سيما بعد أن تفككت دولة الخلافة[14].

فالأقوام والشعوب التي تشكلت منها هذه الأمة قد ألبسها الدين الواحد ثوب الإخاء الذي أزال عنهـا منـازع الفرقـة العرقية أو كاد، وجعل روح الانقياد والتمازج ترجح علـى روح الاعتراض والتفرق.

ذلك لأن الدين والملة قد تنزلا في الضـمير الاسـلامي منزلة الجنسية، الأمر الذي فتح باب العمل السياسي في دولة (أو دول) الاسلام أمام القوى والمجموعات الحية، وأتاح لها أن تتعاور قيادة الأمة إما بالبيعة ورفع شعار الشرعية، وإما بركوب أسلوب التغلب والتدويخ من أجـل الوصـول إلـى الأهداف والاستئثار بالسدة، لا يضير المتغلبين - في ذلك - أن ينتسبوا إلى هذه القومية أو تلك، ما داموا ينتمون جميعـا إلى ملة الاسلام.

لقد عاشت الأمة طويلا تحت نفوذ أعراق متعددة كتـب لها أن تعتنق الدين الاسلامي وأن تتحول إلى قوى فاعلة فيه، وهو ما وقع للقوميتين الفارسية والتركية مثلا، إذ أن العهد

---

[14] - لا يخفى هنا إشكال تعدد الخلافات في تاريخنا، فالأموية التي استوصـلت في المشرق استأنفت حياتها في الأندلس أمدا، والعبيدية زحزحت العباسية عن فضـاء واسع من حدودها وأقامت صرحها عليه، زيادة على ظاهرة انسـلاخ الأقـاليم والولايات التي عرفها المسلمون منذ وقت مبكر من تاريخهم.

العباسي كان عهدا خرج فيه زمام الإدارة تقريبا من يد العرب بعد أن كان لهم خلال العهد الأموي، لتتعاوره هتان القوميتان على أمد طويل.

بل إن شعار الخلافة نفسه ستتقمصه السلالة التركية، وهي عرق بعيد عن اليعربية، لكن الدين الاسلامي كفل لكل عصبة تتأتى لها القوامة على حفظ الدين والكيان أن تسوس الأمة وتقودها.

ولقد ظل الفعل الديني - بطبيعته العملية والمدنية في الحضارة الاسلامية- فعلا سياسيا بالأساس.

وظل الانسان المسلم طيلة عهود الازدهار الحضاري يتمرس بالمدنية تمرسه بالدين، ثم تراجعت أحواله الحضارية، وبمرور الزمن وتحت وطأة الانقطاع عن الأصول الحية من عقيدتنا انسلخ الانسان وتقهقر على صعيد المدنية وفقد تلك الاعتبارات الايجابية التي كان مجرد الانتساب إلى الملة يحققها له.

وكان حتما أن تختل أسباب الانسجام بين الدين والدنيا، بين الأخلاق والسياسة، بين الملة والأعراق، وأن تترجح المعادلة لصالح النزعات القومية، بحيث باتت المصالح مناطة بالانجازات العصبية في الأغلب، وبات التدافع والتجاذب يتركز على تحصيل المقاصد الدنيوية بواسطة (الصراع ) الفيئوي، أي من خلال اصطناع القوة، وذلك

منطق الغاب بعينه، وكان طبيعيا والحال تلك أن يتوسل كل طرف بما امتلك من قوة وكيد.

من هنا وقع الظلم والجور والتشرذم، وسارت الأمة في طريق منطق التخضيع والتخنيع الشعوبي الذي مارسته العصبيات، وثارت في الجسد الملي الاسلامي حساسية عرقية تؤججها نوازع القومية المتنامية بفعل الحرمان والخيبات والانسدادات المستقبلية، وهو ما انتهى بتفكيك كيان الأمة وعاد بها إلى جاهلية العصب والأعراق التي طمها الاسلام الحنيف لولا انحرافنا عن جادته.

ومما لا ريب فيه أن النزوع إلى التمرس بالسياسة وبإدارة الشؤون العامة كان أبدا حافزا حيا في الانسان، فمضمار السياسة هو مضمار السيادة، إذ تعاطيها يكفل للأفراد والمجموعات - حين تمتلك أسباب التمهر فيها - أن تحقق الظهور على من عداها من الفئات، وفي ذلك ما فيه من بواعث التفتح الذي ينعكس على السلوك الاجتماعي والمدني، ويهيئ جني المكاسب المادية والاعتبارية في شتى الميادين.

وطبيعي أن بقاء المجموعات بعيدا عن السلطة وعن التسيير العمومي يكون على حساب استعدادتها كقوة بشرية مهيأة للتمدن والتمرس السياسي، إذ أن عدم مباشرة المصالح العامة والمساهمة في إدارتها هو تحجيم للشخصية الجماعية وكف للقابليات وزرع لخلق الانطواء في النفسية الاجتماعية، وكل ذلك يترتب عنه بالضرورة حال من افتقاد العزة

والوثوق، الأمر الذي يستتبع نتائج تلحق الشخصية الجماعية من حيث كفاءة التعامل والتنفيذ المحكم، إذ ستفقد تلك الشخصية في ظل ذلك الواقع الإقصائي القدرة على الفعل المدني والدينامية الخلاقة والتأهيل الملائم لمتابعة صنع التاريخ، يستوي في ذلك الأفراد والشعوب، وهو ما قد ينطبق على أهالي بلاد المغرب الأوسط في المرحلة التركية، تلك المرحلة التي آل فيها الأمر إلى إدارة عثمانية قوام نخبتها وفعلتِها ورجالاتها في جملتهم تقريبا عثمانيون ليسوا من أهل البلاد.

**الأمير عبد القادر سلطان عصره.**

هبت البلاد تتصدى للعدوان فلم تجد ناصرا غير عصاميتها، وفتحت عينيها على واقع اجتياحي لم يكن يقتضي منها حمل السلاح والمرابطة على الثغور فقط، ولكنه كان يلح عليها أن تباشر مطاولة العدو الكافر الذي نزل على الأرض وشرع يتوسع في أقطارها.

ذلك لأن المجتمع الجزائري لم يكن قد أتل طيلة ثلاثة قرون إلا شراذم من النخب ذات الأصل التركي أو الكولوغلي التي أفرزتها العسكرية وتشكلت من متقاعدي الجند المقيمين في الحواضر والثغور البحرية حيث راجت إلى حد ما أسواق النخاسة ونشاطات المقايضة والاتجار مع الأجنبي، فكان جل طموح تلك النخب قد تكيف منذ زمن طويل مع مناخ التعامل على ما تحمل القوافل والسفن إلى الوطن ومنه إلى بلاد المتوسطي وإفريقيا وبلاد المشرق، وكان نصيبها في ذلك النشاط لا يتعدى فتاتا من الكسب

المادي، والانسياق وراء مركونتيلية يهودية وأجنبية بيدها الرأسمال والمهارة والتمرس في انتزاع الأرباح الطائلة من وراء الصفقات والعقود.

فخيرات البلاد من المناجم وثروات البر والبحر والمنتوجات الطبيعية كالشمع والأعسال والتمور والحبوب وما إلى ذلك، بالإضافة إلى المنتوجات المصنعة مثل الجلود والمنسوجات، كل ذلك هيأ لبروز فئة من التجار والسماسرة ومتعاطي حرفة الدلالة، والتراجمة، جلهم من قدامى المحاربين أو من خِلْفَتِهِم ومحيطهم ممن تعاطوا النشاط الاقتصادي في أدنى درجاته غالبا، مما أهلهم لأن يكونوا قريبين من الطبقة العسكرية التركية مصدر السلطة وأداة الحكم، وظلت الأواصر تتقوى بين الطبقتين على إيقاع المصاهرة والالتزام بمبدإ المصلحة المشتركة.

ضمن هذا الوضع الأهلي الأعزل كانت مؤسسات الزاويا المرفق الأهم الذي استطاع أن ينهض بدور تأطيري محلي أو جهوي على مستوى المجموعات الوطنية، الأمر الذي أهلها لأن تكون موضع اعتراف الأهالي، وهو ما سيتأكد حين يطأ المحتلون أرض الوطن، إذ ستغدو الزاويا يومئذ أهم مصدر لتخريج النخب وأقوى ملجإ يلوذ به السكان دفاعا عن أنفسهم وحرمة وطنهم.

وربما كانت جهات الغرب مؤهلة أكثر من غيرها لأخذ زمام المبادرة السياسية على المستوى الشعبي والنخبي، لشعور أهاليه بشيء من الانعتاق بحكم مجاورتهم للسلطان

المغربي ولإحساسهم النسبي بمدى ما يوفره لهم ذلك الوضع من انفساح في الخطوط الخلفية يتيح لهم حظا من التنفس من ربقة الإدارة التركية وعسفها غير المأمون، بخلاف أهالي الوسط والشرق الذين كانت قبضة الإدارة التركية تأخذهم من كل جانب.

وربما كانت النخب الحضرية والقبلية في الغرب أكثر استعدادا للاضطلاع بالمسؤولية الوطنية بحكم بروز بيوتات جمعت بين الحسب العريق والوظيفة الروحية التي كانت تقوم بها في الوسط الأهلي، لا سيما بعد زوال الإدارة التركية عن المنطقة وافتضاح المساعي الاحتلالية هناك، ولعل في طليعة تلك البيوتات أسرة الشيخ محي الدين، إذ كانت هذه الأسرة التي تنتسب إلى الرسول (ص) والتي كانت تنتمي إلى الطريقة القادرية ذات الانتشار والوجاهة الواسعين، قد اكتسبت تحت الحكم التركي خاصية يمكن أن نقول عنها سياسية، بسبب مزاياها الروحية والاجتماعية التي ترسخت لها بين الأهالي، والتي نَبَهت بها بينهم واتسع نفوذها، وهو ما كان يثير مخاوف الإدارة التركية، إذ كانت تستريب من البيوتات ومن الأسر والقبائل الأهلية ذات العراقة، تحسبا لثورتها ضد الوضع التركي المتفسخ.

لقد تعرضت فعلا أسرة الشيخ محي الدين لاضطهاد الإدارة التركية بسبب بروزها الروحي والاجتماعي، غير أن ذلك الاضطهاد ظل وقائيا لم يتعد إجراء فرض الرقابة والحجر المؤقت على النشاط الاجتماعي، وكان ذلك مدعاة لمزيد من القبول والاعتبار الذي ستضفيه القبائل والجهات

الأهلية الشعبية على تلك الأسرة، الأمر الـذي سـيهيئها لأن تأخذ دورها القيادي في ما ستعرفه البلاد من أحداث مقاومة الاحتلال الفرنسي.

لقد تأتى لرجال أسرة محي الدين أن يسافروا ويطلعوا على أحوال بلاد اسلامية مشرقية كثيرة، وكانت الرحلة والسياحة عبر الممالك دائما أفضل عامل تكويني مؤهل لفهم الحياة وفقه سياسة الأمم، الأمر الذي هيأ آل محي الدين لأن يكونوا قبل غيرهم مناط التولية والتقديم عندما ستقتضي الحاجة الوطنية ذلك.

ولا يعني هذا أن الجهات الأهلية الأخرى سواء في الجنوب أو في الوسط أو الشرق لم تكن تتوفر على بيوتات ذات مستوى من الجاه والاطلاع، أو أن بيوتاتها جميعا كانت على وفاق مع الإدارة التركية، فقد ظل القمع يستهدف كثيرا من القبائل وأهل الوجاهة من المواطنيين في كل جهات القطر تقريبا، بل لقد كانت الإدارة التركية تعيش حروبا مستمرة ضد السلطنات الأهلية التي حفظ لها وجودها بعدُها عن المراكز الحيوية التركية في البلاد مثل سلطنة توقرت وسلطنة آهقار ومشيخات الصحراء في تمنطيط وغيرها.

لكن هل كانت نخب البلاد فعلا متهيئة لأن تقرر مصير البلاد بنفسها وتخرج الوطن من محنة الاحتلال الفرنسي؟

علينا أن نعرف أن نخب قسنطينة وهي المدينة الثالثة في البلاد قد التحموا بأحمد باي رجل الإدارة الكولوغلي وتشبثوا

بقيادته لهم وتجندوا معه بصورة منقطعة النظير رغم دسائس العدو، ورغم الانفتاحات السياسية التي أتاحتها لتلك النخب ثورة الأمير.

وفي الوسط، لا سيما العاصمة، نجد أن ما تبقى من النخبة التجارية قد انضوى سريعا تحت الإدارة الاحتلالية، وشكل مادة إدارته الأولى في البلاد. نستثني عناصر منهم بوجزية حمدان.

أما في الحواضر ذات الشأن المدني مثل تلمسان وعنابة ومستغانم، فقد رأينا مجتمعات الكراغلة بها تمد يدها إلى العدو وتتعاون معه بكيفيات مختلفة.

بل لقد تحولت أوساط على حظ من التمدن بتلك الجهات من علاقة التساكن والاتجار مع المحتل إلى علاقة الانخراط تحت لوائه وقبول سلطانه وخدمته، مقدمة منطق النفعية الذي كثيرا ما تبرره عوامل الحفاظ على المكانة.

على أننا سنجد الأهالي -لا سيما القبائل البدوية والقروية من خلال قياداتهم التقليدية - يستمسكون بالجهاد سبيلا لمدافعة العدوان. وقد تجسد ذلك في الجهات المختلفة لا سيما تلك التي كانت على مقربة من المراكز التي احتلها العدو، وخاصة في مناطق الوسط والبليدة والمدية وما إليها.

فالأهالي هناك قد تجندوا وراء مشايخهم ومارسوا الجهاد التطوعي بصورة تلقائية، إذ خططوا له وواصلوه

رغم التضحيات الكبيرة والصدمات المتلاحقة، بل لقد التفتوا يطاردون ويقاتلون حتى أولئك الذين استمالهم العدو إلى معسكره فتجندوا في صفوفه أدلاء أو حمالين ومموتين.

وحتى نتمكن من الاجابة عن سؤالنا السابق هل كان الجزائريون مستعدين لإدارة البلاد في ذلك الظرف المتفجر بفعل الاحتلال الفرنسي والاستنفار الذي سببه الزحف العسكري على الثغور والأرجاء؟ وهل كان الأهالي في تلك الأوضاع قادرين على استخلاف الإدارة التركية البائدة ؟ علينا أن نتذكر شيئا من ملابسات ووقائع مبايعة الأمير عبد القادر، لندرك على نحو أوضح الآلية التي استجاب بها الأهالي لمقاومة الاحتلال.

فقد تصرم منذ أن دخل الاستعمار القطر حتى ذلك التاريخ زهاء العامين عاشتهما البلاد من غير ما حكومة أهلية ومن غير سائس ملي. وإنها بحق لفترة طويلة وغير محتملة ولا مقبولة لاسيما إذا أدركنا أنها فترة تخص أمة حرص دينها أشد ما يكون الحرص على تجاوز حال الشغور القيادي، إذ أوجب عليها الشارع أن تقلد البيعة وتمضيها للحاكم والإمام فور شغور منصب القيادة مهما كانت الظروف وكيفما كان المترشح. (من مات وليس في عنقه بيعة لم يمت على المحجة - معنى الحديث ).

لقد ظل أمر الهيكلة الشرعية من أوكد الآليات التي حسم التشريع الاسلامي أمرها وجعلها أولوية الأولويات، وإنه لفهم

ساذج ذلك الذي ظلت الأذهان تقرأ به وقائع تاريخنا القـديم، وفي مقدمة ذلك التاريخ أحداث ما يعرف بالفتنة الكبرى.

إذ أن الخطوط البيضاء والسوداء لتلك الأحـداث إنمـا نسجت تحت وطأة الشعور بالسـيبة الـذي دفـع بحشـود المتخاصمين في نهاية المطاف إلى أن يضعوا حـدا- ولـو جائرا - لنائرة الصراع والجدل، والاسراع إلى الانضـواء تحت لواء الحاكم المعلن حتى وإن كانوا يدركون أن الكيفية التي تم بها اعتلاؤه السدة إنما هي كيفية اغتصابية، وذلك كله دفعا لغائلة الشر ولوصمة التحلـل مـن ربـاط الحاكميـة والجامعية.

فلا جرم - والحال تلك- أن نجد المسلمين بعد معركة صفين يمضون فيهم صفقة التحكيم رغم جورها وتحولها إلى لعبة لا يكاد يستسيغها العاقل، ومـا ذلـك إلا لأن طوائـف المسلمين وهم يباشرون الأزمة علـى أصـرح مـا تكـون المباشرة قد لمسوا بصورة فاجعة ودامية أهمية التعجيل بالبت في أمر الحاكمية تقليصا لحجم الفجائع التي لحقـتهم ودرءا لوخيم العواقب التي باتت تتهدد الوجود الاسـلامي جـراء تأخرهم في حسم شرط القيادة.

من هذا المنظور يتبين لنا أن الأمر فيما يتعلق بوضـع الأهالي الجزائريين خلال العامين اللذين انقضيا مـن غيـر قيادة شرعية جامعة لهم هي حال مخالفة للعرف الشـرعي. وإذا ما أردنا أن نعرف سبب ذلك الإرجاء أو الابطـاء فـي

اختيار الحاكم، علينا أن نتذكر واقعة تقديم الشيخ محي الدين على رأس المقاومة لكي تتكشف لنا الملابسات.

فقد ذكرت المصادر أن أهل الحل والعقد من الأهالي عربا وبربرا بالجهة الغربية، بعد نزول المستعمر الفرنسي في ثغر وهران، قد قصدوا إلى السيد محي الدين شيخ الزاوية القادرية من أجل توليته عليهم فامتنع واعتذر لهم، ثم قصدوه ثانية وعرضوا عليه أن يتولى حكمهم وتسيير شؤونهم وأن يخوض بهم الجهاد فرفض أيضا، لكن إلحاحهم وحججهم القوية هذه المرة جعلت الشيخ يجيبهم إلى مطلبهم ولكن بشكل متحفظ فحسب، إذ رفض أن يتولى شؤون الحاكمية ككل وتقبل منهم القيام بأمر الجهاد وقيادة المجاهدين. هكذا تم تقريبا أمر تولية الشيخ محي الدين القيادة على أهالي الغرب.

لكن علينا أن نطرح السؤال مرة أخرى لمعرفة علة هذا التردد الذي أعرب عنه الشيخ محي الدين إزاء أمر التولية، بل علينا أن نتساءل لماذا بقي الأهالي كل تلك المدة من غير ما سائس يأخذ بمقادتهم يا ترى ؟ إذ لا شك أن بقاء الأهالي بلا قيادة مدة عامين والبلاء يجتاحها العدو، والثغور -التي طفقت على مدى قرون تجاهد من أجل تحريرها من وطأة الكافر - تتساقط الواحد تلو الآخر، دون أن تتمكن المجموعات الأهلية من أن تعقد البيعة لأحد وجهائها لهو - حقا -أمر يحتاج إلى تأويل .

لا جدال في أن من يكون على شيء من الاطلاع على أوضاع البلاد، لا سيما الوضع الاداري والأمني خلال العهد التركي، يستطيع أن يترسم الأسباب التي تكون وقفت وراء هذا التأخر في عقد البيعة لمن يحكم البلاد.

لقد بدأت الإدارة التركية في عهودها الأولى سيرة جهادية صادقة استطاعت بها أن تكفل لنفسها الاعتبار بحفظ النظام وفرض السيطرة على الجهات التي انتهت إليها إدارتها، بل واستطاعت أن تستقطب إليها حتى تلك النواحي القصية شبه المستقلة والتي كانت تخضع لها خضوعا معنويا من خلال ما تستحصله عنها من أتاوة سنوية أو من مجرد الاعتراف بسلطتها عن بعد، لكن بمرور الوقت وتحول الجهاد البحري -في أغلب الأحوال- إلى ما يشبه نشاط ارتزاقي محض، تراخت الضوابط التي كانت تجند الأهالي وتربطهم بالإدارة التركية، الأمر الذي شجع على اتساع نطاق المعارضة والعصيان بين القبائل.

فلم تعد جهات بعينها أو قبائل محددة وحدها هي التي تناصب الإدارة التركية العداوة، بل لقد فشت في القبائل روح التمرد، فما أن تستشعر القبيلة من نفسها قوة على المنعة ومواجهة الإدارة حتى تبادر إلى إعلان الرفض ورد نفوذ المخزن عليها، ولقد استشرى هذا الوضع الرافض في العهد الأخير خاصة.

وإذا ما ألقينا نظرة على مناطق الثورة والتمرد في أواخر العهد التركي بالجزائر، فسنجدها شملت مناطق كثيرة

ليس في الهضاب والصحراء فقط، ولكن في الشمال أيضا، فمناطق القبائل وهي على مرمى الحجر من العاصمة كانت دائبة على عصيانها رغم المساعي المتجددة لإخماد الثورة بها، ونفس الوضع الدموي عاشته جهات التيطري وما تاخمها، بل لقد تصاعدت الثورة هناك حينا غير قصير حتى انتهت باغتيال أحد البايات.

ونفس الوضع كانت عليه نواحي قسنطينة وبلاد الشاوية، بل ربما أسوأ، إذ رأينا تلك الجهة تقدم في بعض المراحل على خطوة حاسمة تمثلت في إعلان حاكمها وحاشيته عن الالتحاق بمملكة تونس، وهو نفس الموقف الذي أقدمت عليه -في بعض الظروف - طوائف من أهالي النواحي الغربية في تلمسان ووهران، إذ أعلنوا انحيازهم إلى السلطان المغربي.

لكن قبضة الحكم الانكشاري كانت تفلح دائما في فرض النظام وإعادة المنشقين إلى الحظيرة.

أما في المناطق الهضابية والصحراوية حيث كان ينعدم الحضور الفعلي والدائم للجند التركي، فإن الأهالي كانوا على علاقة إما مستقلة عن الإدارة التركية كما هو حال ورقلة وتوقرت وما تاخمهما، أو شبه مستقلة مثلما هو حال أهل بسكرة وأولاد سيد الشيخ والقبائل والقصور والواحات التي كانت تحاذي تلك الجهات.

بل لقد ذاعت شهرة قبائل ظلت على نزال مستمر مع الإدارة التركية طيلة الوجود التركي بالجزائر تقريبا، نذكر منها مثلا قبيلة النمامشة في الشرق الجزائري، وقبيل فليتة وسويد في الوسط الغربي، وقبيل النوائل وأولاد جلال في الهضاب.

لقد كانت هذه الفصائل المتمردة على خلاف وشقاق مستمر مع الإدارة التركية، فإذا ما أفلحت تلك الادارة في تخضيعها بالقهر والقوة أو حتى بالاستمالة أحيانا، فإلى حين فقط، إذ سرعان ما تعاود الإعلان عن خروجها عن الطاعة، مستهدفة أعمال النهب وقطع الطرق والاخلال بالنظام العام كإعراب عن رفضها للنظام وتجاوزها للسلطة.

بل لقد وجدنا بعضها يتمادى في ما كان يشن من غارات ضد النواحي التي اعتاد الإغارة عليها، فيتجاوز حدود القطر أحيانا، مهددا بذلك أمن السابلة والقوافل الداخلية والخارجية كما كان يحدث لقوافل الحجيج المغاربة، إذ ان القبائل العاصية كانت تحقق ليس فقط الحاجة الارتزاقية في أعمال النهب، ولكن أيضا المس بمصالح الإدارة وإحراجها أمام الرأي العام الاسلامي، حيث تظهرها بمظهر الإيالة غير المؤهلة لصيانة الطرق والمعابر التي يجتازها الناس وخاصة منهم الحجيج.

وقد وجدنا فعلا ذلك الوضع يربك أحيانا الإدارة ويجعلها تنتهي إلى القبول بالتفاوض مع بعض قبائل الحدود الشرقية تأمينا للسبل[15].

فلا غرابة والحال هذه أن يؤول الأمر إلى فوضى وانتهاكات راح نطاقها يتسع ويشمل كل الجهات التي باتت خارج النفوذ الفعلي للإيالة، ذلك لأن تحرر القبائل من سلطة المخزن كان يطلق يديها في أعمال النهب والإغارة ضد بعضها البعض وهو ما جعل مثلا مناطق الهضاب من أقصاها إلى أقصاها تقريبا تتحول إلى مسرح للغزو، إذ كانت القبائل الهلالية التي تنتشر فوق تلك الأرجاء، تجد نفسها تعيش فصولا ملحمية أخرى من أيام العرب على نحو ما كانت الذاكرة والوجدان الجماعيين يحفظانه لها.

وإنه لأمر طبيعي أن يزداد جو التمرد والمغالبة بين القبائل والجهات بعد زوال الحكم التركي وانهيار هياكل الإيالة وتصفية مخزنها على يد المحتل والإطاحة به في المناطق التي كان ينتشر عليها، وهو ما كان يصعد من أسباب التمرد ومن دواعي الفتك والنزال، إذ أن عدوى الفوضى سريعة الانتقال لا سيما في وطن ظل متحينا للتنفيس عما لحقه من عسف وتخضيع على يد حكامه طيلة قرون.

---

[15] - نذكر هنا التمرد الدائم تقريبا الذي كان يميز قبيلة النمامشة على الحدود الشرقية مثلا، إذ كان هذا القبيل يستهدف القوافل وخاصة قوافل الحجيج المغاربة، الأمر الذي كان يربك الإدارة التركية في الجزائر، تلك الادارة التي كانت تتلقى هدايا الحجيج دون أن تكون قادرة على حفظ سلامتهم داخل حدود الإيالة. وقد اضطرت أكثر من مرة للتفاوض مع المتمردين من أجل فك السبيل وتأمين السابلة.

بذلك كان من العسير علي البلاد أن تجد تماسكها سريعا، وتسترجع اتزانها في الحين كي تتصدى للمهمة الأسمى، مهمة تأطير البلاد وإيجاد القيادة الجامعة لها.

لذا تطلب الأمر انتظار زهاء عامين حتى يتسنى لأهل الحل والعقد أن يبتوا في أمر الحاكمية، وأن يختاروا من بين صفوفهم شخصية يؤمرونها عليهم.

على أننا من جهة أخرى نفترض أن الأهالي لم يكونوا يتوقعون من العسكرية التركية التي حكمتهم بالقوة على نحو ما حكمتهم،أن تنهزم وتستسلم لقدرها الإبعادي بتلك السهولة التي تم بها ابعادهم عن الجزائر، أما وأن الأمر قد وقع فعلا، فلا جرم أن هناك أملا جعل يداعب القلوب باحتمال عودة الكرة على الكفار، وأن الخلافة لن تتخلى عنهم بهذا الوجه السلبي فتتركهم فريسة لأعداء الملة، ومن شأن تفكير كهذا أن يزيد من تثاقل الناس ويؤخرهم عن حسم الأمر وانتخاب الحاكم.

وبكل تأكيد فأن التطلع إلى المدد الخارجي لم يكن مبررا كافيا لتأخير ظهور القيادة المحلية لو أن ظروف البلاد كانت سوية، إذ لا يعقل أن يرى الوطن مصيره يقع في يد العدو الملي، ولا يهب لانتزاعه بما يمتلك من قوة وبتنظيم الصفوف وترتيب خطط المدافعة.

حقا لقد رأينا الأسابيع الأولى بل وحتى الأشهر الأولى للاحتلال تعرف مقاومة أهلية جاءت استجابة لصريخ الحاكم

التركي أولا، ثم تتابعت بفعل الصدمة التي خلقها نزول العدو على اليابسة واحتلاله العاصمة، لكن هذه المقاومة سرعان ما انحسرت وفترت، وأضحت إما متربصة في موقعها تنتظر أن تنتهي إليها الجحافل الغازية فتتصدى لردها بما تستطيع من بأس، أو أنها كفت عن المدافعة الالتحامية لما رأت من قوة العدو واكتفت بمراقبته عن بعد، أو أنها جنحت للاستسلام إلى الواقع الاحتلالي على أنه قضاء وقدر.

لقد تراجعت المدود التي جاءت من قسنطينة والتي قادها أحمد باي، وتراجعت مدود أخرى من القوات التي هبت من أرجاء الوطن المختلفة، ومضى العدو يباشر هيكلة العاصمة وتحصين ثغرها ليتخذ منه منطلقا يواصل من خلاله التوسع، وفي مقابل ذلك بقيت الإرادة الجهادية الأهلية حبيسة الانتظار، رهينة وضع متفكك لا تحسد عليه.

ترى ما ذا كان ينقص الأهالي حتى يتهيأ لهم التعامل الأنسب مع الاحتلال الذي داهمهم فجأة ؟ لم يا ترى وهنت المدافعة ليس عن رد الكفار من حيث أتوا، ولكن حتى عن إيقاف توسعهم عبر الأنحاء، لا سيما وأن البلاد كما نعرف تتوفر على تضاريس تساعد على القتال المؤثر ولو باستخدام أبسط الأسلحة والكمائن قياسا إلى أساليب الحرب التي كانت لا تزال عصرئذ تعتمد على عدة الخيل والمزاحفة بالصفوف؟

هل لأن معين البلاد من الهمة والجهد ومن قابلية التضحية قد نضب نتيجة ما استنفدوه خلال معارك مواجهة الأسابيع الأولى والتي انتهت بانهزامهم، أم أنها كانت – في

الحقيقة- خطة ارتدادية اتبعوها مع العدو استجماما واستعدادا لمواجهته مع أول تحرك يقدم عليه ؟

الواقع أن العدو وإن تأخر وفشل في تحقيق الانتشار صوب عمق البلاد، إلا أنه سرعان ما انتهى إلى تحقيق مبتغاه واحتل مدنا وجهات من الوسط، مثل البليدة والمدية وقضى على ما قضى من حامياتها، وأسر من أسر من وجهائها رغم الخسائر الباهضة التي تكبدها والحمية الخارقة التي واجهه بها المجاهدون في أكثر من واقعة.

إذن فموقف الانحسار الذي أعقب حركة المقاومة الأولى لم يكن عن خطة، بدليل أن المقاومين لم ينجحوا في التصدي للعدو والاعتراض على تقدمه رغم الاستماتة التي كانت تحمل القوات الزاحفة على التراجع والنكوص المرات الكثيرة.

فأين كان يكمن الخلل ياترى؟ أهو في هوان شأن المدافعة الحربية ؟ أم في هوان نفسية الأهالي؟ أم كان في تفاوت العدة والتجهيز؟ أم أن الصدمة كانت من القوة بحيث شلت المعنويات وأتت على روح الاستبسال ؟ أم ..؟

الحقيقة أن المقاومة من أجل حماية الأوطان لم تقم قط، وفي أي عصر، على مبدأ التناسب في معدات الحرب بين المعتدي والمعتدى عليه، فحال المعتدى عليه غالبا ما ظلت هينة على صعيد العدة، لكن البديل الروحي والحمية الجارفة

هي التي كانت دائما تعوضه عن الفارق المادي وتتيح له أن يكسب المنازلة مهما كلفه ذلك من تضحيات.

كما أن الأمر لم يكن يتعلق بضعف في نفسية أو روحية الأهالي الجهادية، إذ سنراهم يسلخون عقودا كاملة ومتواصلة من الكفاح في تالي المراحل التي أعقبت احتلال ثغر العاصمة قبل أن يستسلموا للأمر الواقع بعد أن جردوا بالقوة ونتيجة تفاوت العدة الحربية واللوجيستيكية من كل أسباب المدافعة إلا من إرادة الصمود والتحدي الأعزل.

كما أن انحسار الأهالي ذاك لم يكن وليد صدمة أتت على معنوياتهم وقضت على دافعية المقاومة لديهم، إذ أن استئناف الكفاح كان حالا لازمتهم بتقدم العدو واستيلائه على أرجاء البلاد، بحيث أنه لم يكد يدخل منطقة من مناطق القطر إلا واجهته الجماهير بالحرب الضروس وكبدته فادح الخسائر.

بل إن العدو- وحيثما حل - لم يكن ليهنأ بالاستقرار، إذ كانت المقاومة تستمر ضد وجوده وبشتى الأشكال، ولم تكن روح الجهاد تخمد في نفوس الأهالي إلا بمرور الوقت وثبات العدو في المطاولة وقهر الأهالي بأساليب وحشية وإبادية غالبا.

فالاختلال الذي عرض لواقعة المصادمة الجهادية الأهلية في مبتدئها إذن كان يتجاوز كل هذه الجوانب المتصلة بطبيعة الانسان الأهلي وبروحيته وبغيرته الملية والوطنية، إذ

كان خللا موضوعيا يكمن في الوضع التأهيبي المشلول الذي أعاق الأمة عن أن تمسك بالزمام في الوقت المناسب وتمارس حق الدفاع عن كيانها وتستنفر قواها وتحشدها في عين المكان الذي اندحرت فيه طلائع المتطوعة الأوائل من المجاهدين ومن الجند النظامي المخزني، صدا لالتفافاته وتسرباته إلى الداخل.

فإتاحة الفرصة للعدو بمهادنته أو بالانسحاب غير المدروس من أمامه حتى يرسخ قدمه على اليابسة، وانتظار فعل يبدر عنه للقيام برد الفعل ضده، هو من دلائل الخذلان التي كثيرا ما أتيت من قبلها الأوطان.

لكن لماذا وقع الافتتان ؟ ولماذا ساد ذلك الجو الذي جعل الأمة تبدو وكأن الأمر فلت من يدها، فلم تتمكن من أن تلقي بثقلها في الموقعة وتصفي الجيوب الأولى للاحتلال؟

من الواضح أن ذلك الوضع لا يجد ترجمته ولا يتبرر إلا باحتمال غياب روح المسؤولية ونضوب وازع المبادرة الأهلية الناجعة. ذلك لأن خمود المقاومة الميدانية بعد سقوط النظام الانكشاري، أو على الأصح بقاء المقاومة محصورة في النواحي المتاخمة لموقع نزول المحتلين، ليدل على تدني مستوى الوعي الأهلي العام وعدم قدرته على تجنيد الناس وجعلهم جميعا على إدراك بالمخاطر التي حلت بالبلاد.

وإنه لواضح أن البلاد بذلك المستوى من التعامل السلبي مع الخطر الذي داهمها إنما كانت تحصد ما زرعه النظام الانكشاري العسكري منذ قرون.

لقد كان الأهالي يتصرفون خلال تلك الواقعة المزلزلة تحت تأثيرات ثقافة التخلي التي عمقها الوجود التركي في البلاد، فقد ظل المخزن يعامل الأهالي معاملة الصد والابتزاز بل وحتى بضرب من الذمية، وهو ما كان له سيء العواقب، حيث آل الأمر بهم إلى حد أن استحكمت فيهم روح التجرد من المسؤولية، نتيجة ما أحدثه في نفوسهم ذلك الواقع الاقصائي المستمر من كف ومن إضعاف لنوازع الانتماء الجماعي القطري.

بل إن سياسة النبذ التي اتبعتها الإدارة التركية ضدهم قد كرست روح المقت والعداوة التي ظلوا يمارسونها تجاه بعضهم بعضا كقبائل وجهات وأعراشا، بل وانتهى الأمر بهم إلى أن يسلكوا نفس سلوك التفريط الذي عاملهم به الحكم التركي حيال واقعة الاحتلال من حيث يشعرون أو لا يشعرون.

فثقافة الإزاحة عن ممارسة الشأن العام وما ترسخه من إحساس لدى الأهالي بتبوئ مرتبة الدونية والمأمورية، كان من أهم الأسباب التي جعلت الجماعات الأهلية تستغرق من الزمن زهاء العامين قبل أن تفلح في اختيار حاكما من صفوفها يلم شعثها ويضبط جوقتها.

من جهة أخرى علينا أن لا نحصر المسألة في الأسباب المذكورة آنفا، بل لابد لنا من أن نتساءل هل كان مجتمع الأهالي فعلا يتوفر على الاحتياط البشري الذي يتيح له أن ينجز بكل سهولة مهمة اختيار المسؤول والقائد القومي القدير، أم أن ذلك المجتمع كان أيضا يعاني من نقص في الكفاءات البارزة التي تستطيع أن تميزها الأنظار بيسر لدى أي اختيار تأطيري يمس سياسة البلاد ومصير المجتمع؟

الواقع أن المجتمع القبلي لم يكن يعلم شيئا عن مقدار الكفاءات التي يتوفر عليها، إذ أن محك الظهور والتأهل الاجتماعي هو حركة الحياة نفسها، وما دام المجتمع الأهلي برمته ظل يعيش ضربا من الإقصاء المكرس وفق بنية يميزها التفكك العشائري، فلا مناص من أن تظل الطاقات محجوبة والقدرات كامنة، وحتى وإن هي ظهرت، فعلى نطاق ما تسمح به النشاطات الأهلية ذات المدى الضيق عادة، إذ هي نشاطات تنغلق على حد لا يتعدى مستوى العائلة والقبيلة والدشرة والحومة ولا تخرج عن ذلك إلا نادرا، لا سيما وأن طبيعة الحكم كانت طبيعة متعالية وقائمة على سيادة عرقية تركية أو كلوغلية تتعارض مبدئيا مع بروز سيادة أخرى موازية تنبع من الوسط الأهلي.

ومن جهة أخرى لابد من التذكير بحال الانقطاع التي كانت عليها البنية الاجتماعية الأهلية، فالنظام القبلي وشروط التواصل البدائية، والمستوى المعيشي الرعوي السائد جميعا كانت لا تكفل تحقيق الترابط الأهلي الواسع الذي من شأنه أن يسمح لبروز الجماعات والكفاءات العمومية.

ويمكن في هذا السياق اعتبار رفض الشيخ محي الدين للتولية شاهدا يتضمن هذا التجرد الذي قد تكون رسخته شروط الكف التي استهدفت الأهالي طويلا من قبل السلطة العثمانية وجعلت الأهلي مهما سمت منزلته بين القوم يتجنب قبول الرئاسة حتى في ظروف اضطرارية كالتي عرفتها الجزائر في تلك المرحلة.

بل سنرى هذا التنصل من التولية والقيادة سيلازم الأمير عبد القادر نفسه الذي طفق يعرب –حتى بعد مبايعته – عن رغبته الحق في التخلي عن المسؤولية وتسليمها إلى غيره.

حقا إن الأعباء غير المحدودة والمعقدة والمتسمة بالاصطراع على السؤدد هي التي كانت تدفع الأمير إلى الإعراب عن تلك الرغبة، ولكن المؤكد أن من بواعث تلك الرغبة ما كان يعود إلى أوضاع الأهالي المتعسرة عن التكيف والانضباط والثبات على الالتزام. فالقبائل كانت لا تفتأ تتحلل من موثقها، إذ كانت طبيعة التسيب واللانظام التي عاشتها عبر العهود لا تفتأ تنزع بها إلى اختراق الحدود والقوانين والنكوص إلى السلبية.

ومن المعلوم أن المجتمع الأهلي كان يعيش تحت نفوذ الحكم التركي مستويين أو لنقل نظامين تأطيريين، نظام اسمي مرتبط بإدارة البايلك وبالشؤون العامة، ونظام فعلي يتحدد نطاقه كما أسلفنا بالأهل والقبيل وبالروابط المحلية، إذ أن العرف في تلك البيئات الأهلية كان قائما على رابطة الدم

والرحم والجماعة، لذلك كانت العلاقات تقوم فيه بدور تنظيمي وتسييري ناجع وراجح وأكثر اضطلاعا بأمور الحياة الاجتماعية وأقدر على تدبيرها وخلق آليات التكيف لها من إدارة المخزن المقصور دورها في الغالب على جبي المغرم وضبط سيادة المخزن.

من هنا أمكننا القول إن نظام كبار الجماعة المكرس على مستوى الدشرة، وكبار العرش وعلى نطاق القبيلة، هو تتويج تنظيمي موصول ببنية الأسرة التقليدية ذاتها، إذ الأسرة لم تكن إلا تعدادا متكاثرا من فروع -هم الأبناء والاحفاد وكوانينهم- المترابطة بأصل دموي واحد ترجع إليه.

فهيكلة الأسرة كانت تحقق هذا الحد الأدنى والمهم من النظام الذي يسري على المجتمع الأهلي كله، من حيث كونه نظاما رحميا تلتزمه كل أسرة على حدة وترعاه وتبني في ضوئه علاقاتها وخططها الاجتماعية، حتى إذا ما تعلق الأمر بالحياة العامة، جاءت سلطة الجماعة، وهم أهل التجربة والفضل في القبيل أو الدشرة أو الجهة، نافذة ولا راد لها، إذ الجماعة هي التي ترعى الشؤون العامة وتسيرها بمتابعة جماعية مستمرة، لكل واحد من أفرادها حق الرأي، فأمر الحل والعقد موكول إلى الجماعة أو إلى ذوي الفضل والأسنان كما يقال.

أما فيما يخص الإيالة يومئذ، فقد كان أمرها العام في يد الانكشارية[16]، والانكشارية بما أنها مجتمع عسكري بحت فقد كان لها تنظيماتها الصارمة التي تحظى بالاعتبار الراسخ لما كان يقف وراءها من إرادة عسكرية جماعية لا هوادة فيها، فمصير الوجود الانكشاري كان مرتبطا بسلامة ومضاء النظام العسكري، لذا كان المجتمع العسكري لا يني يراجع التشريع الذي كان دستور المؤسسة، وهذا بقصد تكييفه مع التطورات ومقتضيات الوضع عندما يستجد.

لقد كان الديوان وما اقترن به من هياكل إدارية وشرعية هو مناط الحل والعقد بالنسبة لسياسة البلاد وسيرها العام، ولم يكن واردا أن يتدخل الأهالي في توجيه سياسة أو مقررات تلك الهياكل النظامية العليا.

من هنا عدم الأهالي الرابطة التمثيلية السامية التي تضطلع بأمر الحل والعقد فيما يخص الأوضاع الأهلية.

لقد كان ذلك شأنا سلطويا يخص الإدارة التركية حصرا، وهو ما ترتب عنه - بزوال تلك الإدارة - شغور قيادي وسياسي مزمن وخطير، لم تستطع البلاد أن تتجاوزه رغم كل ما قامت به من إجراءات هيكلية جماعية وفردية في ما بعد.

[16] تعرضت المؤسسة العسكري في إيالة الجزائر لتسميات زامنت التطور الذي عرفه النظام نفسه، ولكننا آثرنا استخدتم تسمية الانكشارية لإيعازيته بالخصوص.

لقد وجد الأهالي أنفسهم كيانا مفككا يعدم المرجعية التأطيرية الموحدة، الأمر الذي شتت الجهود وجعلها لا تثمر ولا تحقق ما كان ينبغي لها أن تحققه على مستوى الموقف الفاعل ورد الفعل المرجح للأحداث.

لقد ألفت الجماعات نفسها مطوقة بفراغ هيكلي حاصرها وشل حركتها، فهي بحكم ركونها المألوف إلى معالجة المسائل المحلية لا غير، وجدت نفسها عاجزة عن أن تخترق الأفق لترسم الخطة الأوسع نطاقا والأجدر بأن توجه البلاد الوجهة المطلوبة في ظروف الغزو والاجتياح.

فمناخ الخوف على المصير والفرق من المخاطر المداهمة قد ضرب بأطنابه على كل جهة، لكن رد الفعل المطلوب الذي يتناسب مع الظرف الحرج لم يكد يظهر من أي صعيد، فكل جهة كانت تنتظر الإشارة تأتيها من أفق خارج أفقها، وما ذلك إلا لأن فاعلية المجتمع -والتي تكون أنشط ما تكون عند المداهمات المصيرية المعادية - قد كانت على حال من الركود نتيجة تعودها المزمن على السلبية واللامواجهة.

لقد جمد التغييب الطويل لمجتمع الأهالي في روح الشعب وفي ضميره منطق المبادرة القومية، فأضعف في نفسية الجماعات حتى حرارة الحوافز الروحية التي يفترض أن تظل حية لديها لا سيما حافزية الجهاد، إذ شعيرة الجهاد تتجسد قبل كل شيء في آلية المدافعة عن البقاء التي يواجه بها الفرد أو الجماعة أحوال العدوان.

غير أن ما تم في الواقع هو عكس ذلك، إذ أن الحملات الجهادية لم تشهد بعد الصدمة الأولى ذلك التصعيد الاستبسالي الشمولي الذي كان من شأنه أن يشوش كثيرا على العدو ويفتته ويفرض عليه الانسحاب، بل لقد رأينا التربص بالعدو من حول الثغور والمعاقل يتسم في أحيان كثيرة برد فعل غريزي، دفاعي، بقائي، أكثر منه موقفا واعيا وذا غاية وقصد مؤثرين.

من هذا الواقع يمكننا تفسير موقف إمساك السيد محي الدين عن التولية، وأيضا تفسير موقف الأمير الشاب المتمثل في تكرار الإعلان عن رغبته في التخلي عن القيادة.

فالحاجة الواضحة إلى الجاهزية المعنوية والمادية التي لم تتوفر للفرد الجزائري كي لا يكون فقط فردا مجروفا وراء الاحداث بسلبية وجهل وانغلاق، ولكن فاعلا مؤثرا وجديرا بالاعتراض على التقلبات، هي علة ذلك الذهول الذي أربك المقاومة ولم يتطور بها إلى حرب شاملة تكتنس العدو وتلقي به من حيث أتى.

فالتأهيل المدني كان ينقص المجمع الأهلي لتحمل المسؤولية والوقوف في وجه العاديات بالكفاءة والتدبير اللذين يناسبانها، إذ عاش الفرد الجزائري طيلة العهود – شأنه في ذلك شأن باقي المسلمين– مبعدا عن الميدان المدني وعن الاحتكاك المفيد بالقضايا السياسية، الأمر الذي أضعف قابلياته الأدائية في ذلك السبيل، إذ افتقد الجاهزية التي تستمد أساسا من تفاعلات المجتمع ومن مراسات الحياة المدنية.

بل إنه ليهيأ لنا أن احتدام حاجة الأهالي إلى تنصيب الحاكم وتأطير المجتمع بالسلطان الشرعي إنما كان يستجيب لدوافع أمنية ملحة، ولم يكن فقط بفعل المقاصد الجهادية، التحريرية.

فلقد رأينا نصوص البيعة المحبرة لتنصيب الأمير عبد القادر تولي مسألة الأمن وسلامة الأحوال والأملاك مما نشب في البلاد من مظاهر الترويع والتعدي وغصب الحقوق أهمية فائقة، بل لقد كان هذا الهم الأمني يتراجح من حيث الأهمية مع الوازع الجهادي في تلك النصوص.

ولو رجعنا إلى كتاب تحفة الزائر مثلا وطالعنا نصوص محاضر البيعة لوجدنا الهم الاجتماعي والمدني يتصدر الهموم الأخرى المستجدة بفعل الاحتلال في سائر تلك النصوص تقريبا.

فمما سجله صاحب الكتاب بخصوص الظرف الذي تمت فيه بيعة السيد محي الدين، أن الوجهاء وأصحاب الكلمة قد " توسلوا إليه برسول الله مدة تزيد على سنتين فوافقهم على بيعة ولده تطييبا لخواطرهم ورعاية لرفع الظلم عن الضعيف ودفعا للفساد والتعنيف[17]"

وجاء في صك السيد علي بن ابي طالب بن مصطفى قوله: وإني أوصيه بتقوى الله وطاعته في السر والعلانية

[17] التحفة ص 158

والوقوف عند الحدود الشرعية ورد مسائل الشرع إليه وبتشميره عن ساعد الجد في قطع شأفة شياطين الإنس أهل الإذاية كالمحاربين وقطاع السبيل وأهل الغيلة والسرقة وغيرها من هذا القبيل ليتم بذلك أمره.[18]

ونفس الحرص الاجتماعي والمدني نجده يطفو على حيثيات البيعة الثانية التي أكدت بيعة الأمير الأولى، فمما جاء فيها أنه " .. لما انقرضت الحكومة الجزائرية من سائر المغرب الأوسط واستولى العدو على مدينتي الجزائر ووهران ..وطمحت نفسه العاتية إلى الاستيلاء على السهول والجبال والفدافد والتلال وصار الناس في هرج ومرج وحيص وبيص لا ناهي عن منكر ولا من يعظ ويزجر قام من وفقهم الله للهداية فتفاوضوا في نصب إمام يبايعونه على الكتاب والسنة .. فلم يجدوا لذلك المنصب الجليل إلا ذا النسب الطاهر والكمال الباهر رأس الملة والدين قامع أعداء الله الكافرين أبا المكارم السيد عبد القادر ابن مولانا محي الدين .. يطيعونه ما ساسهم بالشريعة الغراء[19] .

وغير خاف أن هذه النصوص قد جاء فيها واضحا التأكيد على المطلب الأمني والسكينة الاجتماعية، فقد شددت على حاجة الجماعات إلى الحماية ليس فقط من مضاعفات

[18] التحفة ص 159

[19]- تحفة ص 164

أعمال توسع العدو الغازي ولكن أيضا من مظاهر الفوضى والتعدي التي تفشت في البلاد بسبب انعدام السلطان.

فالغاية التأميرية جمعت بين الاستجابة لداعي الجهاد من جهة واستجابت في ذات الوقت إلى الحاجة الأمنية والنظامية التي عانت منها المجموعات في غياب الرادع والولي الشرعي.

على أنه من جهة أخرى لابد لنا من الالتفات هنا إلى الحقيقة البارزة والخطيرة والتي تضمنتها بعض هذه المحاضر والتي تمثلت في الإقرار السافر بندرة العنصر القيادي المؤهل لمباشرة الأمر والاضطلاع بالمسؤولية.

فقد أومأت إلى ذلك الوضع الوثيقة السابقة بقولها:

" قام من وفقهم الله للهداية فتفاوضوا في نصب إمام يبايعونه على الكتاب والسنة .. فلم يجدوا لذلك المنصب الجليل إلا ذا النسب الطاهر والكمال الباهر رأس الملة والدين قامع أعداء الله الكافرين أبا المكارم السيد عبد القادر ابن مولانا محي الدين .. يطيعونه ما ساسهم بالشريعة الغراء[20].

فالجموع التي كانت بصدد أن تخطو الخطوة الأولى على طريق تأطير ذاتها وإدارة أمرها بمشيئتها، وجدت نفسها فجأة تقف على واقع ربما أدركت خطورته لأول مرة، وهو كونها لا تتوفر من بين صفوفها على القامة المناسبة من

[20] تحفة ص 164

الإطارات والكفاءات لتحقيق أسمى مقاصد الجهاد والتحرير وإقامة الملك القومي الذي تداعت الفيئات من أطراف الوطن المختلفة لتنجزه.

وطبيعي أن تمثل مواجهة تلك الحقيقة المريرة ذروة الحوافز المساعدة على ميلاد وعي سياسي ومدني تمخضت عنه أحداث ذلك الواقع الأهلي المتزلزل الذي كان يفتقد كثيرا من أسباب التوازن والتماسك.

من هنا يتضح لنا حالة الافتقار الخطير للجاهزية التي ورثتها البلاد عن قرون من الحكم التركي، إذ البلاد وإن ربحت - حينا - سلامتها واكتسبت اشتهارا بحريا دوليا واسعا، إلا أنها على صعيد تراكم الاعتبار المدني والقريحة القومية والنبوغ الوطني والتطور الفكري والتأهل الاجتماعي والسياسي ضيعت كثيرا مما كان ينبغي أن يكون لها في ذلك السبيل.

بل إنه ليهيأ لنا أن البلاد اكتسبت على مستوى تطور الوعي وبروز إرادة التحكم في المصير خلال تلك الفترة الانتقالية والتي تقدر بعامين من الشغور السياسي ما لم يسبق لها أن اكتسبته منذ سقوط الدولة العبد الوادية. إذ حسبها أن ترى العزم ينعقد من هنا وهناك بين جماعاتها على التكتل الوطني، والهمة تتظافر من هذا الصعيد وذاك على وجوب الاعتصام بالقيادة الموحدة التي تواجه المخاطر وتتحدى التحديات.

وربما كان متوقعا في مناخ السلبية المستحكم أن يخنع الأهالي وينتظروا أن تشملهم إجراءات العدو التي شرع في تطبيقها على السكان عبر المناطق التي احتلها بما تعودوا عليه منذ أجيال من انصياع للحكم القاهر ينساقون إليه بالقوة والعسف، غير أن ذلك الانصياع الأهلي لم يكد يحدث هذه المرة، والسبب في ذلك جلي، إذ أن القبضة التركية رغم طابعها الابتزازي والقهري، لم تكن سوى قبضة ملية يديرها حاكم مسلم تربطه بالأهالي مشاعر الدين والمقدسات المشتركة، من هنا لم تهب الثورة بصورة عارمة ضد الاتراك في الجزائر رغم تردي أحوال البلد باطراد في عهودهم.

لقد كان ذلك الالتزام الديني الذي دأب الحكم التركي على إبدائه من أهم وأكبر أسباب بقاء وديمومة الحكم العثماني في الجزائر. لقد كانت روح التصوف المستحكمة في مشاعر قادة المؤسسة العسكرية –وخاصة منهم طائفة من الحكام ظهروا على قوامة وتقوى من أمثال محمد عثمان باشا – تقربهم من الأهالي وتوطد نوعا من الانسجام الروحي بين الطبقة الحاكمة وبين الأهالي الذين كانوا بفطرتهم متدينين ومقدسين للشعائر والرموز لا سيما الرموز الصوفية حتى بما لابسها من دروشة، الأمر الذي أتاح للحكام الأتراك أن لا يعدموا القبول والتعاطف أو على الأقل الإغضاء بين الأهالي بفضل ما كانوا يظهرونه من تعظيم للأضرحة والمقدسات، بل وبما كانوا يبذلونه من مال في سبيل تعمير المساجد والوقف عليها.

ولا غرابة أن نجد أشهر الأسماء التركية الذائعة إلى اليوم في الأوساط الشعبية، إنما كانت أسماء خلدتها الذاكرة الشعبية بما أثر عنها من توقير للطرقية وخدمة لمرافقها لا سيما الأضرحة منها، رغم ما ثار من عداء سافر بين الحكم التركي وبين طائفة من الزوايا - مثل التيجانية والقادرية - لما كان يرى فيها من خطر المعارضة والرفض لوجوده.

إذن لقد اختزلت سنتان أو نحوهما من الشعور القيادي مساحة الوعي عند الجزائريين، وعجلت بتحقيق مستوى من الاستعداد المدني والسياسي لديهم، بحيث خرجوا من دائرة البلادة السياسية والغموض المستقبلي والعقم العملي والاستسلام للعجز، ليضحوا طرفا في عملية مفاعلة المجريات التي عصفت بالوطن متجاوزين بذلك موقع السلبية الذي وضعتهم فيه معطيات تاريخية مديدة.

على أنه ينبغي لنا أن نستحضر جانبا من فداحة الفجيعة التاريخية والسياسية التي عاشها الوطن وغص بها أصحاب الشعور الحي من بنيه وهم يعاينون خيبة الإفلاس التاريخي الذي رأوا أنفسهم يفتحون عليه عيونهم فجأة، لنقدر مدى الجهد الذي بذله المخلصون تكفلا بالمحنة.

ذلك لأن الجماعات الأهلية قد ناضلت بالغ النضال من أجل أن تردم حفرة الفراغ السياسي والشغور القيادي التي كان لابد أن تردمها حتى تتصدى لتأمين مصيرها بالبحث الملح عن وسائل وعوامل العصمة السياسية والقيادية التي

تسير بالبلاد على طريق مواجهة عاديات الراهن واحتمالات المستقبل..

فقد وصف صاحب تحفة الزائر الجو التفاوضي شبه الإلزامي الذي تم فيه إقناع السيد محي الدين بقبول البيعة.

فقد ذكر أنها كانت الكرة الثانية التي أعاد فيها الوجهاء على الشيخ محي الدين الطلب من أجل أن يوافق على قبول الإمارة:

" اجتمع أعيانه(المغرب الأوسط) ورفعوا شكايتهم إلى سيدي الجد ثانية وألحوا عليه في قبول بيعتهم له على الإمارة والجهاد، فأبى قبول الإمارة وقبل القيام بأمر الجهاد .. فرضي القوم بذلك لما فيه من تشاغل الغوغاء والسفلة عن الفساد "

ومن البين في هذا النص أن الشعور بالمسؤولية الجسيمة كان يلح على الجهتين معا الجهة المرشِّحة والجهة المرشَّحة.

فالأعيان كانوا واقعين تحت وطأة وضع أهلي ووطني متحلل لا تفتأ نذر شره المستطير تتزايد من حولهم، بل لقد بدأ ذلك الوضع الشنيع يطوقهم بالمخاطر حين خيم المحتل الكافر على حدود مضاربهم واحتل أهم ثغورهم في الجهة الغربية بعد أن أمّن قواعده التي احتل بها عاصمة الإيالة، وهو ما فاقم من مخاوف الأهالي في باقي جهات الوطن الأخرى، لذا غدا أمر تدبير سياسة مناسبة تقف في وجه تلك

المخاطر حتمية لا مناص منها، وهو ما جعل حادث المبايعة يصطبغ بطابع الإلزام أكثر منه بطابع التوافق والتراضي، إذ وجد المبايَع (بالفتح) نفسه يتحمل المسؤولية نتيجة موقف جماعي إلزامي.

إذ لا ننس أن الشيخ محي الدين لم يذعن لمشيئة الأهالي الذين جاؤوا يقلدونه الإمارة، بل لقد رأيناه ينساق لهم فقط لقبول مهمة قيادة الجهاد في حين تأبى كلية عن التقدمة للإمارة والملك، وهو ما أشار إليه صاحب التحفة عندما سجل رد الشيخ في ذلك الموقف التفاوضي المشهود، إذ لاحظ أن الشيخ " .. أبى قبول الإمارة وقبل القيام بأمر الجهاد .. فرضي القوم بذلك لما فيه من تشاغل الغوغاء والسفلة عن الفساد ".

لا بدع أن يرضى القوم بذلك الحد من نفاذ الواجب الجسيم الذي شاؤوا أن ينيطوه بذمة الشيخ محي الدين.

ومن الواضح أن رضاهم قد ارتكز على إدراكهم أن الساحة الأهلية كانت تخلو فعلا من البديل الكفؤ الذي يمكن الركون إليه بما يتوفر عليه من أهلية وخصال تضاهي أهلية وخصال الشيخ محي الدين.

إذ أن تعذر وجود من كان يتهيأ للنهوض بالمسؤولية السامية والحاسمة بينهم قد جعلهم يطيبون بذلك الحد من الالتزام الجهادي الذي تقلده الشيخ أمامهم وبايعوه عليه.

ومما لا شك فيه أن الوجهاء حين رضوا من الشيخ بتولي الإمرة الجهادية إنما كانوا يدركون أنهم خرجوا كاسبين من تلك المفاوضة، إذ أنهم أفلحوا إلى حد بعيد في تجاوز الأزمة المطروحة على البلاد.

فالأهالي كانوا يقدرون الوضع الروحي الانخراطي الذي كان عليه الشيخ محي الدين، فقد كان على زهد وتنسك خالصين لا يتيحان له أن يلتفت إلى غير ما روض عليه نفسه طيلة العقود من الخلوة والسلوك، ثم إنه كان قد بلغ من العمر شأوا بات معه عرضة للاختلالات الصحية المتكررة، إذ لا ننس أنه سيلقى ربه بعد مدة قصيرة من ذلك التاريخ، وأن صحته المتدهورة لم تمكنه إلا من قيادة موقعة واحدة أو نحوها ضد العدو الغاصب، فيما قاد ابنه أكثر من موقعة بدلا عنه بسبب وضعه الصحي وشيخوخته.

لذا لا نشك أن ارتياح الجماعة كان كبيرا وهم يسمعون موافقة الشيخ على قيادة الجهاد بهم، ذلك لأنه لم يكن يخفى عليهم أن النهوض بالمسلمين لأداء شريعة الجهاد في ذلك الظرف الاستنفاري العارم، إنما كان في الواقع نهوضا بمسؤولية الحياة العامة كافة، إذ لا يمكن أن يدور شأن من شؤون الحياة لمجتمع ما وهو مستنفر يخوض الجهاد ضد الأعداء، بمعزل عن نظر رجال قيادة ذلك الجهاد وإرادتهم.

لذا كان شعور الجماعة وهي تنتزع من الشيخ موافقته على قيادة كتائبها شعورا سارا، بالنظر إلى الانجاز الذي

ضمنوه للوطن بتحقيقهم تلك الخطوة التأطيرية الحاسمة في تاريخ البلاد.

ومن جهته لم يكن الشيخ ليجد استياء أو ندما على ما أبرمه مع الجماعة، لكونه لم يذهب في التزامه معهم المذهب الذي يكون على حساب خطته التصوفية أو يمس بروحيته التنسكية، فهو قد لبى داعيهم إلى الإمرة على الجهاد ضد الكفار، وتلك شعيرة طالما تمنى أهل الزهد والورع أن تكون طريقهم إلى الدار الآخرة بنيل الشهادة والتغمد برحمة الله التي يخص بها المجاهدين.

ذلك لأن الشيخ كان ينتمي إلى وطن لم تنقطع فيه حركة الجهاد ومدافعة الصليبين عن الربوع منذ سقوط الأندلس، بل لقد عاش مرحلة شبابه وهو يشترك مع المشايخ وطلبة القرآن في منازلة الحاميات الاسبانية التي كانت تحتل وهران وتربض على تخومها البحرية، إلى أن تهيأ النصر وانعتق المسلمون.

من هنا كان الشيخ يجد في قبول تلك المسؤولية بعض ما يخفف لديه من خطورة الدور الذي أسندوه إليه والحمل الثقيل الذي وضعوه على كاهله في تلك السن المتقدمة وذلك الأنخراط الروحي المكين.

والحقيقة إنه لموقف يأسر حقا ذلك الذي عاشه الشيخ محي الدين وهو يتلقى النداءات والالتماسات من أجل أن يقبل الرئاسة. وهل هناك سعادة أسنى من تلك التي تتأتى للإنسان

في آخر العمر، فتتلقفه الأيدي بالتشريف، تقلده رقابها وترفعه سلطانا على سدة الحكم في وطن كانت ظروفه التاريخية قد أوشكت أن تنسيه مباهج العزة ومفاخر الملك تماما.

لم يكن الشيخ محي الدين من أهل الدنيا الذين يتيسر على الناس أن يستدرجوهم عتباتهم لمجرد أن يلوحوا لهم بطرف من المباذل، بل وحتى بإغرائهم بالصولجان.

لقد كان رجلا ورعا شهدت سيرته في نفسه وفي أسرته على تقوى وانخراط في طريق الخير لا مراء فيها.

ولنذكر في هذا الصدد سياحاته صحبة أفراد من أسرته إلى البقاع المقدسة وإلى مزارات ومشاهد دينية معروفة لندرك الوازع الروحي القوي الذي كان حاديه إلى سلوك ذلك الطريق الذي نحسب أنه لم يكن كله زهدا صرفا بقدر ما كان مزيجا متوازنا من العبادة الخالصة والسماحة المدنية الرشيدة، وهو ما أورث سجايا نفسية وروحية ومدنية لخلفته، لاسيما ما تجسد من محامد وشمائل سنجد شخصية الأمير عبد القادر تتحلى بها وتقيم عليها عمود تماسكها وصلابتها رغم تقلبات الدهر، فجائعه ومسراته على السواء.

لقد سبق للشيخ محي الدين في مرحلة أولى أن رد عروض الإمارة وسد بابه في وجه المساعي التي أرادت أن تثنيه عن موقف الامتناع ذاك، الأمر الذي خيب أمل الوجهاء وأعيان الجهات التي جاءت تعول على موافقته في التصدي

للوضع المتفاقم من حولها جراء سقوط الدولة وزحف جحافل الاحتلال.

وعندئذ لم يكن من بد - وأمام الحاجة الملحة - للجماعات الأهلية، بمن فيها الشيخ محي الدين نفسه - إلا أن تسارع برفع البيعة إلى السلطان المغربي عبد الرحمن.

لقد كان الوطن في حال من الحداد الواضحة بما أصابه من بلاء مزدوج: سقوط الدولة واحتلال نصراني للديار، فكان ذلك الوضع مبررا كافيا لمد اليد بالبيعة إلى من يُسْتَشْعَرُ من قبله النجدة والإغاثة..

ترى ما الدوافع والغايات التي حملت الوجهاء على اتخاذ ذلك القرار باللجوء إلى السلطان المغربي وطلب وصايته على البلاد؟

لا ينبغي هنا أن تغيب عنا طبيعة الأواصر التي ظلت تجمع القطرين على مدى التاريخ، ويكفي فقط أن نعلم أن الدولة الموحديةُ ظلت منذ ساعة ميلادها إلى زمن سقوطها دولة جزائرية السلطان، إذ أن أول ملوكها كان عبد المومن بن علي الكومي، الندرومي.

وقد ظلت الدولة الموحدية وجندها ومؤسساتها تدار بأيدي جزائرية، فقد عزز مؤسسها عبد المومن جانبه بمدود من القبائل الهلالية والزناتية والصنهاجية الجزائرية الذين نقلهم بأعداد كبيرة من المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى

وعلى فترات متلاحقة واتخذهم عصبته ومرتكز صولجانه حين اختار مراكش عاصمة لدولته.

واستمر الشأن لتلك المدود على مدى تاريخ الدولة الموحدية، إذ كانوا – مع صنائعهم– هم المتنفذون في الدولة، لذا تعززت اللحمة بين قبائل القطرين إذ ساعد الانتشار البشري عبر أرجاء المملكة الموحدية على إحداث تمازج رحمي وسلالي واسع بين القبائل عربيها وبربريها، قوَّتْه عهودٌ لاحقة من الترابط والتفاعل الحضاري البناء.

وحين تفككت الدولة الموحدية إلى دويلات، ظلَّت الصراعات بين الأمراء الذين ورثوا تركتها السياسية وجغرافيتها القطرية تتجدد من منطلق المشروعية، إذ كان كل طرف يرى لنفسه الأحقية في الاستحواذ على مقاليد الدولة المغاربية، لما كان يقرب بينه وبين الموحدين من أواصر.

فالحفصية بتونس كانت ترى نفسها هي الوريث الشرعي للموحدية، والمرينية كانت ترى نفسها كذلك، ونفس الاعتبار كان يقوم عند الزيانية لما أداه هذا القبيل من خدمات للدولة في كنف الحكم الموحدي.

بهذه الروح رست خلفية جماعية متشابكة من المشاعر والمواجد يلتقي عندها المغاربة بوحدتهم كلما تجردوا عن عواطف الانتماء القطري التي هي وازع عاطفي إنساني

نلمسه حتى على مستوى سكان المناطق المختلفة في القطر الواحد.

إنها صبغة المكان الحميم، وعاطفة مسقط الرأس التي تجعل الانسان يضيق إطار نسبته أحيانا، لكن الأمر يختلف كلية حينما يواجه الناس الأزمات الحاسمة، عندئذ تتسع نظرتهم وتتبين لهم حقائق انتمائية أوسع مدى وأبعد نطاقا تجمعهم إلى أرومتهم وتجدد روابطهم القومية التي ظلوا يغفلونها بسبب انعدام الباعث.

لم تكن إذن تلك المبادرة السياسية الأهلية مستغربة، فقد كان الخيار يقوم بين واجب الهجرة واللجوء إلى بلد اسلامي لواذا بالعقيدة من مخاطر الكفر، وبين طلب الإلحاق والحماية من سلطان مسلم شقيق درءا للعدوان الصليبي.

ثم لا ننس أن صلات الأهالي، لا سيما في المناطق الغربية والجنوبية، ظلت دائما قائمة بينهم وبين السلطان المغربي على أساس من التقارب والمودة والإكبار المتبادل.

فقد كانت علاقة التوتر المستمر مع الإدارة التركية من العوامل التي قوت إلى حد من ميل الجزائريين في تلك النواحي وتطلعهم إلى العرش المغربي، وربما وجدنا علاقة بعض الجماعات المحلية ترقى أحيانا حتى إلى مستوى الاعتراف بسيادة السلطان المغربي، خصوصا وأن العرش نفسه ظل يتطلع إلى فك العزلة عنه ومد مجال السيادة إلى أعماق الصحراء وإفريقيا، فقد كانت مصالحه الحيوية على

الصعيد الأمني والاقتصادي خاصة تتطلب منه أن يتوسع بحدوده وأن يضم إليه أصقاعا من الجزائر والصحراء حتى يطمئن على استقراره.

لذا سعى باستمرار إلى خلق الأسباب التي تقربه من السكان في تلك المناطق، غير منقطع في إحكام صلته بهم من خلال المواظبة على سياسة الإتحاف والمراسلات الموسمية وإشهار النسب الشريف للأسر هناك، بل وحتى بزرع الدعاة وتوطينهم عبر الأنحاء.

من هنا لا غرابة أن يجد الجزائريون أنفسهم يسارعون إلى مد اليد للسلطان كي يظلهم براية ملكه لما يضمن لهم ذلك من سلامة وطنية وملية كان الكفر المجتاح يهددها.

ومن جهة أخرى لا بد أن نذكر أن علاقة العرش مع الإيالة لم تكن دائما سيئة، وإذا ما استحضرنا تلك الوفادات السامية المتكررة من رجالات البلاط المغربي على الإيالة - إما زيارة أو عبورا- وما كانت الإدارة التركية تظهره لهم من حفاوة[21]، وما ينتج عن ذلك من تقوية لروابط المودة والتآخي، أمكننا القول إن الأرضية كانت تتوفر على كثير مما يسوغ موقف الاستنجاد الذي اتخذه الأهلي حين داهمهم الاحتلال الصليبي، والذي أوشكت الإيالة الجزائرية أن تغدو به جزءا من المملكة المغربية يومذاك.

21 ـ لنذكر هنا مثلا بزيارة بعض أفراد السلطان إلى معسكر حيث كان الباي عثمان يقيم يومئذ .

ثم لا نغفل النسب الشريف الذي كان ثابتا لأسرة محي الدين، إذ كانت تنتمي إلى السدة النبوية وتلتقي مع الأسـرة الملكية الحاكمة في صبغة الشرف. وهو أمر كان يسوغ تلك المبايعة.

كما أن الجزائر كانت يومئذ جزءا من نظام الخلافة بكل ما كانت فواعل الثقافة والدين تلزم به الأقطار والجماعـات من انضواء تحت لواء الشرعية الجماعية، لذا لم يكن ذلـك الوضع التاريخي يسـوغ للجزائـريين أو يشـجعهم علـى الاستقلال والخروج عن لحمة الجماعة، ولذا كان انتسـابهم إلى السلطان المغربي وانضمامهم إليه هو في حقيقته التحـام بالشرعية من منظور فكر تلك الحقبة.

واستجاب السلطان عبد الرحمن لطلب الجزائريين وقبل انضواءهم تحت لوائه ومبايعته سلطانا عليهم، يمنـع عـنهم عاديات التنصير التي أحاطت بهم فجأة، وفعلا فقـد رأينـاه بدوره يسارع إلى تعيين ابن عمه أو ابن أخيه المدعو علـي بن سليمان أميرا على البلاد، وأوفده إليهـا بعُـدَّةِ التمليـك وبخطاب التولية، وكان طبيعيا أن ينزل مدينة تلمسان التـي ظلت مقر الملك وحاضرته على مدى عهود سلفت.

وطبيعي أن تشرع الجهاتُ الأهلية التـي كانـت وراء المبادرة في استكمال مهمتها الوطنية، فلذا سـنجدها تسـن برنامجا دعائيا وتحسيسيا واسعا تعلم بمقتضاه الجماعات في شتى أنحاء البلاد بالأمر وتحشدهم لبيعة الأمير، وتيسر عملية الاتصال به، ثم رأيناها لا تكتفي بهذا بل تتحول إلى مرحلة

أهم، وذلك بأن سطرت برنامجا واسعا من الزيارات يقوم بها الخليفة الجديد نفسه - بعد أن تم استدعاء الأمير الطفل علي بن سليمان لتجاوزات صدرت عن حاشيته ولضعف شخصيته البين - إلى مناطق داخلية من البلاد للاتصال بالناس وتلقي البيعة من الأهالي في عين المكان، وهكذا سنرى ممثليه يتنقل عبر مدن ومراكز من الغرب إلى أن ينتهيا إلى ما بعد حدودالوسط، إذ سيزورون نواحي من إقليم الشلف وما تاخمه.

لقد كان ذلك العمل السياسي الذي خاضه الجزائريون في ما يشبه التلقائية التي يمليها وازع جماعي بقائي صرف، تحولا نوعيا ذا أهمية بالغة على مستوى الشعور القومي والوطني، إذ أنهم استطاعوا خلال الأشهر التي سلخها الأمير المغربي بينهم، ليس فقط أن يستشعروا نوعا من الأمان السياسي والاحتماء القومي، ولكنهم وجدوا أنفسهم يحققون حدا معتبرا من كيان قومي وماهية جماعية ظلت غائبة عنهم طيلة القرون.

إذ رأوا أن جماعاتهم المحلية تحولت فجأة إلى هيئة سياسية أهلية عليا أناطت بها البلاد مهمة الاضطلاع بوظائف التسيير وتولي مأمورية الحل والعقد في المجتمع، وهاهي تلك الهيئة المكونة من العلماء والوجهاء والأشراف والفرسان الأجواد، ماضية على طريق تحقيق الإرادة الجماعية، تستنفر الدعم والتأييد لمشروع الوحدة مع العرش المغربي الشقيق، من خلال مبايعة ممثل السلطان الذي أقبل على البلاد بمحض إرادة جماعية أهلية.

لقد كان التاريخ في تلك الأثناء يعيد نفسه بصورة أو بأخرى، إذ لم تكن هي المرة الأولى التي لاذ فيها الجزائريون بأشقائهم في الملة يحتمون بهم ضد العدوان الصليبي، بل لقد سبق لهم يوم أن داهم الاسبان شواطئهم وربضوا على ثغورهم في إطار حملاتهم لمطاردة مسلمي أسبانيا، يومها رأى الجزائريون أنفسهم يستنجدون بالإخوة الأتراك عروج وخير الدين، من أجل أن يدفعوا عنهم بائقة الاحتلال النصراني.

ثم كان على دورة الزمن أن تدور بعد مرور قرون ثلاثة تقريبا على ذلك الحدث، ليجد الجزائريون أنفسهم في نفس النقطة التي انطلقوا منها ذات حين، يشرئبون بأعناقهم نحو الخارج من أجل أن يستغيثوا بالنصير.

لم يكن بدعا أن يلجأ الجزائريون إلى ذلك الإجراء الاحتمائي الملي، فقد دأبت الأمم في كل العصور على تسليم مقادتها إلى ملوك وأمراء أجانب عنها أو يكادون من أجل أن يباشروا السير بها واجتياز معابر الخطر، بل لقد رأينا المغرب الأقصى، القطر الذي تحول في تلك المحنة إلى كهف لجوء واستغاثة، يستجلب ذات زمن لنفسه بعض الأشراف من البقاع المقدسة، لتتحول أسرته في ما بعد إلى عائلة مالكة تتوارث سلالتها العرش المغربي، ونفس الأمر كان يحدث وعلى نطاق مطرد تقريبا في أوروبا، حيث كانت الأوطان تتسالف- إذا صح التعبير - الرموز التي تحرص على أن تختارها من سلالات راسخة القدم في الملك لتملكها الزمام وتسند إليها المقادة.

بل لقد كانت مصر أم الدنيا يومها تخضع لمحمد علي، وهو من جنسية غير مصرية، تمكن من احتياز الملك هناك ومباشرة السير بالشعب المصري على طريق النهضة.

فحال الجزائريين في ذلك الأمر لم يكن يشذ كثيرا عن حال كثير من الشعوب التي كانت الحاجة القومية الطارئة والحاسمة تحتم عليها أن تلوذ براية غيرها من الأمم أو بتأطير نفسها بالأطر الأجنبية، إذ كانت لا تجد في ذلك ضيرا لا سيما وأن اليد كان تمتد إلى من تربطهم بالقومية أمتن الأسباب: الملة المشتركة والعرق الواحد.

وسنرى بعد قليل كيف أن أهل الحل والعقد من الأهالي قد حرصوا على أن يضعوا سريعا قطار الإمارة على السكة، تلافيا لما كانوا يتوقعونه من عوائق قد تنجم وتذهب بالمشروع هباء.

وفي ذلك الإطار بالذات تمت جولة الأمير المغربي أو ممثلوه، وصاحب تلك جملة من الاجراءات التنظيمية والتسييرية كان هدفها حسم الأمر الإجماعي بدرجة أساسية كما سنرى ذلك في بابه.

وكما توقع الجزائريون، فقد ارتبك العدو المحتل لما رآه يتم على صعيد الواقع الوطني، إذ وجد في العملية التأميرية- التي نحسب أنها توسلت في أشواطها الأولى بالسرية والتعمية على العدو- حيلولة سافرة على مخططاته التوطينية في البلاد، إذ أن المهادنة النسبية التي استطاع أن يحققها جعلته

يتحول بأحلامه إلى مباشرة مرحلة توطينية وتنصيرية أخرى، تحدوه إلى غاياته أوضاع كان الغرب الأوروبي قد باشرها في أمريكا وفي جنوب إفريقيا، وشجعتهم على المضي فيها السلبية وعدم نجاعة مساعي المقاومة التي قابلهم بها الأهالي في تلك الأصقاع.

من هنا سارع العدو الفرنسي إلى إجهاض مشروع الوحدة مع المغرب في المهد، إذ عمد في الحال إلى الضغط على السلطان المغربي وحمله على سحب ممثله من الجزائر، وبذلك سقط في يد الجزائريين، ووجدوا أنفسهم من جديد يلتفتون إلى الشيخ محي الدين، يلحون عليه بأن يقودهم لمواجهة الراهن والتحوط للمستقبل.

ومما لا شك فيه أن الفترة الزمنية التي أعقبت زوال الإدارة التركية كانت فرصة مهمة للعدو الفرنسي كي يراقب الأوضاع والتصرفات عن كثب، ويتعرف على النروح الجزائرية وعلى نوازع البقاء والحياة فيها.

وكان يريحه كثيرا أن يرى شهية القبائل والجهات المتبدية تفتح على ارتكاب أعمال الفتك والغزو، إذ كان يدرك أن انعدام الأمن وتفاقم الأحوال الاجتماعية في البلاد سيضحى عاملا مساعدا له على تكريس التوسع وفرض وجوده وإدارته على الأهالي، إذ سيجد الناس أنفسهم يفتقدون القوة المؤهلة لإعادة السكينة إليهم واستتباب الأمن.

من هنا لا غرابة - كما أشرنا سلفا- أن نجد الوجهاء وهم يفاوضون الشيخ محي الدين ويبايعونه لقيادتهم إنما كانوا يضعون في صدارة الدوافع إلى تأميره استفحال الفوضى واشتعال نار الفتن وطفوح كيل التعديات وتضرر الحرث والنسل من جراء ذلك، وكل ذلك غذاه وضع الشغور الذي خلقه زوال الحكم التركي من البلاد.

فانبعاث الإرادة الجماعية الأهلية من أجل إقامة الدولة الوطنية لم يتأت لمجرد أن رغب الناس في ذلك، ملأ للفراغ السياسي والإداري من حولهم، وإنما تأتى أيضا تحت وطأة دوافع حاسمة وحتمية ارتبطت بالاصرار على حفظ الوجود القومي ذاته، ذلك لأن الصدمة المزدوجة التي أحدثها طروء عدو ملي متحرش من جهة وانهزام السلطان الحامي للضمار والذي توطد حضوره في البلاد قرونا من جهة ثانية، لم يكن ليهيئ الظروف المساعدة على ظهور الهياكل التي تقتضيها الحاجة الوطنية.

من هنا كان انخراط الجماعات في تلك الدوامة من المراجعات والاجتهادات والقرارات التي سعت إلى أن تأخذ بكل الأسباب من أجل أن تحقق الغاية الهيكلية.

بل لقد كان على المواجع أن تشتد وتتفاقم أكثر قبل أن تنبثق الأوضاع الأهلية عن ظهور الجاهزية البشرية والتنظيمية التي تتأهل لإدارة البلاد في مرحلة عاصفة بالمستجدات.

فالفراغ السياسي والشغور الوطني اقتضيا في أول أمر استمداد الدعم والسند الخارجي، لكن ذلك المسعى اعترضه المانع القهري الاستعماري الذي رأى فيه نسفا محققا لمخططاته الاستيطانية، الأمر الذي استلزم تأهيبا ذاتيا عصاميا من أجل تجاوز حال السيبة والاستسلام، وكان ذلك فاتحة عهد طويل وشاق ومثقل بالنكبات عاشته البلاد على مدى يزيد عن القرن وربع القرن وهي تبحث عن الصيغ التي تؤطر بها نفسها من أجل حفظ الذات بعد أن أطبق المستعمر عليها بغشم.

لقد كان من حظ الأمير عبد القادر أن يكون فاتحة كوكبة الزعماء القادة الذي كتب لهم أن يخطوا بأحرف من ذهب تجربة بناء الدولة الوطنية المعاصرة وتأسيس جدارها من عدم.

## 4-أمـــــير الدولـــة: دولـــة الأمـــــير.
*قراءة في شخصية الأمير وفي ملابسات تنصيبه.*

من الثابت أن الأمير يوم أن دعي لتحمل مهام الإمــارة كان عمره لا يتجاوز 25 سنة، ومن المعلوم أيضا أن هــذه السن هي ذروة الفوران الجسدي والمعنوي في حياة الانسان. فالشخصية في هذا الحد الزمني تظهر مكامنها وما تتحلى به من سجايا جسدية ومعنوية فطرية، لأن عَظْمَ الاكتمال النمائي يكون قد رسا عند سقف إمكانياته، وتكـون الشخصـية قـد انطبعت بخصائصها على نحو لا يبقى بعده إلا استحكام تلك الخصائص وتصلب عودها.

من هنا أمكننا القول إن الأمير قد اضطلع بالمسـؤولية العليا كأمير للبلاد في سن الفتوة، أي في سـن المثاليـة، إذ استكمل في تلك المرحلة من العمر ما ستستوفي به شخصيته من أسس الاستواء الجسدي والعقلي التي ستتحدد بها سـمات الامتياز والفذاذة بل والكاريزمية التي سيظهرها على أكثـر من صعيد.

ذلك لأن الشخصية في ذلـك السـن – متـى كـان الاستعداد ثابتا – تكون على أتم أحوال التـأجج الشـعوري والتدفق الوجداني وهو ما يهـون عليهـا قابليـة العطـاء والافتداء، لا سيما في ظل شروط استنفارية قاسية ومصيرية كتلك التي كانت البلاد تخوضها بتصميم جهـادي شـعاراته استرخاس الموت في سبيل الله ومن أجـل حمايـة الأرض والعرض من دنس الكافرين.

لقد لعبت فتوة الأمير دورا مهما في توطيد أبعاد تجربته القيادية، وما نحسب أنه كان سيتحقق له كثير مما تحقق من عالي الاعتبار، لو لم يجابه الأحداث والإختبارات الفاجعة بتلك الفتوة الناضجة.

ترى من أين تأتى له النضج هو الفتى المحاط بدفء الرعاية والتدليل ؟

لا ننس أن الأمير كان ابن ريف، وأن أسرته عاشت تراوح في تنقلها بين البادية والحاضرة، من هنا كانت للأمير تلك النظرة الإعلائية والحميمة التي ما فتئ يعرب عنها تجاه البادية ومآثر الريف.

لقد كان سليل قبيل عربي راسخ الاعتزاز ببداوته.

فآله حتى وإن استوطنوا الحاضرة، بل حتى وإن كانوا قد مصروا مركزا مدنيا سيعرف بالقيطنة وسط تلك الثنايا الواقعة في مفترق جبلي يطل على السهول التلية من جهة ويشارف الهضاب الصحراوية من جهة أخرى، إلا أن خصال البادية وأساليب معاشها واجتماعها ظلت ملازمة لهم، أثيرة لديهم، يزيد من رسوخها في نفوسهم النشاط الروحي الذي كانت الأسرة تنهض به وتزاوله من خلال إشرافها على الزاوية التي أنشأتها والتي تحولت بموجبها قرية القيطنة إلى مثابة مدنية لطلاب العلم والسلوك.

فبشخصية الشاب عبد القـادر ارتبطـت أكثـر بهـذين الشرطين:

-روح البادية التي فتح عليها عينيه وتشرب بسـاطتها وتمرس بأجوائها.

- وتربية الزاوية التي شب يرتادها ضمن أفـواج مـن طلبة القرآن والعلم ينتقل بين حلقاتها وصـوته يـدوي مـع الصفوف حفظا وترتيلا وإنشادا، وكل ذلك هيأه لأن يكتسـب صفات أصيلة ستمكنه من أن يقوم بين أبنـاء وطنـه مقـام الرئاسة والسلطان.

ولعل من أهم تلك الصفات التي اكتسبها من منشئه ذاك هو تَعَمُّقُ الروح الجماعية لديه نتيجة الوسـط الاجتمـاعي والتعليمي الذي عاش فيه.

فكونه ينشأ في ظل رعاية أسرية ذات منزلة روحيـة واجتماعية عند الأهالي وعند الحكام، جعله يرث تلك العزة وذلك الوثوق الذي يصون النفس من أن تنقهـر أو تنكسـر للحوادث.

لقد تعلم من خلال ما عاشته الأسرة من أحداث في ظل الحكم التركي الذي سلك سياسة العصا والجزرة مع الأسرة، كيف يمتلك رباطة الجأش ولا ينحني أمام النوازل أو يـذعن لها، وكيف يطاول الأحداث بوثوق من يعرف أنها لا محالـة ستنجلي ما ثبت الانسان على التجمل والصمود أمامها.

كما أن انخراطه في الوسط الطلابي والأهلي قد أهله لأن يكون ذا روحية جماعية لا تمارى.

فالمنزع (الارستقراطي؟) الذي كان يمكن أن يبرز لديه بتأثير ما كان للأسرة من صيت اجتماعي ومن منزلة روحية مرجعية قد استحال - في جو ذلك الانخراط التربوي- إلى تفتح نفسي وعاطفي غدت به شخصيته ذات قابلية اجتماعية وانسانية تحمل من دوافع الاندماج والقربى أكثر مما تحمل من بواعث العزلة والانغلاق، الأمر الذي كفل له فيما بعد أن ينجح أيما نجاح في القيادة، بل وفي التكيف من غير سوء مع المنعطفات الخطيرة التي ستعرفها حياته.

ثم إن تلك التنشئة بأسسها الاجتماعية والثقافية والروحية المتجذرة في تربة الزاوية قد مكنت من نفسه عاطفة الأخوة والمساواة، وهو ما سيظهر مع الزمن على صورة محبة ليس للقوم وبني الملة فحسب، ولكن للانسانية جمعاء.

فمواقف المبرة بالانسانية كما ظل يجسدها الأمير في سيرته الشخصية أولا، من حيث التزامه المكين بواجباته الاجتماعية، ثم في صلاته العامة وعلاقاته مع الآخرين، وحرصه على أن ينظر إليهم "عبادا لله " بكل ما تنضح به عبارة "عباد الله " من دلالة التكريم والتبجيل والقربى، لهي ثمار شعورية يانعة نمت بذورها في تلك التربة الصالحة المسقية بنقاء البادية وسماحة القرآن العظيم وخلقية جو

الزاوية كما كانت تتجسد في سلوك الأتراب والمريدين من حوله.

لقد ظلت مواقفه جراء هذا الرصيد من القيم السامية التي تحققت له في بيئته الأسرية والتعليمية والاجتماعية الأولى، تتسم بالاعتدال والاستخارة.

وسنرى أن قراراته وأحكامه الحربية نفسها ستتميز في عمومها بحد جلي من الاتزان الذي كثيرا ما جنبها الوقوع في الجنوح والاعتساف والشطط، إذ ظلت تقضي بمسطرة لا تخرج عن نصاب الحق والموضوعية، وكان ذلك يرجع - بطبيعة الحال- إلى التزامه الصارم بضوابط الشرع، وهو أمر لا يتأتى إلا لمن كان على حظ عظيم من الرجاحة الروحية والنفسية، لا سيما في ظروف التفجر ومجابهة الأعداء والخيانات.

ففضل الزاوية عليه كبير، وهو مكتسب روحي وسلوكي يشترك فيه رواد الزوايا عامة تقريبا، ولا زلنا نرى هذا الفضل يميز سلوك متخرجي الزوايا إلى زمننا هذا، إذ هي بنظامها الجماعي وبروحها الانضباطية الثابتة وبمنهجها الديداكتيكي الفردي، تكفل للمنتسب إليها عصمة وصقالة رجولية تزول معها كثير من شوائب السلوك الغليظ.

بل إن خريج الزاوية - رغم النقص في الأفق الرؤيوي - ليكتسب طبعا مدنيا وكياسة تعاملية محسوسة.

وزيادة على هذا، واعتبارا لنسب الأمير وانتمائه إلى الزاوية القادرية وكونه ابنها المرشح لإدارتها، فقد نشأ على عزة نفسية راسخة، مع ما يلابس ذلك عادة من مشاعر السيادة المكتملة والفضل المكين. وتلك خصوصية أخرى ستلعب دورها في ترجيح مهمته القيادية واستحقاقه لها.

وهناك جانب آخر تدعم لدى الأمير نتيجة نشأته في رحاب الزاوية، وهو توطن نفسيته على تحمل المسؤولية، إذ أن النظام الجماعي المتبع في الزاوية قد ولد لديه منذ النعومة حس المسؤولية مع ما يترتب عن ذلك من تطبع بخلق العدل والنصفة وحب المساواة.

في ذلك المناخ شب الأمير وتبلورت شخصيته وتهيأ للدور الخطير الذي قدر له أن يلعبه والذي اقترن فيه مصيره بمصير الوطن.

ذلك الدور القيادي الذي نحسب أن تعاليم الزاوية ونظامها الاجتماعي التكافلي وروحيتها الجماعية المتراصة كانت من أسسه، إذ انعكست بالإيجاب على تثبيت ذلك المستوى العالي من القوامة والرجولة والقسطاسية الذي تميز به الأمير طيلة حياته.

فهو قد تدرج إلى المسؤولية السامية عن طريق الترقي المرحلي الذي اتبعه منذ أن كان صبيا يرتاد بهو الزاوية لتحصيل العلم، واستمر يلابس التدرج الروحي والمدني فيما تلا ذلك من مراحل المراهقة والشباب، ليكتمل إعداده

للمستقبل من خلال تكيفات اجتماعية وفكرية ومدنية عاشها تحت نظر وتوجيه والده الذي كان دون شك يؤهله من أجل أن يكون على كفاءة وقدرة لخلافته في تدبير شؤون الزاوية، لا سيما وأن تلك الزاوية أضحت تأخذ مع مرور السنين بعدا مدنيا وسياسيا متناميا بين الأهالي خلال المرحلة الأخيرة من العهد التركي في الجزائر.

لقد كان القصد التأهيلي الوظيفي يقتضي من الوالد أن يسوح بولده في رحلة استطلاع وحج سيتاح له فيها الاطلاع على أحوال الامة في أصقاع أخرى خارج الوطن.

وهكذا وما أن تم له تحصيل الإذن بالسفر من البايلك التركي حتى مضى يقطع المراحل متنقلا من حاضرة اسلامية إلى حاضرة اسلامية أخرى، مرتادا المراكز العلمية، متعرفا على الشخصيات الدينية والمدنية، زائرا المراسم التي كانت آثارها الدامسة لا زالت تعبق بالذكرى والتاريخ، مؤديا الشعائر في البقاع المقدسة ليواصل رحلته عبر آفاق اسلامية أرحب وليجوب الفتى رفقة أبيه عدة أوطان اسلامية كانت محطاتها سوانح ثمينة للكشف واكتساب مزيد من الوعي الملي وتوسيع الأفق المعرفي والمدني، وكل ذلك كان يطور من رؤية الشاب في شتى الميادين.

بل إن المضايقة السياسية التي عاشتها أسرته مع الإدارة التركية كانت من دواعي تطوير نظرته إلى الحياة، حتى ولو أن ذلك التطوير في أول الأمر - كما نتصور - لم يتعد نطاق المشاعر بسبب انسداد الأفق أمام مجتمع الأهالي

يومئذ، لكن تأثيرات ذلك الواقع المجحف ستبرز جلية في مواقف الشاب عبد القادر حين سيضحى أميرا يسوس البلاد ويتولى أمورها.

إذ سنجده يسلك مع الرعية خطة على مستوى لا يجحد من الإشفاق و المرحمة.

بل إننا سنجده يعرب عن تلك الأبوة تجاه الرعية زمن الحرب- حين ستعصف الترديات بالبلاد ويسري التخاذل بين الجموع- إذ لبث يوصي خلفاءه بواجب الرأفة بالأهالي حتى الناكثين للعهد منهم، والتغاضي عن الزلل ما أمكن التغاضي.

وكل ذلك نابع من التنشئة القويمة التي تشرب مثلها في ماضيه من جهة، ونابع أيضا من صلة الغبن والاجحاف التي ربطت أسرته وموطن طفولته[22] ذات حين بالإدارة التركية، وكان لذلك تأثيره الايجابي على نفسية الأمير، إذ أيقظ فيه مشاعر العدل والسماحة.

إذ لا يمكننا أن ننسى أن الأطوار التي عاشتها مناطق معسكر - مسقط رأس الأمير - في ظل الحكم التركي، وما اتسم به العهد الأخير خاصة من تمزق وترد لا سيما على

---

[22] سنعرف أن نواحي معسكر قد ظلت تعرف وقائع مفجعة من الاعدامات والتنكيلات بالأهالي، خلال العهد التركي الأخير، سواء حين كانت مقرا للبايلك، أو بعد أن تحول مقر البايلك عنها إلى وهران، وكل ذلك كان له تأثيره على السكان وعلى البيوتات، ومنهم بيت الأمير.

مستوى علاقة الأهالي بالإدارة المخزنية، وما سببته المواجهات بين الطرفين من نكبات، قد تركت تأثيرها على شخصية الأمير، إذ اكتسب الروية والأناة وعدم البدار إلى العنف مع الرعية تلافيا لما كان يراه من عجلة وخفة وإصرار على الفتك والعسف يصدر عن الإدارة المخزنية.

وسيعيش الأمير مواقف ومواجهات عديدة ضد خصوم سياسيين وضد جهات ومدن عارضته في جهاده وفي مقاومته مثل مدن تلمسان وعين ماضي والمدية، بالإضافة إلى ما عاناه من خيانات القبائل ونكوص الأتباع، لكنه ظل متمالكا ومستعصما بالحق، ولم تأخذه حمية الملك ولا استفزته مشاعر الهوى، بل لقد وجدناه يعالج الأمور بكثير من التعقل والقصد والشرعية، كل ذلك تأتى له بسبب ما تشربه من قيم التنشئة، ومن إدراكه المبكر لمعنى القهر وتقديرا للمسؤولية التي كان يراها صونا للرعية أكثر مما كان يراها قهرا لهم وقمعا.

كما لا ننس عاملا آخر يكون قد ترك بصماته الإيجابية على شخصية الأمير وحدد خصائصها القيادية ويتمثل في تكوينه العلمي والفكري وفي مطالعاته للتاريخ ولسير عظماء الرجال خاصة.

فقد كان الأمير على ثقافة تاريخية وشرعية معتبرة ستكشف عنها مراسلاته مع علماء عصره ممن كان يستأنس بآرائهم واستشارتهم في ما يخص سياسته لتسيير شؤون البلاد والمقاومة، وستكشف عنها كذلك مؤلفاته.

لقد أظهرت تلك المراجعات عقلا مطلعا ومستوعبا للبعدين الروحي والحضاري اللذين انتصبت على صعيدهما الحضارة العربية الاسلامية، الأمر الذي يعني - بداهة - أن الأمير كان يصدر في سيرته ومواقفه عن خلفية ثقافية وأخلاقية عميقة، وأن النماذج المضيئة من أعلام ورجالات السياسة والمجد كانت حاضرة في ذهنه على الدوام، بل لقد كانت رموز تلك الحضارة من المنابع الهامة التي أمدت شخصيته القيادية بالحكمة والثبات.

بل لا نعدو الصواب إذا قلنا إن الأمير لم يكن ليعدم المثال الفذ حتى في بعض الفلتات ونماذج العظمة من قادة الوطن الأتراك ممن عايشهم أو عاش قريبا من عهدهم وتأثر بما تركوا من أعمال ومآثر.

فلا نظن أن شخصية عاملة ومجاهدة مثل شخصية الباي محمد بن عثمان الكبير - صاحب معسكر ومحرر وهران من براثن الاحتلال الإسباني[23] - لا تترك بما حققت من مآثر وأمجاد الأثر الوضيء على نفسية الأمير عبد القادر، هو الصبي المتطلع في كنف تربية أبيه الرشيدة إلى تشرب الفضيلة واستلهامها من سير الأقربين والأبعدين.

لقد ظل الرأي العام الأهلي ينوه طويلا بمكارم وأمجاد ذلك الحاكم المجاهد الذي قربه من الجماهير عمله الجاد ونهوضه المشرف بالمسؤولية، بحيث كانت سيرته منظومة

---

[23] - حرر وهران من الاسبان عام 1791.

من رائع الأعمال لا على الصعيد الجهادي فحسب، ولكن أيضا على صعيد التشييد الحضاري وإرساء أسباب الرخاء ونشر العلم وتقريب العلماء وأهل الورع لا سيما في نواحي معسكر، مقر إقامة هذا الحاكم قبل أن يحرر وهران ويتحول إليها.

ولا نحسب أن أفضال هذا الداي العظيم إلا تكون قد شملت أسرة الأمير، وأن زاوية القيطنة تكون نالت من التعهد والإستحقاق في عهده ما أعلي من شأن هذا الوالي بين أفرادها ومريديها وحفظ له جميل الذكر عندهم، وجعل منه نموذجا يقتدى به في التشييد والجهاد التحريري، وهو ما سيتعقبه فيه الأمير مستقبلا حين سيتولى المقاليد بين الأهالي.

**شخصية الفتى عبد القادر تبرز في خضم المعركة.**

في خضم المعارك ومن غمار الصدامات الحربية برز الأمير وشد إليه الأنظار.

فالفتوة والعلم وقوة الجانب كانت عوامل ثبات وبواعث طموح تحدى بها الأمير الشاب الصعاب وتصدى للأزمات والامتحانات.

لقد كان على الأمير أن يباشر تجربته السياسية والقيادية من درجة التأسيس في كل المجالات.

وكان مؤلما حقا أن تتجمع من حول تلك التجربة الغضة عوامل إحباط جمة.

فالظروف المكفهرة بتغلغل المستعمر الكافر – الذي كان يتحرى ليخنق في المهد كل انتفاضة أهلية – كانت تزيد من ارتباك المحاولات التأسيسية ولا تعطيها فسحة الميلاد المكتمل.

ومن جهة أخرى لئن كانت القيادة الشابة تتوفر على عامل الفتوة، فإنها في نظر المجتمع العتيق –في بناه الفكرية والتصورية– قد لا تكون تتوفر على الحنكة والحصافة المطلوبتين في مسائل الحكم وسياسة الناس.

ومن شأن مثل ذلك التقويم السلبي أن يلقي بظلال الوهن على شخصية السلطان.

وإلى ذلك كله كانت المهمة التأميرية حدثا بكرا، إذ لم يسبق لأجيال وأجيال من سكان أرض الواسطة أن مارسوا تجربة حكمهم لذاتهم بذاتهم، إذ ظلت البلاد منذ قرون تحكم بأيدي خارجية، الأمر الذي أفقدها – إلى حد كبير – ما يمكن أن يسمى بقابلية السيادة الذاتية.

في هذه الملابسات المضادة كان القدر يقضي على الأمير الشاب أن يبدأ تجربة إنشاء الدولة الوطنية من فراغ وطيد ومن غياب شبه معدوم للنموذج والمثال الحكومي المحلي الأصيل.

لقد كانت تلك المهمة مواجهة قاسية وامتحانا للذات بالغا. ولم يكن لإرادة الأمير بما انطوت عليه نفسه من

قابليات التحدي والمجالدة إلا أن تستجيب بما يحقق الرهانات، وهو ما وقع فعلا، إذ سرعان ما تحرر عبد القادر من التردد وباشر عملية التأسيس على مشقتها، وانطلق نحو التنفيذ، ولم يكن بوسعه أن يجابه الواقع من حوله إلا في ضوء حسن استغلال شروط ذلك الواقع نفسها أولا، ثم في ضوء ما تتيحه معطيات الحياة وتجاربها أو ما تسعف به المعرفة المكتسبة كما عاشها الشاب عبد القادر سواء في داخل البلاد أو خارجها.

فعلى صعيد الواقع المعيش لم تبق أمام الأمير إلا تصدعات منهارة لنظام مخزني وإداري تركي كانت وطأته على الأهالي شديدة، فلم يكن متاحا للأمير أن يبعث الحياة في هياكل حكم منهار مهزوم أمام العدو الكافر وسيء الذكر في نفوس الأهالي بما اتسم به من جور وتحجر وتعال.

لا جرم أن جولة الشاب عبد القادر إلى أقطار المشرق في رحلة الحج والاطلاع تلك، كانت قد أفادته وفتحت عينيه على شيء من أنظمة الحكم والإدارة في تلك الأقطار، الأمر الذي جعل الأمير يتولى المسؤولية وهو ليس خالي الذهن تماما بمسائل الحكم والإدارة.

فاطلاعه على الحياة السياسية والاجتماعية والإدارية أثناء رحلته كان رصيدا مهما يسر عليه دون شك العمل باتجاه خلق الهياكل الإدارية والقيادية والتأطيرية على نحو لن يكون بالضرورة استنساخا بليدا لأسلوب البايلك الذي عانى منه الأهالي طويلا.

لقد كانت المهمة التأسيسية إذن مكلفة، لأنها لم تكن تقتصر على إقامة البنية التسييرية التي تقوم عليها قواعد الدولة فحسب، ولكنها كانت مهمة تحرص أيضا على أن لا تفاعل الناس بذات النموذج الإداري وبنفس السلك الحكومي الذي كان البايلك يديرهم به.

فشرط التجهز بنظام تسييري مباين - لا سيما في الجوهر - لنظام الحكم المنهار كان حاجة ملحة، ومن شأن مراعاة ذلك الجانب وأخذه بعين الاعتبار أن يضمن استقطاب الجهات والفئات من الأهالي التي لم تكن مهيأة بما اعتادت عليه من نزوع إلى التحلل من سلطة الدولة والعيش بمعزل عن السلطان أن تتقبل جهازا إداريا يذكرها بالعهد البائد سيء الذكر.

ونحن إذا ما قرأنا بعض ما ورد في الكتاب الذي وجهه أصحاب الرأي إلى الأهالي، إعلانا عن بيعتهم للأمير، فسنتبين بوضوح الوازع التجديدي لنمط الحكم الذي كان يلح على هؤلاء - بوصفهم يعبرون عن الضمير الوطني - لذلك وجدناهم يبادرون إلى طمأنة الناس (الرأي العام) بطبيعة الحكم الجديد تحت سلطان الدولة الوطنية، وأنها ستخالف طبيعة الحكم الزائل، فقد نص ذلك الكتاب على هذا المطمح بقوله:

" اعلموا معاشر العرب والبربر أن الإمارة الاسلامية والقيام بشعائر الملة المحمدية قد آل أمرهما الآن إلى ناصر الدين ..وصار أميرا لنا ومتكلفا بإقامة الحدود الشرعية، وهو

لا يقتفي آثار غيره ولا يحذو حذوهم، ولا يخصص لذاته مصاريف زائدة على الحاجة، كما كان الغير يفعله، ولا يكلف الرعية شيئا لم تأمر به الشريعة المطهرة، ولا يصرف شيئا بغير وجه الحق[24].

فالكتاب بهذه الجوانب التنظيمية والتسييرية التي التفت إليها وأوجزها، قد اكتسب صبغةً برنامج العمل ومدونة التصرف التي كان أولو العزم ينتظرون تنفيذها من قبل النظام الجديد، إذ شكلت نقاطها الإطار العام الذي ستلزم به الحكومة الوطنية الناشئة نفسها في قيامها بواجبها العمومي المنتظر، تجنبا للانحراف الذي كانت الحكومة المخزنية تتردى فيه.

بل لقد وجدنا الأمير نفسه يحرص على أن يدشن سياسته الوطنية بإلغاء كثير من قوانين وتشريعات الحكومة المخزنية، وهو ما أشار إليه صاحب التحفة عندما عدد أعمال الأمير عبد القادر التي بادر إليها وهو ينطلق في تأسيس الدولة وسن خططها.

فقد كان من أولويات برنامج الأمير الشاب أن يقرن خطوات فرض النظام وإرساء مسطرة العدل والقصاص بين الرعية ورد المظالم، بالإعلان عن إلغاء إجراءات جبائية ومغرمية كانت الحكومة التركية تفرضها على الأهالي:

---

[24] -التحفة ص.161.

" وطفق يرد على الناس ما اختلسه بعضهم من بعض وينصفهم مما وقع عليهم من أنواع المظالم والتعديات أيام الفتنة، ويهدم ما كانت حكومة الجزائر أسسته من المغارم والضرائب والعوائد".[25]

غير أن الأمير الذي كان يسابق الزمن استجابة لمقتضيات المواجهة مع العدو، كان يجد في النموذج السلطاني المغربي الذي كانت مملكته تجاور الوطن وكانت الصلة بها مستمرة، إمكانية تأسيسية لا يضيره أن يحتذيها ويستقي منها الأساليب التنظيمية والهيكلية والمراسيمية في إدارة البلاد.[26]

بل إنه ليهيأ لنا أن الفترة التي قضاها الأمير المغربي المستخلف في البلاد قد أتاحت للنخبة الأهلية أن ترسم ملامح لهيكل الدولة كما كانت تتصوره في إطار حكومة الأمير المغربي، إذ لا نحسب أن مدة الأشهر الستة أو نحوها التي

---

[25] -التحفة.ص. 166

[26] - لنتذكر في هذا المقام الجهد الذي بذلته الدولة الجزائرية في رسم هياكلها وتقنين تشريعاتها، ومنها الوظيف العمومي. لقد ظلت وسائل الإعلام – في تلك المرحلة من الستينات تبشر الناس باستكمال وثيقة الإدارة المتمثلة في نصوص الوظيف العمومي، وسندرك بعد حين أن الأمر تم استنساخا لقوانين المستعمر، وتوجيه خبرته وعقليته، الأمر الذي يجعلنا ندرك التفاهة المتناهية التي باشر بها ساستنا الثوار برنامج بناء الدولة المستقلة. ترى كيف ساغ للشهداء أن يبذلوا أرواحهم تحت قيادات من هذا النوع. أم أن الثورة استهلكت الأفذاذ ولم تخلف إلا النفايات– حاشا من لم يستحق هذا النعت ؟

استغرقها وجود ذلك الخليفة في البلاد كانت لا تكفي لتصور هيكل للدولة المبتغاة.

بل إننا نزعم أن نخبة البلاد كانت قد أوجدت حدا من آليات الهيكلية التي تسير بها الشؤون العامة، لا سيما وأننا عرفنا أن الأمير المستجلب كان قد شرع في مباشرة التسيير، وأنه عين عمالا وجبى أموالا خلال تلك الأشهر. وهو ما يعني أن البلاد حين نصب الأمير عبد القادر على رأسها كانت تتوفرعلى آلية إدارية وتسييرية نواة، وأن منطلقه في حكم البلاد لم يكن من الصفر.

بل إننا لنعتقد أن البلاد - من خلال نخبتها الحية التي تصدت لتخطي حالة الفراغ الهيكلي والسياسي الذي عاشته البلاد في أعقاب الاحتلال، قد عملت - وبذات الحرص - على إقامة وتنشيط مستوى أدنى، لكنه حيوي، من الهياكل والكيفيات التي كفلت الاستجابة لمستوى ملح من المطالب الحاسمة كان أمن وسلامة العباد والبلاد يقتضيها، وهذا سواء في مجال حفظ النظام أو على مستوى مدافعة العدو المتوسع عبر أرجاء الوطن.

فانتظام جيش من المجاهدين المتطوعين تحت قيادة الشيخ محي الدين وخوض غمار أكثر من موقعة باسلة بإمرته لا يدل إلا على مدى التصميم الأهلي على البقاء وحفظ الكيان، وهو ما سيعمل الأهالي لا سيما رجال الطليعة منهم بجهد من أجل تحقيقه من خلال مباشرتهم بناء هياكل

الحكم ومؤسساته وفي مقدمتها مؤسسة الجند التي كانوا يرون فيها مادة حاسمة لمجابهة التفاقمات.

ترى هل يمكننا اعتبار تلك الكتائب الأولى من المجاهدين المتطوعين هي نواة الدولة الجزائرية في عصر الأمير؟

من الثابت أن تلك النواة النظامية التي كان قوامها كتائب وفرق من المتطوعة قد أضحت في وقت قياسي ونتيجة العمل الدائب الذي بذله الأمير بوصفه القائد الأعلى للقوات المجندة في إنمائها وأضفاء النظام عليها مؤسسة قارة ومتوسعة ومتدرجة نحو الاحتراف بفضل ما بات ينفق عليها من رواتب، زيادة على ما كان يتهيأ لها أحيانا من مغانم أوفت لها بشرط المرابطة والسهر على تعزيز النظام المدني الذي كانت القيادة تتصدى به لمعالجة التصداعات في شتى الميادين.

بل إننا لا نعزو تلك السرعة التي باشر بها الأمير المغربي مهامه التسييرية إلا إلى الحال العامة التي وجد عليها البلاد من حيث قابلية التجند التي تعم الطبقة المدنية المتحمسة لبناء الكيان.

فالحاكم المغربي قد بادر إلى التحرك والتنظيم بسبب ما كان يكفله له وجود حماية مادية تمثلت في الهيكل العسكري الذي كانت توجيهات الشيخ محي الدين قد وفرته للبلاد وضمنت به نوعا من النظام الذي ساد بعض الحواضر

والجهات، إذ لولا وجود الأداة المنظمة والموطدة للأمن -ولو على صعيد إقليمي محدود وبشكل تطوعي - لما تهيأ للحاكم المنتدب أن يستقر في البلاد أسبوعا واحدا.

من هنا نستخلص أن البلاد قد تهيأت لتقبل النظام من خلال وعي نخبتها ووجهائها، وتمكنت من تجسيد تلك الإرادة من خلال المبادرة إلى الجهاد التطوعي تحت قيادة الشيخ محي الدين، حيث استطاعت وفي غمرة النزال أن تخلق جوا من التلاحم بين قبائل والحواضر التي وعت دورها الجهادي فعملت على تهيئة الإطار العملي للجهاد، وقد تولد عن ذلك بروز جند من المتطوعة الذين استغرقتهم المواجهة فباتوا أداة في يد الجماعة يتمرسون بالنظام ويفرضونه ويتطلعون إلى تحقيق الفاعلية التي تتمكن بها البلاد من دفع المخاطر المحدقة بها.

فالإرادة الشعبية التنظيمية التي ظهرت في غمرة الفراغ وما تلا ذلك من انصياع جماعي للانضباط، رغم الخيبة السريعة التي أصابت الأهالي تجاه حاكمهم المغربي، كل ذلك كفل للبلاد أن تهيء مادة بشرية وتجهيزية سيعمل الأمير عبد القادر بحماس ومواظبة على جعلها قوة عسكرية ونظامية تأخذ بأنجع الأساليب والطرق التمرسية والتكفلية.

وقد ظل المنهج التنظيمي يتطور مع المراحل، إذ أن الأمير كان عمليا، وكانت ظروف القتال هي التي تلهمه الخطة والنجاعة في الفعل، فضلا عما كان يقتبسه - كما

أسلفنا – من هنا وهناك في مجال نظم العسكرية والإدارة والتسيير.

ثم إن الوجود الاحتلالي الفرنسي نفسه سيكون مجال استلهام بالنسبة للأمير عبد القادر، من حيث احتذى بعض نظمه ومناهجه وأساليب تسييره.

وربما تضمن القانون العسكري الذي وضعه[27] الأمير من أجل تشكيل قطاعات الجيش والمرافق الأمنية المرتبطة به، شيئا من التنظيم العسكري الفرنسي. فالمثال العسكري البونابارتي كان في الواقع يتخذ طريقه إلى مؤسسات الدول القومية في بلاد كثيرة ومنها البلاد العربية التي كانت يومذاك على شيء من السيادة مثل مصر محمد علي.

على أننا سنجد الأمير يباشر مسؤوليته السامية على وفق نظام تشريفاتي وخطة مراسيمية سلطانية شبه مكتملة منذ ساعة تنصيبه، الأمر الذي يبين كيف أن المدة التي سبقت تاريخ بيعته قد تأتى فيها للبلاد أن تتفتح وتتهيأ للتمرس واكتساب ما يمكن أن نسميه ثقافة الدولة وآداب البروتوكول السلطاني.

فعلى صعيد المراسيم والتشريفات لقد رأينا البيعة تنعقد للأمير في مؤتمر حاشد من الجمهور والوجهاء والعلماء

---

[27] – أو على الأصح وضع له . واعتمده هو بعد المراجعة .

وأهل الشأن من كافة جهات الوطن التي مكنها الظرف الاحتفالي أن تحضر الحدث.

ذلك لأن البيعة قد تأدت في جو يتوفر على كل أسباب الأمن والتنظيم بفضل توفر البلاد على هيكل من الجند كان الأمير الشاب واحدا من قادته إلى ذلك الحين.

وسيتحول الأمير إلى قائده الأعلى بمجرد انعقاد البيعة له، لذلك رأينا الاحتفالات التي صاحبت الحدث قد تمت بإشراف الجند الجزائري وبواسطة وحداته، فالفرسان وموسيقاهم والرجالة وراياتهم وألعابهم النارية وسباقاتهم وما إلى ذلك، كانت مظاهر أبهة وفرح من أداء وتنظيم الجند الوطني الأميري.

ومن الواضح أن الأمير ومن كان يتولى تسطير برنامج حفل البيعة كان يحرص على أن تتطابق التشريفات ما أمكن مع المثال النبوي الشريف، لذا فلا غرابة أن نجد الوقائع تتم في كنف شجرة الدردارة، ونجد الجماعات المبايعة له يتبعون ذات الخطوات ويرددون نفس الصيغ التي أثرت عن النبي المكرم وهو يتلقى بيعة الرضوان أو بيعة العقبة.

وعلى صعيد البناء التنظيمي، لا شك أن الدولة الناشئة قد استثمرت لصالحها كافة الامكانات والوسائل المتاحة التي كانت ترى فيها سببا من أسباب تقويتها. فلا يستغرب إذن أن نراها تستوعب الطاقات التي استطاعت أن تستوعبها- سواء

أكانت مادية أو بشرية - مما انتهى إليها مــن إرث الإدارة التركية في الجزائر.

فقد أتاحت الإمــارة الفتيــة للوجهــاء والشخصـيات ورجالات الإدارة التركية الانضمام إلى صــفوفها، بعــد أن ضبطت القانون التسييري الصارم وألزمت به الأمة، خاصتها وعامتها، والمتمثل في الشريعة الاسلامية.

من هنا رأيناها تسند قيادات ومناصب حكم لفئــة مــن رجال المخزن، بل وتقدم إلى الصفوف الأولى كثيــرا مــن العناصر التي كانت على شأن في الحكم المخزني البائد. لقد ساعدها على أن تحقق ذلك الاستيعاب جو المواجهة الجهادية الذي كانت تقفه حيال العدو المحتل.

بل لقد رأينا الأمير -ونظرا لدواعي عمليــة بحتــة- يستثمر المعجم الوظيفي التركي ويستبقي منــه مصــطلحات إدارية تعاملية، وذلك حتى لا يحصل لبس أو ارباك للذهنيــة الأهلية في التعامل ببدائل اصطلاحية طارئــة عليهــا، لأن المقاصد كانت ميدانية جهادية أكثر منها شكلية، على الــرغم من أن المطمح هو إحداث التجديد النوعي سواء فيما تعلــق بآلية التسيير أو بالمسلك القيادي نفسه.

من هنا يمكن القول إن الهياكل والخطط والسلم الإداري ظل تقريبا هو نفسه الذي كانت تسير عليه البلاد في العهــد التركي، لكنه سرعان ما جنح إلى التحديث بتمرس الأميــر

بالتسيير وبالتحاق أهل الخبرة من مواطنين ومتعاونين أجانب بسلك دولته.

ولأن المهمة كانت جسيمة وحاسمة والرهانات مصيرية فقد ألفينا الأمير يستغل كافة الفرص والسوانح لدعم مشروع بناء الدولة، لذا رأيناه لا يتردد في إدماج ضمن هياكل الإدارة والتسيير، لا سيما على الصعيد التقني، بعض اليهود والأجانب الأوروبيين وغير الأوروبيين، وسنجده يستفيد بالخصوص من الخبرة الفرنسية بعد توقيع الهدنة معهم، إذ كانت بنود تلك الهدنة تفتح مجالا كبيرا للتعاون وتبادل المصالح.

ولعل ما قوى مكاسب الأمير من تلك الهدنة حرية تنقل الأفراد والبضائع والزيارات، وهو ما مكن الأمير بفضل أريحته ونفاذ بصيرته أن يستقطب إليه أعدادا من الفرنسيين وحتى من الأوروبيين، ممن كانت أخبار أفضاله وتمدنه الراقي تنتهي إليهم فيتطلعون إلى الاتصال به والإقامة عنده.

ولا نستبعد أن تكون جماعات وعناصر كثيرة -ممن كانت أحلام الشرق وسحر عوالمه تزين لهم أن يعيشوا في كنف البيئة المشرقية -قد نزلوا ضيوفا عليه، لاسيما وأن البلاد بتعدد كنوزها البيئية والمناخية والحضارية كانت تغري المغامرين والرحالة الغربيين، خاصة إذا كانت الرحلة ستقودهم إلى ضيافة أمير شاب ذي شخصية آسرة وشمائل رفيعة يصعب أن ينجو من تأثيرها الإنسان الغربي كما كان يشاع عن الأمير بعد أن تعرف عليه القادة الفرنسيون

ومساعدوهم، وفي ذلك الاحتكاك توسيع لمجال الاستفادة من غير شك.

فواقعة نفاذ شخص مثل ليون روش إلى حضرة الأمير - وكان في حقيقة أمره مخبرا مدسوسا، استغل تلك الروح التي كان الأمير يخص بها زواره ورواد مجلسه - لا تبعث على أي اندهاش، لأن روش لا يكون إلا قد سلك سبيل غيره ممن كانوا يحتكون بالأمير وينزلون ضيوفا عليه.

على أن أمر هذا الجاسوس كان يتفرد عن غيره بما انطوى عليه من مرامي خيانية تلبس لها بما كان يعلم أنه سيخدع به ليس الأمير فحسب، ولكن كل مسلم، إذ من خدعنا في الله انخدعنا له.

لقد استطاع هذا الفرنسي الماكر أن يتعلم العربية وأن يشهر إسلامه في حضرة الأمير، ليتقرب بذلك إليه على نحو حميم، ثم ليظفر بكل تعاطفه، وذلك ما تم له فعلا، إذ زوجه الأمير بفتاة مسلمة -تدعى آمنة - ثم عاش عينا يترصد خطط الأمير إلى أن أنهى المأمورية التي أنيطت به وانسحب.

إن تجربة تقريب الأمير لهذا الأجنبي لم تكن فريدة، فقد كانت حضرته لا تخلو من عناصر أجنبية جاء بهم حب الاستطلاع الثقافي، وربما حملتهم إليه الرغبة في درس

العربيـــة والـــدين الاســـلامي أو الســـياحة والفضـــول الاستكشافي[28] ومرامي أخرى.

بل ربما وجدنا بعضا من العساكر الفرنسيين أنفسهم في مرات عديدة يفرون من وحداتهم ويلتحقون بالأمير، وربمـا كان بعضهم يمضي وقتا مقيما بين المسلمين قبل أن يلتحـق بذويه أو يشق الأرجاء في اتجاه البحث عن ممالك الشـرق العجيبة.

من هذا الصدد التواصلي كان الأمير يستمد بعض حاجته من الخبرة ويقوي ثقافته التنظيمية والتسييرية والإنسانية. ثم إن علاقة الأمير بالإدارة الفرنسية بل وبالجيش الفرنسـي - لاسيما أثناء الهدنة - كانت من الاستقرار الايجابي بمكان، إذ كان الأمير يتعهد تلك العلاقة بالإلتفاتات الإلطافية والإتحافية ما كان يستبقي العلاقة في مستواها الطيب، فـلا غرابـة أن نجد الجنرال دي ميشال حاكم وهران يومئذ يوصي من كانوا يتصلون بالأمير، ومنهم السفير الفرنسي الذي كان يقيم فـي حاضرة معسكر، أن يبذلوا مساعدتهم للأمير وأن يمدوه بيـد العون وبما سيمكنه من بناء وتنظيم إدارته، وكـل ذلـك - بطبيعة الحال - يسر على الأمير أن يفـتح بـاب التعـاون والاستفادة والاستشارة في وجه الأجانب، في الحدود التـي كانت لا تخالف سياسته الشرعية طبعا.

---

[28]-وهم فئة المتفرجين كما يسميهم صاحب كتاب تحفـة الزائـر . أنظر ص222 في هذا المصدر.

لقد أخذت عملية بناء الدولة الوطنية مناحي عدة وسارت عبر تشعبات مختلفة في الوقت نفسه. ولعل المنحى الإقليمي كان من مراكز الاهتمام الأولى لدى الأمير، إذ جعل من السعي إلى احتياز الرقعة الجغرافية للوطن وضمها إلى الحدود التي كانت لها على العهد التركي تقريبا غايته الاستراتيجية الأساس، إذ كان يرى في نشر النفوذ على الصعيد القاري للوطن شرطا مهما يكرس السيادة ويعطي الدولة مكانتها ويلحم بين جهاتها وأهاليها ويدفع أطماع الاحتلال والمقاسمة التي كان يراها جلية في أعمال وتطلعات العدو المحتل.

فقد كانت مرامي المستعمر التوطينية والتوسعية سافرة للعيان. من هنا وضع الأمير نصب عينيه هدف تحقيق الانتشار عبر حدود الوطن، حيلولة دون خطط الاستحواذ الاستعماري عليها.

إذ أن المحتل لم يتوقف عند عتبة وضع اليد على الثغور التي نزل بها في المرحلة الأولى للاجتياح، ولكنه مضى يتوسع بشكل جلي عبر الجهات المختلفة، الأمر الذي دفع بالأمير إلى العمل الجاد على بلوغ المناطق التي كانت لا تزال خارجة عن سيادته من أجل أن يضمها إليه والسيطرة عليها قبل فوات الأوان.

لقد كان يرى أحقيته ثابتة في الاستيلاء على سائر أرجاء القطر، من حيث كونه الحاكم الشرعي الذي بايعته الجماعات على الإمارة، والذي من أوكد واجباته أن يعمل على تحقيق

وحدة الوطن وأن لا يترك الفرصة للدخيل أو لغيره أن يقتطع من الحوزة الوطنية جزءا أو أجزاء.

وسنرى الأمير في مرحلة الجدال والخلاف السياسي الذي سينشب بينه وبين المحتلين بشأن السيادة على الأراضي التي كانت تابعة لأحمد باي بعد سقوط هذا الأخير، يعلن للفرنسيين أنه الأولى بوراثة تلك الأراضي، فهو الحاكم الشرعي للبلاد والأحق ببسط نفوذه عليها من فرنسا.

بل لقد أعلن لهم أن أحقيته ثابتة حتى على أحمد باي الذي لم يكن في نظره إلا بمثابة المتغلب على تلك الجهة بالقوة وحدها، لأن الشرعية الوطنية كانت من حظه هو الأمير، إذ نالها بالبيعة، وأن فرنسا -من ثمة- لا أحقية لها إلا فيما كان تحت يدها من ثغور ومراكز مما نصت عليه المعاهدة بينهما.

هكذا ظل التواجه من أجل بسط السيادة محتدما منذ البداية بين الأمير وبين المحتلين، وسيتحول التدافع بينهما إلى صعيد التبييت والمناورة، إذ سنجد الطرف المحتل لا يني يسلك النهج الذي يجعله يعزز سياسته التوسعية على الأرض بشتى السبل وحتى بالمغافلة والتسرب.

فالأمير كان مستغرقا في مهام تأسيسية وتسييرية واسعة اقتضاها منه واقع البلاد الذي أضحى يعنيه مباشرة من حيث كونه الحاكم. لذلك كان التوسع واستيفاء السيادة على الجهات المتبقية من الوطن في مقدمة همومه، إذ بقاء أجزاء خارج

نطاق سيادة الدولة من شأنه أن يؤخر أمر استتباب نظام الدولة على الساحة الوطنية، بل ومن شأنه أن يعرضها في كل حين للتفكك، بما كانت تنزع إليه المناطق من تحرر وخروج عن النظام والسلطان.

ومن جهة المحتلين الفرنسيين فإن إعاقة الأمير عن بسط سيادته على كل الجهات كان سيتيح لهم فرصة التأهب وأخذ العدة للتوسع بتلك الجهات، وليتمكنوا بعد ذلك من رسم الأفق الذي يريدون لاحتلالهم أن ينتهي إليه.

من هنا رأينا القوات الاحتلالية تباشر عملية توسع وانتشار شاملة شرقا وغربا، وتبذل الجهد للتغلغل في الأراضي عبر الإقليم الشرقي حيث كان أحمد باي يتصدى لها بقواته، كما رأيناها تتوسع أيضا عبر المناطق الوسطى والغربية حيث تمكنت قوة الأمير من أن تقف أمامها وتعطل تقدمها. لذا سنراها تجنح إلى مهادنة الأمير من خلال تعاقد تاكتيكي سوف تكشف التطورات عن مراميه الظرفية .

فالتحايل والاستغفال قد مارسته فرنسا المحتلة على أرض الميدان من خلال سعي جيوشها إلى التقدم والتسلل عبر المناطق التي كانت لا تزال خارجة عن نفوذها، ومارسته أيضا وبشكل خبيث على مستوى نصوص المعهدات والعقود، لا سيما معاهدة تافنة. وهو ما تدل عليه صيغ تلك الوثيقة إذ جاءت تشتمل على عموميات لئن دلت على شيء فإنما تدل على الحاجة الاضطرارية التي كانت وراء ابرامها.

ضمن جو هذا الاختلاف في الرؤية وفي المقاصد بين الأمير وبين المحتلين كان ركوب المناورة ولو حتى على مستوى العقود أمرا مشروعا بالنسبة للمحتلين، من هنا جاءت عبارات المعاهدة بل وتركيبتها النصية الثنائية - مضمون عربي يقابله مضمون آخر فرنسي - وسيلة تفتح باب الصراع على مصراعيه، فبسبب عدم التنصيص الواضح والصريح على مسائل الحدود، عمل كل طرف على أن يجعل من سيادته على أكبر حيز ترابي وإقليمي غاية ملحة ومطمحا مشروعا، وسيلته في ذلك ما نص عليه الاتفاق الذي لم يخضع لمفاوضة توحده أو تصوغه من جديد على أسس من الوضوح والدقة.

من هنا لم يلبث السباق أن احتدم أولا على نواح تقع في وسط البلاد، ثم ما فتئ أن شب من أجل إقليم قسنطينة، ذلك الاقليم الذي رأينا عملية التنازع والتسابق على افتكاكه من صاحبه أحمد باي تدفع بالدولتين إلى أن تتجندا وتنخرطا في سباق متواز تقريبا من أجل احتيازه، إذ ما أن تهيأ الأمر للأمير ببسط نفوذه على إقليم الوسط حتى رأيناه يستنفر قواته ويعين القادة ويوفدهم إلى الجهة الشرقية من أجل سبق قوات الاحتلال ووضع السيادة على تلك النواحي، مستدركا ما كانت القوات الفرنسية تقوم به من سعي دائب للاستيلاء على قسنطينة بعد أن كانت قد نفذت إلى ثغور بحرية عديدة هناك.

وإنه لواضح أن نصوص المعاهدات بين الطرفين كانت تقوم على وازع ختلي من قبل المحتلين، إذ أن تلك النصوص كانت تشرع دائما الباب في وجه الخرق. ذلك لأنهم كانوا لا

يعقدونها مع الأمير إلا لمرام تبييتية، فلا عجب – من ثمة – أن يتم إلغاء معاهدتين في وقتين مختلفين للسبب نفسه وهو الانتهاك الاقليمي الذي تعرضت له حرمة دولة الأمير، بدعوى أن ليس هناك خرق لأن النص لم يحسم في الأمر محل التنازع.

ولابد هنا أن نقر أن الضعف في هذا المجال القانوني لم يكن ناجما فقط عن محدودية الخبرة التفاوضية لدى حكومة الأمير، ولكنه كان أيضا ناجما وبدرجة أساسية عن سوء الطوية وانعدام كلمة الشرف عند ساسة العدو وقادة عسكريته. لقد كان معنى إعطاء الكلمة يعني عند الأمير وعند حكومته المسلمة السقف القدسي الذي يناط به شرف الانسان في الدنيا والآخرة، فيما كان الأمر عند الغزاة الأوروبيين مجرد تاكتيك يرجئون به إظهار نواياهم الغادرة إلى حين.

ولا يزال العالم المسلم إلى اليوم ضحية لهذه الاستقامة التعاقدية الوخيمة العواقب مع من لا يرعى كلمة الشرف.

ترى هل يحق لنا أن نخرج المجال السياسي في تعاملاتنا مع الغرب من حيز الأخلاق والشرف، إلى أن يتمسك هذا الغرب فعلا بحد أدنى من الشرف؟

لقد تم فسخ المعاهدة الأولى بعد أن اخترق جيش المستعمر أراضي وهران إلى مستغانم، وتم فسخها في المرة الثانية حين مرت الفيالق الفرنسية في طريقها إلى

قسنطينة تسير بابن الملك عبر أراض في إقليم الوسط كانت تابعة لدولة الأمير.

ولو تساءلنا عن سر تحلل المحتلين من عقودهم ومعاهداتهم مع الأمير، لرأينا ذلك يعود -بداهة- إلى توجسهم من أعمال الأمير المثمرة ومن جدية مساره التأسيسي، ومن تطلعاته الاجتماعية والسياسية الخطرة التي كانت تتنافى أساسا مع مشروع الحيازة والاستيطان الذي كانت فرنسا عازمة على تنفيذه في الجزائر.

فلقد عملت دولة الأمير الفتية، ما أن وضعت أسس البنى الإدارية والتأطيرية على الأرض ومدت شبكة نفوذها النظامي والشرعي على البلاد، على إقامة نموذج اجتماعي اسلامي متوازن، ومضت تضاعف الجهد في استكمال برامج حيوية طموحة لا سيما على صعيد التعمير وبناء المراكز العمرانية، واشتغلت بصورة نشطة بالزراعة من خلال ربط الجماعات بالأرض وتخصيص الأراضي الفلاحية لمن طلب العمل الزراعي، وسنجد نظام التويزة لا ينعش فقط المجال الزراعي بل لقد توسع وشمل حقل البناء وتشييد الحواضر، حيث كانت عملية إقامة المراكز والمدن تتم بواسطة التويزة[29].

---

[29] - العمل الجماعي التطوعي الذي ظل منهج النشاط التعميري طيلة تاريخ الحضارة الاسلامية. ولعل منجزات الرسول الأعظم في حقل البناء والتحصين من خلال مشروع بناء مسجده في المدينة، أو حفره للخندق، من شواهد الإقتداء التي عززت أسلوب العمل الجماعي لدى المسلمين، لا سيما في بلاد المغرب العربي،

ثم التفتت سياسة التعمير إلى مجال التصنيع الحيوي فأقامت نواة لصناعة حربية وتسليحية، ثم تطلعت إلى أفق أكثر ارتباطا بالسيادة وذلك حين باشرت التخطيط العملي لضرب عملتها الخاصة، وكان بلوغ ذلك المستوى من الطموح- في واقع الأمر -هو الباعث الحقيقي الذي جعل المحتل يعمل على فسخ المعاهدة الأولى. فقد هالهم أن يروا الأمور تنصاع للأمير، والحيوية التعميرية والتنظيمية تتصاعد وتيرتها في إمارته، وأركان الدولة تشاد على أسس من الوئام والشرع والشورى ما كان ينذرهم بالفشل والخيبة.

كان الأمير قد باشر عهد توليته بالشروع في زيارات ميدانية تنقل خلالها عبر أرجاء البلاد، متلقيا البيعة الشعبية، ومعرفا بنفسه، وموطدا هيبة الدولة، وباثا أفكارا تحسس بقيمة السيادة الوطنية من خلال إبراز معنى أن يكون للأهالي دولة قومية شرعية بعد أن ظلوا طويلا يعيشون تحت نير الحكم الأجنبي.

وكان في نفس الوقت ينشر الوعي بمخاطر الاحتلال ويحذر من مناورات المحتلين الذين كانوا يعملون جاهدين على استمالة القبائل والجهات وجعل تبعيتها ورقة يضغطون بها على الدولة الوطنية ويطعنون في سيادتها، ويتوسلون بذلك إلى التوسع في الأرض وفي الاحتلال.

---

-حيث تأصلت الخدمة الجماعية سواء في تقاليد البربر، أو في أعراف القبائل الهلالية. ربما سنعود إلى هذا الموضوع في مناسبة أخرى إن شاء الله.

وقد دأب الأمير على اتباع تلك السيرة التثقيفية العمومية طيلة عهده، إذ رأيناه ينشط في زيارة مناطق البلاد وجهاتها المختلفة، وكان ذلك يستغرقه الفترات التي يقتضيها منه أمر تنظيم الجهات وهيكلتها، فيقرن مهمة التنظيم بالعمل على تعميق الوعي القومي والملي بين الأهالي، وكانت جسامة المقاصد تتطلب منه إظهار مستوى من الصرامة التي لا هوادة فيها، لذلك رأيناه لا يتردد في المزاوجة بين أساليب التوجيه الترغيبي والاجراءات الترضيخية القهرية، إذ لم يكن ليستغني عن حملات التدويخ، لا سيما ونظام الدولة بعدُ فتي، مع وجود عوامل كثيرة كانت تدفع بالقبائل والرعية إلى العصيان والجفو عن الوحدة، بل وإلى الخيانة والتآمر ضد الدولة.

لقد كان سياسة تعزيز الاستمالة والاستقطاب القومي والوطني في ذلك العهد التأسيسي الذي كانت فيه فكرة الوحدة القومية لا تزال معاني جنينية، من الطرق التي سلكها الأمير تجاه الجماعات والجهات المختلفة، إذ كان وازعه أن يعقد بينها الأواصر ويحدث التواصلات. وكان بذل المناصب والتقريب المعنوي والمادي من الأساليب التي اتبعها الأمير بذكاء وحصافة وأحسن استغلالها فأعطت ثمارها التي أفادت منها الدولة في بروز نخبة نجيبة من القادة الميدانيين ومن المثقفين الملتزمين تعززت بأعمالهم وتضحياتهم الوحدة والاستقرار. ولم يخل – مع ذلك – أمر تمهيد الملك من مغالبة وحصار، وهو ما رأيناه يتم في مدن مثل تلمسان والمدية وعين ماضي مثلا، إذ فتحت عنوة تقريبا.

لقد راهن الأمير على مهمة بناء الدولة القومية رهانا حاجيا ولم تكن تلك المهمة بالنسبة إليه غاية في حد ذاتها. فالدولة كانت من الحاجات التي فتحت الصدمة الاستعمارية عيون المسلمين على خطورتها، لذلك انصرف الجهد إلى سد النقص وتجاوز الشغور، لكن وضع القصور ومحدودية الوعي وهوان الهمة تحولت بالهدف الوسيط عند حكامنا اليهم وجعلته مركز الغايات، وبذلك رزحت الأمة من جديد في العضوضية، إذ الريعية سوغت للسلطان المسلم المعاصر أن يقايض حتى مثل الوطنية لقاء دوام الريع واستحكام الملك له.

فالخيانات التي لا تخفى عن كل ذي بصيرة والتي يتنافس في تصعيد مخازيها حكامنا تجردهم من الوطنية بكل المعايير، ذلك لأن حب القصر أسبق عندهم وأقدس من كل ما عداه.

## 5-الدولـــة والبعـــد البروتوكـولـي

*استنطاق أول لسيميائية الشارة والمرموزية.*

**الدولة والفرد.**

الدولة ماهية اعتبارية بالدرجة الأولى، إذ لا يمكـن أن يتجسد مفهوم الدولة في أي صيغة مادية محددة مهما كانـت قابلية هذه الصيغة مرنة ومطواعة تعبيريا وتمثيليا، ذلك لأن طبيعة الحكم هي طبيعة مجردة ونسـبية ولا تأخـذ علـى المستوى الحسي والفعلي إلا قيمة ذهنية إحالية.

إذ أن أدوات الحكم من رجال ومؤسسات ونظـم هـي مجرد شبكة تنفيذ يربط بينها الغرض التسييري العام، فهي لا تجسد الحكم فعليا إلا بكونها نظما تمارس أدوارا ووظـائف منوط بها السير العام الذي يشمل المجتمع بكـل تمفصـلاته المادية والمعنوية.

لذلك تغدو أهمية أدوات الحكم مجرد مواضعات تحيـل على الدولة ومعالم اعتبارية تنتهي إليها مهمة إدارة الأمـور باسم الدولة وتتقمص شعاراتها.

فحتى أعلى مرجعيات السلطة في الهرم – الأميـر أو الملك أو السلطان أو الرئيس- لا يمكـن أن تتمـاهى فيـه الدولة، لما لمعنى الدولة من صبغة الإطلاق واللاحسية رغم أن الآليات التي تضعها الدولة لتتحرك بها وعلى مقتضـاها هي آليات حسية وتنفيذية بدرجة راجحة، ويقوم عليها قيمون فعليون.

من هنا حرص العقل البشري وهو يكرس سيادة الدولة والسلطان على أن يربط الاعتبار المعنوي للدولة بمنظومة من الرموز والشارات تعبر عنها وتومئ إليها وتنيط بها وظيفتها وحرمتها. لذا كان الرمز من أهم الوسائط الحسية التي تأخذ بها السلطة في تكريس السلطان.

فالدولة ترتبط بالإنسان أولا، لأنها تتم به ومن أجله، لكنها تنزع في ذات الوقت نحو التعالي عليه، إذ لا يمكن أن تتماهى الدولة في الانسان الفرد باعتبار محدودية فرديته بموازاة ماهية الدولة وموضوعها الذي هو تمثّلٌ معنوي شمولي يتلبس شتى مجالات الحياة المدنية للفرد والجماعة.

من هنا نجد الدولة تعتمد الرموز في رسم حضورها، إذ الرمز يأخذ مظاهر ومدلولات جمة، تتعدد بتعدد الموضوعات والمجالات التي يفصح عنها والمقاصد التي يؤشر لها. وثقافة الدولة قبل أن تكون سلوكات وأعرافا هي قبل ذلك وبعده تواضعات سيمائية من وضع القريحة البشرية ترجيحا لمنطق الثبات على منطق التغير، منطق النظام على منطق الفوضى والتسيب.

فشخصية الملك أو الرئيس مثلا، إنما هي- على الصعيد الحسي، الواقعي - فاعل بشري بعينه يضطلع بالمهمة التسييرية العليا، لكنه من الوجهة القيمية رمز تناط به سيادة البلاد وعزتها كلية، لذا يغدو ضمير الشعب متعلقا بشخصه على نحو يجعله أقرب ما يكون من النفوس بل ومن الذوات

في حالة الإيجاب والرضى والتأييد، وقد يتحول التعلق إلى صلة نفورية ونبذية في حالة السلب والرفض والمعارضة.

فكم توخى المعارضون القضاء على الدول والأنظمة باستهداف روساء وملوك وزعماء تلك الدول. وما ذلك إلا لأن العقل البشري ظل يماهي بين الرمز والمرموز له رغم تباين الهويتين على الحقيقة في غالب الأحيان.

إذ من خلال تلك العلاقة التمثيلية الاسقاطية بين المجموعة ورئيسها يضحى التواصل بين الطرفين رمزيا، فالرئيس يجسد أمام الضمير الوطني ماهية الأفراد والمجموعة القومية في كليتها.

من هنا كانت وفاة رئيس الدولة مثلا حادثة شعورية قومية، لا تمر مرورا عابرا في حياة الشعوب وإنما تعاش على نحو جمعي لما للموضوع من صلة عاطفية بكل فرد، وما ذلك إلا لأن من تسند إليه مهمة القيادة السامية إنما يتحول في خلد الجماهير إلى رمز، ويكتسب خصائص أشمل وأكثر إطلاقية من حقيقته الفردية. إذ أن هناك عملية تَمَاهٍ يغدو بمقتضاها الفرد - الرئيس- يتلبس أبعادا عليا أو كلية تحيل إلى مرجعية معنوية أشمل هي في الآن ذاته المجموعة القومية من جهة وهي من جهة ثانية الدولة ذاتها.

وإذا تحولنا إلى صعيد أضيق، فسنجد نفس العلاقة تأخذها صلة الجمهور مثلا بفريقه الرياضي المحلي أو الوطني. إذ ضمير الجماعة يصطنع هذه الرابطة الرمزية

بحيث يغدو كل فرد في الجماعة يجد رابطة تماه وتجانس في ممثله مما يضفي عليه قيمة الرمز.

ذلك مستوى آخر من عملية التطابق التي تأخذها أحوال البشر على الصعيد الاعتباري، إذ تضحى المجموعة الصغرى تشخيصا عاما وتجسيدا كليا للمجموعة الكبرى، وهو ما يجعل الجيوش مثلا في أزمنة الحرب تتحول إلى فرد بطل تنعكس أوضاع مقاومته وما يتحقق له من انتصارات وانكسارات على روحية الأمة بمجموعها.

فلا غرابة أن يتحايل الانسان على مشاعره الكلية فيسقطها على ما أسماه الجندي المجهول، وما ذلك إلا تعبيرا عن رغبة العرفان الشمولية التي يريد أن يظهرها لكل من وهب نفسه فداء للأمة.

ويتخذ الرمز مظاهر وصورا عدة، فقد يكون علامة معنوية مثل الراية الخفاقة التي تنصبها الدولة عنوانا على السيادة، وقد يكون قوة مادية هي قوة الجند المسخر في فرض النظام والتقيد بتعاليم الدولة، وقد يكون دستورا ينص على ضوابط الإدارة والتسيير.

أصناف عدة ومستويات كثيرة تتميز بالصبغة الرمزية تتخذها مراتب الدولة تدليلا على نفسها وترسيخا لوجودها وسلطتها.

فبحكم الطبيعة اللا إشارية أو اللا تعيينية لمعنى الدولة يقوم الاطلاق والتوسع في تمثل سلطتها وتصور مجال نفوذها.

إذ ما معنى الحفاظ على النظام العام ؟ بل وفي ما تتحدد ماهية النظام ؟ أيتحدد بحدود الشارع والطريق فقط أم يشمل حرمة البيوت؟ أسائر الناس معنية به أم أن من كان في جانب الدولة غير معني به إلا من حيث السهر على محاسبة الغير وليس الذات ؟ فإشكالات المرموزية كثيرة، ويظل مفهوم الدولة في صدارة تلك الاشكالات.

من هنا كانت صلة الناس بالدولة صلة نفسية معززة بالاعتبار الحسي الذي يتم من خلاله ضبط الحياة وتنظيم سيرها، فلا غرو أن ترتفع الاعتبارات الخاصة ذاتها، المرتبطة بالدولة إلى مقام الرمزية، إذ الشرطي مثلا، ليس في الحس العام شخصا عاديا كشخص التاجر أو الجار أو.. بل إنه ماهية حسية اعتبارية متلبسة على نحو أو آخر بالدولة ومعنية بدرجة مباشرة بالسهر على إجراء القانون بين الناس، لذا كان حضور الدولة في الحالات النظامية والمدنية السوية يتجاوز الاعتبار التشخيصي الحي، إذ تغدو الدولة وعيا معنويا وانضباطيا أكثر منها رقابة حسية ونفاذا مجسدا.

فحتى الفرد البدوي الذي يعيش منقطعا في أقصى الفيافي يستشعر حضورها معه، مهما نأى به المدى وطال انفصاله عن المجتمع، وما ذلك إلا لأن آليات الدولة على تنوع وإطلاقية مظاهرها الحسية قد استحالت في الضمير

الفردي والجماهيري إلى معنى مجرد، كلي، يتجاوز الشكل والملموسية المؤسساتية.

ولا عجب إذا ما قرنت العقائد بين الدولة وبين الله، وجعلت طاعة الدولة من طاعة الله. إذ أن الاحساس بنفاذها احساس منوط بالأخلاق وبالضمير، فهو يتجانس من ثمة مع قابلية الانسان للايمان بالله رغم عدم تمثله الألوهية على نحو حدي واضح.

وغير خاف ما تتعرض له رمزية الدولة -حسيا ومعنويا- من تدنيس وامتهان بل ومقت، عندما تتلبس المؤسسات والهياكل المجسدة للدولة بوصمة الزيف، فعندئذ تزول حرمتها من النفوس ويغدو سلوك رفض السلطة وهتك القانون صراحة، واحتقار رجال الدولة من الشهامة والرجولة، بل ومن المروءة أيضا. وكل ذلك تعيشه المجتمعات والشعوب في ظل النظم الفاسدة. فالانسان أبدا يعزف عن مظاهر الندية ويستشعر بتهديدها له، والدولة الفاسدة حال مجسدة في ضمير المسلم للشرك ولتعدد الآلهة، فهي لذلك لا تحظى بالقبول، ولا تهوى إليها القلوب إلا لنيل الدنيوي وإشباع الهوى وتعاطي أنواع الحيف والجور.

لقد شارفت علاقة الفقهاء وأهل المكانة الدينية في التاريخ الاسلامي سقف الخيال بما كانوا يبدونه من رفض للخدمة والتولية، بل وبما كانوا يعربون عنه من حداد متى ما أجبروا عن الانخراط في السلك.

**العدة الترميزية في دولة الأمير.**

وإذا ما حاولنا التعرف قليلا على الجانب الاعتباري الترميزي الذي اصطنعته دولة الأمير عبد القادر وهي تسعى لتثبيت قواعدها على الأرض وفي وجدان الأهالي، وجب علينا أن نقف عند أهم الشارات الرمزية التي نحسب أن الأمير قد سعى من خلالها إلى أن يعبر عن رسالة حكمه وسياسة دولته بصورة سافرة وحية، ولعل في مقدمة تلك الشارات، الراية.

**سيميائية[30] راية الأمير.**

مما جرت عليه الأعراف الحضارية أن الراية – بما هي شارة القوة والسيادة والتمكين – تلازم مسيرة الملوك وتخفق فوق صفوف الجند في سلمهم وحربهم، فهي مظهر العزة وعلامة الرسوخ.

من هنا وجدنا أشكال الراية تتنوع سعة وألوانا ورسوما بتعدد الممالك وبتنوع الجيوش واختلاف قطاعاتها ومأمورياتها. فتلك الرايات هي في الحقيقة شارات تعريف قومية أو قطاعية تصطنعها الدول والقطاعات دلالة على خصوصيتها ضمن الهيئة الحضارية والدولية وفي إطار سلك الجندية.

---

[30] نلاحظ أن الشعب الأمريكي قد اعتصم بالراية والانجيل حين واقعة نيويورك في 11 سبتمبر 2001، وراح يستنهض بهما همة التماسك والثبات. والوضع عندنا على العكس تماما، إذ أن الراية الوطنية والنشيد القومي والمصحف باتت من المقومات التي فقدت قدسيتها في أوساط من المجتمع، لا سيما الأوساط المتعددة..

وقد تطورت الشارة المعاصرة في هذا المجال فوجدناها تأخذ تعددا تصنيفيا يشمل الفرق المدنية، بل ويسم المدن والمؤسسات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية خاصة وعمومية بسمات تحدد طبيعتها وتعرف بهويتها .

وما يهمنا في هذا المقام هو الحديث عن راية الدولة في عهد الأمير.

كانت راية الأمير عبد القادر خضراء اللون، فقد كان عرضها يشمل ثلاثة مطارح، مطرحان أخضران في الطرفين، ومطرح أبيض بينهما، تتوسطه كف سوداء أحيطت بها عبارة مؤداها: نصر من الله وفتح قريب. الناصر لدين الله عبد القادر بن محي الدين.

لا جرم أن اللونين الأخضر والأبيض هما من أقرب الألوان إلى الوجدان الجمعي الاسلامي لارتباطهما بروحية الأمة وبما يستقر في ضميرها من دلالة وتصور لعالم القداسة والغيب. لقد أضفى القرآن العظيم ونصوص الحديث الشريف صورة الخضرة وجعل الجنة أغلى ما يتطلع إليه الوازع الوجودي المسلم، الأمر الذي حول الفردوس في الحس الميثولوجي الاسلامي إلى عالم من النضارة والخصب والاخضرار.

والأمر نفسه يقال عن اللون الأبيض، فالبياض عند المسلم هو عنوان النظافة والطهر والكمال الانساني. فلاعجب أن يكون بياض الوجه واسوداده إحالة قرآنية تعكس وضع المفارقة التي يكون عليها الفرد تبعا لما سينال من

حظوظ السعادة والشقاء في يوم الدين. يوم تبيض وجوه وتسود وجوه.

فاللون الأبيض مظهر التجليات المادية والمعنوية السعيدة المعبرة عن الوجدان الاسلامي، فلا بدع أن يتخذ البياض سمة تشهد على طهارة وطيبة وسمو فطرة الجماهير.

كما أن الشارة السوداء تندرج ضمن الخلفية العاطفية والوجدانية الاسلامية، فكون راية الأمير اعتمدت هذا اللون، إنما شاءت – دون شك- أن تجد لنفسها موقعا في تربة التراث، فالرسول سوَّد رايته والخلفاء المسلمون في عصر الدولة العباسية سودوا أعلامهم، وكثرة من الإمارات المغربية والأندلسية كانت راياتها سودا، والشعر العربي قد كرس صورة الراية السوداء في اتجاه يوحي بالبأس والنجدة والحداد أيضا.

من هنا لا غرابة أن يتخذ الأمير اللون الأسود لرايته التي تظلل برمزيتها مرافق الدولة وتخوض البلاد في كنفها جهادها الحاسم.

لقد كان هذا الشعار يعبر هو أيضا عن مقاصد راهنة لا تنفصل عما يلابس الوجدان والعقلية الجماعية من ثقافة مشربة بالرموز.

فمما لا ريب فيه أن رمز اليد يتحمل تفسيرات عديدة، إذ لليَد دلالتها في الوجدان الديني ولها دلالتها في الحس الثقافي

الشعبي زيادة على مدلولها الكمالي والجمالي في واقع الانسان وحياته العملية.

فاليد في القرآن هي الذات العليا نفسها وهي القدرة الإلهية التي لا تطالها قوة: يد الله فوق أيديهم، وهي من ناحية أخرى جارحة العمل والمصافحة والتعاقد والمبايعة، كما أن شعار اليد بجماع أصابعها يفيد لحمة الجماعية والوحدة والترابط.

أما على صعيد الاعتقادات الشعبية والأعراف الرمزية فإن اليد هي (الخامسة)، والخامسة هي حرز مادي يفيد معنى الاستعاذة ودفع الشر، ولها أيضا دلالة الرقة واللين والمسالمة، فاليد العزلاء المفتوحة إنما هي رمز للقلب المفتوح والصدر المنشرح الطافح بالمحبة.

من هنا لا بدع أن يتخذ الأمير شعار رايته بهذه الخصائص السيميائية ذات الجذور الجلية في التراث وفي المعين الروحي القدسي.

ومن المؤكد أن الاختيار ذا الصبغة الرمزية الجماعية يتم أحيانا بواسطة الصدفة والتلقائية، لكن تلك الصدفة والتلقائية لا تنفك في واقع الأمر عن الوجدان الجمعي وعن العواطف والمواجد القومية. إذ أن ذوق الأفراد ومنازعهم الاعرابية تعكس على نحو أو آخر بيئتهم وثقافتهم المشتركة وضميرهم الجمعي.

من هنا لا نستبعد أن تكون هيئة الراية الوطنية كما اعتمدت في عصر الأمير إنما انساقت وراء دواع ودوافع جماعية عامة. ولنعتبر في هذا المجال بما آل إليه رسم الراية الجزائرية بعد عصر الأمير، وإلى ما أن انتهت إليه على حالها الراهنة.

فقد كانت مواجد الجماعة وهي تناهض الاحتلال تفاعل مادة الشعور الجمعي من خلال التحوير المرحلي لمنظومة الرموز، وكل ذلك يعكس ديناميـة حية استطاعت بها المجموعة الوطنية أن تبلور نظاما سيميائيا وطنيا ونضاليا بفضل التكييف الملائم لإيحاءاته والابراز المستمر لدلالاته المعبرة عن صفاء وبسالة الشعب الجزائري، الأمر الذي جعل ألوان الراية الوطنية مثلا تستقر على هذه اللونية النظيفة والصارخة: الأبيض المحيل على فطرة سليمة، والأخضر الموعز بفردوسية الوطن وإسلاميته، والأحمر المتشكل برسم السماء والمعبر عن الإعلاء لأرواح من صنعوا الحرية بدمائهم.

إن المراحل التي تدرجت فيها سيميائة المرموزية الوطنية تعكس من جهة أخرى المسيرة الشاقة التي قطعتها الأمة وصولا إلى محطة النضوج.

بل لقد لازمت الحركية هذا الإرث الرمزي إلى ما بعد الاستقلال، وإلا كيف نفسر الدعوة إلى تحوير نص النشيد الوطني وما شاكل ذلك من المطالب التي قد يبررها واقع

جدة الثقافة البروتوكولية والقيم الوطنية والمدنية عندنا[31]، زيادة عن مقتضيات النضوج السياسي والاستواء المدني الملح.

**الزي العسكري الأميري:**

الزي العسكري علامة مؤسساتية حيوية منوط بها الإعراب عن القوة وتجسيد شأن الدولة الوطنية. فالأزياء العسكرية إنما هي وجه- وإن اتصل بأبَّهة راسخة تحرص المؤسسات العسكرية دائما على الظهور به - إلا أن قسمات هذه الوجه تحمل دلائل تعكس شيئا من وجدان الأمة ومن فلسفتها ومن ذوقها، بل ومن بيئتها.

فلون اللباس النظامي والعسكري لأمة موطنها الصحراء ظلت تحدده إلى وقت ليس بالبعيد الطبيعة الأرضية أولا، وتحدده أيضا الذائقة الجماعية والحضارية لتلك الأمة أو الشعب. ولم تنطمس الطبوع والأزياء القومية إلا حين تنمطت هيئة الأسلاك العسكرية ضمن المقاس التفصيلي الغربي، وفي ذلك تبعية تسعى الدول إلى التخفيف منها من خلال الاستبقاء على الشارة القومية في وحدات تشريفاتية خاصة، كوحدات الحرس الجمهوري عندنا مثلا، وما يعكسه الكلاح والبرنس ولون البزة من إشارات ومعان.

---

31 -سنعود بالحديث عن هذه القضايا المرتبطة بالهوية والشخصية الوطنية في بحث آخر قد باشرناه .

ونفس الشيء يقال عن لون الزي الخاص بأمة تطغى على موطنها الخضرة والنماء النباتي، كما هو شأن دول الشمال التي يغلب على ألوان أزياء عسكريتها الرواء والخضرة الغابية انسجاما مع البيئة الطبيعية الفاشية هناك.

ولذا لابد أن نقرأ في الألوان التي اختارتها دولة الأمير زيا لعسكريتها، إيحاء ودلالة لها صلة بالمنحى الوجداني العام للأمة.

لقد كان الزي العسكري الأميري على أصناف ثلاثة على الأقل، وذلك بحسب وحدات الاركان، لكن الخاصية اللونية التي وجدنا تلك الأصناف العسكرية تشترك فيها هي خاصية الحمرة والسواد. (اللباس العسكري البونابارتي كانت تطغي عليه الجمرة).

فقد كانت الأصناف الثلاثة لعسكرية الأمير تتزيى كلها تقريبا باللونين الأحمر والأسود (زيادة عن الأزرق لون الماء والسماء). إن هذين اللونين، زيادة على ما ترسخ لهما في الوجدان الذوقي العربي والاسلامي من إيحاء، قد حظيا بتعبيرية حسية متوارثة، إذ جمال المرأة - باعتبارها مجلى الكمال البشري- منوط عند العرب بسواد شعرها وعينيها، وبحمرة الخد واللسان والأنامل وأطراف القدم وما إلى ذلك من الصفات التي يتأصل بها جمال المرأة ويتقوى سحرها.

وسنجد التقليد الذوقي العربي الاسلامي يجعل من الحصان الأسود جواد العزة والجاه والتفاؤل والسلطان.

وزيادة على هذا فإن اللونين الأسود والأحمر قد كانا في وجدان الأمة يرمزان دائما إلى الحمية والنصر، فقد تواترت في الشعر صورة الرايات التي ترد الوغى سودا وتصدر عنه حمرا. فلا غرابة أن تتحول هذه المعاني إلى مجال الترميز وتتجلى على نحو حسي مظهري من خلال اختيار الزي العسكري لجندية الأمير، لا سيما وأن الأمير كان بصدد تأسيس عسكريته الوطنية ابتداعا، وكان حتما للرصيد الوجداني أن يتجسد على نحو أو آخر في ذلك الانجاز الحاسم، إن في الشكل أو في اللون.

من هنا يتبين لنا أن سمات الزي والشارة القومية والوطنية التي اتخذها الأمير لتحديد شارة عدته وشعار دولته والتي أسبغها على مؤسساته رمزا للسيادة، إنما ارتبطت بخلفية أدبية ومعنوية موصولة بسيكولوجية الأهالي وبتراثهم وبذائقتهم الجمعية وحضارتهم.

فالعلامات التي وسم بها الأمير مرافق الدولة وأدوات السلطة، إنما كانت علامات معبرة وكانت رسالتها الترميزية واضحة، إذ كانت مقاصدها تتركز على غاية سامية هي بناء الدولة ولحم الوحدة القومية.

لقد كانت فاعلية الرمز يومئذ تحقق غرضا بنائيا مؤكدا، لذا كان البعد الاعتباري جليا في دلالتها، بحيث حرصت على أن تؤدي وظيفة تبليغية وإقناعية وتحميسية لدى الأهلي، إذ أن الحس القومي والمدني (الوطني) لأولئك الأهالي كان يحتاج فعلا إلى الشحذ، بسبب افتقاده الطويل للثقافة المدنية

القومية الجامعة والمعبئة للمشاعر بمرصود يبعث أريحيتها الوطنية ويتجاوز بها وضع الانغلاق القبلي أو المحلي الجامد.

لقد كان حرص الأمير على تزجيج هذا البعد المعنوي التحسيسي لدى الناس واضحا، بحيث رأيناه يشفع الرسم بالخط في صورة الشارات وأشكالها.

لقد صنع هذا في علامات رتب الجند مثلا وصنعه في العملة وفي الأوسمة وفي مظاهر البروتوكول الأخرى.

فقد وجدنا الرتب - وقد اتخذها الأمير من الذهب والفضة، وكانت ترفع على الكتفين وعلى جانب مقدمة الرأس - تحمل عبارة أشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله في جهة، وفي الجهة الأخرى عبارة : الصبر مفتاح الفرج.

لقد كانت مثل تلك العبارات ذات المقصد التربوي والتحميسي تتعدد في شارات الجند ولباسهم، إذ أنها كانت تتمم ما كانت الشعارات الرمزية العامة توعز به.

وحيث أن الأمير كان - كما أسلفنا- بصدد تأسيس بروتوكول دولة ناشئة، كان محتما عليه أن يستثمر كافة الوسائط، بما فيها سيمائية اللون والزي وشارة الاعتبار الرتبي وغيرها من أجل أن يستكمل حاجة الترشيد المدني التي كانت تقتضيها مهمة التأسيس وواجب ترسيخ ثقافة

الدولة وغرس روح النظام بين الأهالي وضمن سلك رجال الدولة ذاتهم.

من هنا فلا بدع إذا قلنا إن شارات الرتب العسكرية كانت تحمل بعدين وتتوخى مقصدين: بعد رمزي إشاري وتشخيصي تعرف به الدولة وتثبت حضورها، وبعد تعليمي تنظيمي مدني في الآن ذاته.

ونفس المقصد التنظيمي والتعليمي المدني نجد وظيفة البروتوكول تنشده.

فالتشريفات السلطانية وترتيبات المرافق والأداءات كانت أيضا واجهة رمزية تتوطد من خلالها ثقافة الدولة وبيداغوجية النظام، تلك البيداغوجية التي كان يرجى منها إذا ما تكرست أن تهذب من سخائم الأنفة والنعرة من النفوس، وتكسبها بدل ذلك مرونة الانقياد والتوافق والمطاوعة، وهي خصال تتأسس في جوهرها على الحس المدني الذي كانت البيئة الأهلية التي عاشت بعيدة عن الدولة بل وفي عداء مستمر معها، في حاجة إليه.

لذا حرص الأمير على أن تكون للعسكرية - وهي المؤسسة الأم التي تم بناؤها بإشرافه الشخصي - بروتوكولها الخاص، وبذلك النحو كانت منزلة الدولة تتأكد على صورة نشوئية، وكان الشأن المدني يتعزز ولو بكثير من العناء، وبذلك أيضا كانت تتوسع بالتدريج مساحة الثقافة التمدينية

القائمة على الانضباط والتقيد بالتعليمات وروح الانصياع للنظام بصورة طوعية[32].

وفي ما يخص طقس التشريفات الأميرية بالذات، فقد رأينا الأمير يرعاه بصورة مؤكدة، فما أن تحول إلى السدة حتى أخذ بالمراسيم كاملة وعلى نحو بارز، إذ أن مقاصد البناء وفرض النظام على ذلك النطاق الإشهاري الذي كانت البروتوكولية تؤديه بين الناس، إنما كان أمرا على غاية من النجاعة، إذ لا ننس أن الذهنية كانت في عمومها بدوية أو قريبة من البدوية، فكان تفعيلها عن طريق الرمز من أجدى الأساليب التي يتلقن بها الأهالي أبجدية النظام ويفقهون معنى الدولة ويستوعبون أهمية رعاية القانون الشرعي.

فقد اتخذ الأمير له حرسا عسكريا مستصفى، روعيت في اختياره صفات القوة الروحية والاستقامة الخلقية والفتوة الجسدية، كما اتخذ لخدمته مجموعة من العبيد الأشداء كانوا يقومون على شؤونه الخاصة ويلازمونه في حله وترحاله متكفلين بحراسته.

إن هذه الهيكلة المباشرة التي أوكلت إليها مهمة الحراسة والخدمة السلطانية كانت نواة لمؤسسة الديوان الأميري الذي كان يمثل ذروة الهرم المؤسساتي في الدولة،

---

32. أكثر من واحد من أبناء الشهداء الذين سالتهم أكدوا تضييعهم لأوسمة آبائهم بسبب زهدهم فيها. ويستنتج من ذلك رخس الدولة التي منحت تلك القرادر بلغة بومدين رحمه الله.

وكان لدينامية هذه المؤسسة الأميرية نشاط بروتوكولي مهم، إذ كانت صرامة النظام والخضوع الرتبي ومراعاة خصائص الخدمة مثل اللباقة والأداء العالي وضبط النفس والتجرد في الحضور والغيبة، تنتهي إلى باقي هياكل الدولـــة والمجتمـــع انطلاقا من هناك، أي من ديوان الأمير.

فالتواصل مع الأمير لم يعد يتم بالتلقائية التي كان عليها قبل أن يتولى المهمة العليا، إذ أن تســيير شــؤون الدولــة يقتضي أول ما يقتضي ضبط الوقت وجدولة الأعمال وتحديد مواقيت المهام والاستقبال، وكل ذلك يحتم قيــام بروتوكــول ديواني يضبط سير العمل حتى لا تتداخل المهام والمواعيــد وتتعطل الأحكام والمأموريات.

ومن المؤكد أن الأمير الشاب ظل وفيا لطبيعته الجماعية الاجتماعية لا يعزله عن الجمهور والرعيــة إلا مــا كانــت شؤون الدولة ذاتها تقتضي منه أن يتفرغ له.

وإنه لمن الطبيعي أن تعمل الدولة -لا سيما خلال تلــك المرحلة التي تهادن فيها الأمير مع العدو المحتل- على إشاعة ذلك النظام التسييري في سائر الإدارات والقطاعات الأهليــة سواء منها العسكرية أو الشرعية أو المدنية، تعميقا لطبيعــة التحول من أوضاع المجتمع القبلي المغلقة إلى حال المجتمع المدني المتفتح والمتشابك العلائق.

فالمسؤولية الإدارية مسؤولية مدنية بالضرورة، إذ لــم يعد تعامل المسؤول يقتصر على القريب وابن العم أو ابــن

العشيرة، بل لقد غدا تعامله يشمل المجتمع، وذاك ما بات يعطي صبغة جسيمة للمهمة ويحتم على المسؤول أن يدير مأمورياته بنظام مدني بعيد كل البعد عن مغامز العقلية القديمة.

ومما لا شك فيه أن روح الاسلام المتناغمة مع هذا المستوى اللاجهوي أو اللا قبلي، كانت تساهم بصورة ملموسة في تطويع النفوس وربطها بالمنحى المدني المتفتح على الأخوة والتضامن.

إن البروتوكلية المثمرة هي تلك القواعد المسطرة التي تعتمدها الدوائر المسيرة من أجل تأدية مهام إدارية واجتماعية، مدنية أو عسكرية وفق عرف معلن ومرعي، وهو ما يجعل من مسطرة البروتوكول نفسها واجهة لبث الثقافة المدنية التي تعزز لدى المجتمع روح الانضباط والنجاعة والفاعلية.

والأمير حين أضحى يتحرك على مقتضى تشريفات محددة، يركب بها وينزل، يحل ويرحل، إنما كان يقوم بمهمة تمدينية على وفق ما كان يقتضيه منه منصبه كقائد يسهر على ترشيد المجتمع بوضع النموذج السلوكي أمامه وتنفيذه والالتزام به.

لقد كان الأمير يرتقي بالأعراف الاجتماعية إلى صعيد الجماعات والمحليات التي كانت أعرافها تنتمي إلى تاريخ

باتت تتنازعه وتتحرش به طوارئ حضارية وبقائية لا هوادة فيها.
من هنا كان محتما على الدولة أن تجد الكيفيات الأكثر قبولا لزرع القيم السلوكية الجديدة والتخلي عما يناهضها في مدونة القيم القديمة.

لذا رأينا الأمير يراعي ما أمكنته المراعاة تهذيب القيم البدوية وترقية البعد البنائي فيها واعتمادها هي قبل غيرها حتى لا تقابل بالنفور، وحتى لا تلقى العملية الثقافية المنفذة ما يعيقها من معارضة ورفض من قبل الأهالي.

لذا كانت مدونة الشريعة هي المعين الأول والأساسي لاستلهام الأخلاقيات السلوكية المستزرعة. إذ الأرضية النفسية التي تستقبل تلك القيم إنما كانت نفسية الأهالي أنفسهم، وهي نفسية ارتبطت منذ القرون بالاسلام، لذا كان محتما أن ترسي الدولة برنامجها الأخلاقي والبروتوكولي على قيم الاسلام وأن تعززه بما علا من أعراف الدول المعاصرة أو الماضية.

لقد رأينا مثلا نوبات الموسيقى تضرب لخروج الأمير ورجوعه في أوقات السلم، ورأينا ذلك التقليد التشريفي ينوع في لحونه بتنوع المناسبات والمواقف، وكل ذلك كان حرصا من رجال السلطة وفي مقدمتهم الأمير على أن يفشوا النظام وأن يشيعوا مراسيم الدولة وثقافة النظام بين الأهالي بواسطة كل السبل لا سيما سبيل التقاليد المشهرة والمعلنة بين الفئات والأوساط.

فبناء المجتمع المتمدن كان يقتضي مثل ذلك الاصطناع الواسع للوسائط الرمزية المكرسة لحرمة الحكم والدولة والسلطان.

لقد كانت القيادة الوطنية تعمل بكل طاقتها على استيعاب الأهالي وتسييج حظيرة الوطن في وجه أعمال التفكيك التي كان العدو الرابض على الثغور يقوم بها بدون كلل، تشويشا على الجهد الوطني واستمالة للأهالي ومخادعتهم، إسقاطا لمشروع إقامة الدولة الوطنية التي كان الأمير منخرطا في بناء ورشاتها.

إذ لا ينبغي لنا أن نتجاهل الجهود المستميتة التي بذلتها فرنسا في مجال إقامة دولة صورية، عميلة لها، تتحكم بواسطتها في الأهالي، وتملأ بها الفراغ المخيف الذي أعقب سقوط الإيالة التركية.

لقد كانت ظروف المحتلين تقتضي منهم أن يكسبوا وقتا يتمكنون فيه من تثبيت أقدامهم على الأرض وضبط خطة العمل التي تجعل من سيطرتهم على البلاد أمرا لا رجوع فيه، لكن حال الفوضى واضطراب الأوضاع الذي سببه نزولهم على الأرض الجزائرية جعلهم يتخوفون من مغبة المصير، إذ تهيأ لهم أن تلك الفتن والاحتدامات الأهلية التي لا ضابط لها قد تنقلب بصورة عارمة ضدهم، وأن الجموع المسالمة من القبائل والثغور التي جنحت إليهم سوف لن تلبث أن تنتظمها حركة الجهاد الشاملة، الأمر الذي سيهدد

وجودهم في البلاد، لذا رأيناهم يسعون بحرص كبير إلى أن يفرضوا على البلاد سلطة توهموا أن الأوضاع الفائرة ستسكن لها.

بل لقد رأيناهم في هذا الصدد يذهبون في الكيد بعيدا، إذ وجدناهم يلجأون إلى الحكومة التونسية يطلبون إليها أن تمدهم بأحد أفراد العائلة المالكة لكي يعينوه على رأس حكومة أهلية بوهران[33].

وقد حدث أن استجابت الحكومة التونسية للمطلب الاستعماري، وسار الحاكم التونسي المعين نحو الجزائر واستقر في وهران، حيث شرع من هناك ينفذ التعليمات الفرنسية بخداع تآمري سافل، إذ راح يبث بين الأهالي أفكار التهدئة وتلطيف الأجواء، مدعيا أن الوجود الفرنسي لن يستمر طويلا على البلاد، وأن المصير بيد المسلمين، وأن البلاد لن تلبث أن تعود إلى سابق حالها في الحرية والسيادة.

غير أن ذلك لم يكن لِيُغَيِّبَ عن أولي البصيرة ما يدسه الاستعماريون، لذا سارع الأهالي إلى مناددة الحاكم المجلوب والدعوة إلى التحرش به وبمن كانوا يحمونه من أسياده.

ومما لا شك فيه أن استجلاب حاكم تونسي إلى وهران بالذات إنما كان تدبيرا بحساب، ولم يكن إجراء عفويا.

---

[33] تذكر المصادر أن الحاكم التونسي الذي جاء إلى وهران في اطار تلك الخطة هو خير الدين التونسي . راجع بعض ما كتب د. يحيى بوعزيز في الموضوع

إذ لم يكن ليفوت المستعمرين ما كان يقوم بين الأهالي وبين السلطان المغربي من علاقة التلاحم والأخوة، لذا رأيناهم يعينون الحاكم التونسي المستجلب في إقليم وهران تحديدا وليس في إقليم آخر، وما ذلك إلا لأن العدو كان يريد بكل جهد أن يسد باب التعاون الجهادي بين الأهالي وبين السلطان المغربي، لذا حرص على أن ينصب ممثله وبيدقه التونسي في وهران المتحادة جغرافيا مع المغرب، وبذلك تمكنت فعلا القوة المستعمرة من أن تؤخر انفجار حركة الجهاد أو تحد منها على الأصح في تلك الجهة الغربية.

ذلك لأنه وعلى الرغم من أن تلك المحاولة التأميرية الاستعمارية لم تعط ثمارها إلا أنها حققت هامشا من السكينة المؤقتة، إذ همدت الخواطر فعلا - ولو لحين - بحيث تطلع الناس إلى الحاكم الجديد، وربما استمالتهم قليلا شعاراته الأخوية والاسلامية، وربما أوجدت تلك الشعارات الخادعة حتى من يتعامل معها ويتفتح عليها لا سيما بين أهالي الحواضر حيث كانت ترتفع نسبة الكلاغلة بين السكان كما هو حال مدن مستغانم وتلمسان ووهران وغيرها.

وقد ترتب عن ذلك ازدياد أطماع العدو في كسب الرهان ما دام يجد من يلوح ناحيته من الأهالي بالمسالمة، لذا سوف نراه يعمد بعد حين قصير من ذلك إلى إعاقة مشروع الوحدة مع المغرب، إذ سرعان ما بادر إلى التحرك على أصعدة أخرى عديدة من أجل إبطال الموثق الاتحادي الذي عقده الأهالي مع السلطان المغربي.

## 6-الحربيـــــة .

شاء القدر أن يتحول بمصير الشاب عبد القادر تحـولا جذريا لم يكن متوقعا.

فقد عاش عبد القادر في بيئته بمطامح لم تكن تعدو نطاق الزاوية والمحيط الأهلي المتصل بها.

فالأسرة كانت تهيئ الفتى لأن يكون شخصـية مدنيـة ينحصر نشاطها ضمن دائرة الزاوية وبث التعاليم القرآنيـة بين فيئات ذلك المحيط الأهلي الذي كان يــرتبط بالزاويـة روحيا وثقافيا واجتماعيا لكن القدر أراد له مصيرا غير ذلك المصير، إذ ربط مستقبله بمستقبل البلاد ذاتها، الأمر الــذي جعل سيرة الأمير تتطابق مع حياة الوطن فــي منعطفاتهـا وأطوارها.

لقد اختار له القدر أن يضحى رجل حرب وقائد دولــة ووجها إنسانيا كونيا ذائع الصيت، بما عانى من ابتلاءات في سبيل الوطن وتخليصه من نير الاحتلال.

لقد ناجز المستعمرين وثبت أمامهم وعــاركهم سياسـة وحربا، ولكن المطاولة قهرته، فاستأسر حين عدم النصــير، وعاش النفي عن الوطن ومكابدة المخازي التي سلطها عليه المعتدون قبل أن يُرفع الحجر عنه ويُبعد عن الوطن، ليعيش الاعتصام الروحي في المهجر، وكانت حاله في كل ذلك هي حال الجزائر.

ألم تَهُــبَّ الجزائر للمنافحة عــن الكرامــة والشــرف ببسالة ؟ ألم تستخز بانخذال أبنائها عنها حين تخــاذلوا عــن عبد القادر ؟ ألم تعش الإقصاء عن هويتها ؟ ألم تجد في حبل الإيمان والاعتصام بالله ملاذها الوحيد الذي هيأها لأن تأخذ بثأرها وتحقق خلاصها ؟

لقد كان على هذا الفتى أن يشق طريقه من الحد إلــى الحد على جسور من نار وتشرد وخــذلان ونفــي وتغــرب وانطواء.

لقد ساح عبد القادر في فتوته واخترق حــدود الــوطن وجاب بلادا كانت الحياة العامة فيها تعرف شيئا من الحركة والحيوية المدنية بفعل بوادر تململ نهضوي كانــت تعيشــه بعض تلك البلاد.

لقد شاهد مصر -محمد علي- وهي تتهيــأ لأن تــربط أول خيوط التواصل مع العالم الغربي، ورأى ولايات الدولة العثمانية في الشام والعراق تنتهي إليها أصداء مما كان الباب العالي يعيشه من مخاضات اليقظة الشاقة نتيجــة الاحتكــاك العنيف بالغرب وبشعاراته المدنية المزلزلة.

كما رأى أحوالا للمسلمين في بلاد أخرى وهي تعــاني الانكسار وتقبع في أكِــنَّــتِها تنتظر أزوف الساعة، لا يكاد يختلف حالها عما كان عليه حال الوطن الجزائري في العهد التركي إلا باليسير.

ومن المؤكد أن كثيرا من تلك البلاد التي جابها الشـــاب عبد القادر كانت رغم أوضاعها الاجتماعية والسياســية مـا تزال تعبق بأرج الماضي وبما علق في المواجـد والآثــار المحسوسة من أصداء المجد والعتاقة والامتداد.

وكانت مشاهداته - هو الذي كان تستوقفه المــزارات والمشاهد الروحية، وتشده المكتبات ودور العلم، وتسـتقطبه مجامع الذكر ومنتديات أهل الشأن - تغذي في روحه تلـك القابليات المدنية التي ظلت تنشئته المستمرة على يـد والـده تقويها فيه، إذ كان المطمح الأبوي يترسم لــه دورا روحيـا واجتماعيا على رأس الزاوية تسترسل به الوظيفة الخيريـة والانسانية التي كانت الزاوية والأسرة تنهضـان بهـا بـين الأهالي.

لكن سير الأحداث التي انعطفت بالوطن، انعطفت بحياة الشاب أيضا وغيرت مجراها رأسا على عقب، إذ تحولت به إلى صعيد الحرب والسياسة، وألقت به في قلب الأحداث التي قدر للوطن الجزائري أن يصنعها بكل دموية وعنف وفجائع قبل أي قطر إسلامي آخر.

من هنا تتبدى لنا ريادية الأمير عبد القادر، ومن خلاله ريادة الوطن الجزائري في تدشين فجائعية التاريخ العربـي والاسلامي الحديث.

إذ كان الأمير أول قائد مسلم (و الجزائـر أول قطـر مسلم ) في العصر الحديث يتواجه مع الغرب علـى الحلبـة

ويتعامل معه بلغتي الحرب والسلم على السواء، ويرفع عاليا راية الشرف الجهادية، منطلقا من ظروف عــزلاء تمامــا، ليصاول الكبرياء الأوروبي المستفحل، وليكــون أول أميــر مسلم يواجه دار الحرب ويتصدى للقوى الغربيــة الحالمــة بامتلاك أقطار الأرض وخزائن الكون، تلك القوى التي كان نابوليون يمثل رمز طليعتها الفاتحة، إذ شاء أن يمضي هــو أيضا على خطا سلفه الكسندر الأكبر، يفتح الأمصار ويستعبد الأقوام.

لم يكن الأمير عبد القادر يومئذ فــي مســتوى الخليفــة العثماني مثلا من حيث مستوى عراقة الملك والإمكانات التي يتوفر عليها هذا الأخير، وإلا كان النزال سيغدو بين الأميــر وأعدائه المليين متوازنا أو قريبا من التوازن.

لقد كانت مواجهة الأمير للغرب مواجهة عصماء عزلاء استمدت قوتها وصميميتها من القوة التلقائية البســيطة التــي كان مصدرها شمم الأهالي واســتماتتهم فــي الــدفاع عــن الشرف، ولم يَعْرُ تلك المواجهة ما عراها من انخذال إلا بعد مصاولة عنيدة استغرقتهم قرابة العقدين.

ولا ينبغي أن يفوتنا في هذا المقام أن نلاحظ أنه إلــى جانب حال الضعف المادي الذي أعاق الجزائريين عن صــد عدوهم وإخراجه من أرضهم، فقد كانت هناك أيضا عوامــل ثقافية أخرى جنت علــى الإرادة الجهاديــة وألحقــت بهــا الضربات وأفشلت مشروعها التحريري، ذلك لأن حوامــل

الثقافة التقليدية لم تكن كلها بناءة، بل لقد كانت تحوي من الشوائب الهدامة ما فت في العزائم ونخر الحمية والتصميم.

كانت شخصية الأمير في عهد الطفولة شخصية الابنالمصون عن التأثيرات الخارجية المخلة ببرنامج التوجيه التربوي الذي تخص به الأسر الشريفة بنيها. لذلك نشأ الطفل عبد القادر- على ما يروى- خجولا يستحيي من ظله كما يقال، إذ أن الرعاية الأخلاقية حين تتسم بالتأثير البليغ تقيم فعلا نوعا من الحائل يفصل إلى -حد ما -بين الناشئ وبين العالم الخارجي. فالصيانة الأخلاقية -هي على نحو ما - عازل اجتماعي لا يشجع كثيرا على الاندماج المجازف.

بل لقد كانت المهمة التعليمية نفسها في ذلك العهد تعمق من طابع العزلة في نفسية الطفل، فحفظ القرآن عملية -وإن تمت في محضرة يرتادها جمع من الطلاب- إلا أنها تبقى عملية فردية لا تكفل التحاور ولا التواصل مع الآخر، إذ يتركز الجهد فيها -طيلة الحصة- على الحفظ والاستيعاب الذاتي مع ما يتطلبه ذلك من تركيز للجهد العقلي الفردي، بحيث لا يغدو هناك مجال لأن يشتغل الطفل بغير واجب الحفظ.

وواضح أن مثل هذا التمرس التعليمي يجعل الناشئ - حقا- يمضي على طريق تقدير المسؤولية الفردية وتحمل العبء الذاتي منذ النعومة، إذ لا يزال التلميذ يعرض واجبه التحصيلي من خلال امتحان الاستعراض اليومي بين يدي المحفظ.

من هنا نرى أن العملية التربوية، متى ما قدرناها من جانبها التحصيلي هذا، كانت لا تتيح للناشئ مجالا أرحب للتفتح على الغير. فالحفظ والتلقي لا يتمان في الغالب إلا في جو من التوقير ومن التمالك الذاتي، وهو ما كان يُمَكِّنُ لقيمة الخضوع من أن تستحكم في نفسية الناشئة.

بيد أن الأمير - وبحكم مركزه وبوصفه ابن الشيخ - كان يجد سوانح خارج حلقات الدرس يقوي بها ملكاته الاجتماعية وقدراته النفسية ونزوعاته الوجدانية.

لقد كان جو الريف الذي عاش فيه يتيح له أن يختلط بالناس، وهو ما كان يدعم لديه تلك القابليات الاجتماعية التي ورثها عن علاقات أبيه مع المجتمع والمريدين بحكم ملازمة الصبي لمجالس أبيه.

ثم إن الطفل عبد القادر لم يكن ليخرج من منشئه التحصيلي ذاك من غيز ما فوائد تنمي شخصيته الاجتماعية وتعمق من سجاياه، ذلك لأن الجو الجماعي الطلابي المتسم بالانضباط وبالعكوف التحصيلي كان يربي فيه روح حب العمل والنهوض بالوظيفة الملقاة على العاتق بكل جدارة، الأمر الذي سيقوي في نفسه الثقة بالذات، والإيمان بإمكانيات الفرد، والتعويل على القدرات الخاصة.

من هنا سنرى الأمير مستقبلا يمنح هامشا كبيرا من حرية التسيير والتصرف لمساعديه، وما ذلك إلا لأنه تلقن في صباه وفتوته، من خلال تجربة التعليم والتربية في رحاب

الزاوية التي كانت تتبع نظاما شبيها بنظام التسيير الذاتي، مبدأ الثقة في النفس وفي الإنسان، وهذا بفضل السلوك العالي الذي كانت أفواج المريدين وأبنائهم تظهره، سلوك يقوم على قاعدة الإلتزام الخلقي والصدق وتأدية الواجبات حيال الله وحيال الآخرين بكامل الرعاية والاحتساب.

ثم إن خصال الفروسية التي اكتسبها من بيئته الريفية وحبه للصيد، كانت خير مروض له على بروزه كعسكري صميم، ما أن امتشق سيف الجهاد تحت لواء والده محي الدين.

لقد كان عبد القادر على كمال جسماني ونماء عضلي متكامل، الأمر الذي مكنه من أن يخوض المعارك الأولى باقتدار لم يفتأ أن أبرزه بين الكتائب.

لقد كانت الصدامات الأولى مع العدو شبه تلقائية، فالمنادي كان يعلن في الأسواق والقرى عن الجهاد، فلا تلبث أن تتداعى الفلول من كل صوب، الأمر الذي كان يجعل مهمة حشد القوات تتم على شيء غير قليل من الفوضى، وهو ما كان يستدعي بروز الزعامات الميدانية الجديرة بالقيادة وضبط النظام، إذ الفوضى لا تساعد على إظهار ما للذات من البلاء والقدرة على التحكم في الزمام إلا إذا كانت الشخصية تمتلك فعلا سجايا قيادية وبطولية حقيقية.

يذكر في هذا السياق أن بسالة الأمير قد ظهرت في حصار مدينة وهران الأول، وقد كان الأمر الجهادي يومئذ

ما يزال في يد والده، إذ لاحظ المجاهدون في بعض المواقع أن الذخيرة نفدت عن الخطوط المشتبكة مع جيش الاحتلال المرابط على الأسوار، ويقال إن نداء الأمير ارتفع هنالك يحفز المتطوعين على إمداد المجاهدين بالذخيرة ليتمكنوا من مواصلة تضييق الخناق على العدو حتى لا ينقلب الموقف ضدهم وتكون الهزيمة، ولما كان الموقف حرجا تكرر نداء الأمير دون أن يجد مستجيبا، عندئذ – كما تقول الرواية – حزم الأمير أمره وشد على حصانه وحمل كمية من الذخيرة وشق ستار الرصاص المنهمر من الأسوار، واتجه إلى الخنادق حيث المجاهدون، وتمكن في مجازفة أذهلت القلوب، من أن يوصل لهم حاجتهم من الذخيرة ثم قفل إلى موقع القيادة يرتب للهجوم الشامل.

إن هذا الحدث البطولي ليكشف عن استعداد جهادي جلي، إذ لو لم تكن القابلية القتالية أصيلة لديه بحيث دفعته إلى أن يقوم بما قام به لما ضره أن يأمر بالانسحاب، بل ولما كان عليه ملام حتى ولو انتهى الموقف بتقهقر المجاهدين أو بهلاكهم، إذ ليس على القائد – وكان في تلك الموقعة مستخلفا لوالده – إلا أن يتصرف بحسب ما يتوفر لديه من إمكانات، فإذا عدم الباعث على الإقدام في صفوف جنوده– كما حدث له ها هنا – فلا يقتضي الأمر منه أن يجازف بحياته، إذ خسارة معركة يتيسر تجاوزها أما خسارة القيادة وفي ظرف كذلك الذي كانت البلاد تمر به، فإنه يغدو بمثابة الانتحار الحقيقي.

وسنعرف لاحقا، كيف أن احجام الجند في ذلك الموقف لم يكن عن نفاد حمية وشجاعة، بقدر ما كان عن عدم وثوق في المعركة نفسها، إذ لم يكن ليغيب عن الناس في تلك المرحلة تلقائية الفعل الجهادي، مع ما يتلبس النفوس نتيجة ذلك من مشاعر عدم الجدوى وعدم نجاعة القتال والتضحية بالنفس في جو تطوعي لا يتوفر على شرط التماسك الذي ينشأ في واقع الأمر من سريان النظام.

كان الأمير أول الأمر جنديا في صفوف المجاهدين الذين كانت الدعوة الجهادية تجمعهم من الإقليم، لا سيما أولئك الذين كانت نداءات الجهاد تنتهي إليهم، فكان يأخذ موقعه في المواجهة بما يقوم في نفسه من استعداد وحب للبذل نشأ عليه كما أسلفنا.

لقد كانت المواجهات الأولى في جملتها تتسم بطفوح الحماسة الأهلية وبشيء من الاندفاع المشوب بالحذر الذي كان يمليه واقع التعرف على قوة العدو واختبار حربيته، وهو نفس الحذر الذي كان يطبع حركة جيش العدو ومواجهاته الأولى للأهالي، لكن ذلك الأمر لم يكن لينفي عن الفرديات أن تبرز، إذ حمية القتال إذا ما كانت دوافعها إيمانية فلابد أن تظهر على صورة بطولة تلفت الأنظار.

ومن جهة أخرى لابد أن نقدر أن الجيش الأهلي الذي كانت إمرته في يد الشيخ محي الدين كان يقوم على فئات المتطوعة بشكل أساسي، لكنه إلى ذلك كان يتوفر على نواة

عسكرية يمكن أن نقول إنها كانت اللبنـــة الأولـــى للجـــيش النظامي الذي ستتكفل الدولة الأميرية بإنشائه.

لقد كانت هناك فئة من المقـــاتلين يمكـــن أن نقـــول إن حضورها بين يدي الشيخ محي الدين كان حضـــورا دائمـــا واستعدادها مستمرا من أجل القيام بعمليات حربيـــة وتنفيـــذ هجومات وقائية أو إعتراضية ضد العدو. إن هذه الفئة - كما نتصور - كانت تتألف من شباب تابعين للقبائل والجماعـــات التي كان أمر إنشاء الدولة الوطنية يهمها بدرجـــة أساســـية والتي وجدناها تنخرط في العمل لذلك الغرض على أكثر من سبيل.

فهذه القبائل والجماعات كانت تضـــع قوتهـــا البشـــرية والمادية رهن إشارة القيادة الجهادية، وحيث أن الشيخ محي الدين لم يكن ينهض بأمر قيادة الجهاد إلا تحت إلحاح قبائـــل وجهات أهلية كان مصير الاسلام والمسلمين فـــي الـــوطن الواسطي يهمها، فلا شك أن تلك القبائل والجماعات هي التي كانت تجند مقاتلتها وتضعهم تحت سلطة الشيخ محي الـــدين المباشرة وبصورة دائمة، من هنا لا نستغرب أن تكون أعداد من شباب وفرسان تلك الجماعات والقبائل هي التي كانـــت تعسكر بين يدي الشيخ محي الدين على نحو دائـــم، وكـــان الشيخ يواجه بها اختراقات العدو ويناوش بها الثغـــور التـــي نزل بها المحتلون، كلما دعا الداعي.

وإذا افترضنا أن مداومة تلك الفئات المقاتلة - لا ســـيما من قبائل الحشم وجيرانهم من حضر وبدو - لم يكن منتظما

على صورة تجنيدية رسمية، فإن الذي لا شك فيه أن استجابتها لنداء الاستنفار كانت ثابتة، وأن ذلك الوضع التجندي الإرادي قد جعلها تستشعر دورها كقوة جهادية معنية بأمر التصدي لما يجري في الوطن، ومنوطة مباشرة بما تصدره القيادة الجهادية التي كان على رأسها الشيخ محي الدين من أوامر وتعليمات حربية.

وليس بمستغرب أيضا أن يتحول ذلك الجو من التأهب الدائم بتلك الفئات المتطوعة إلى ما يشبه حال الاحتراف، بحيث تقوت لديها مشاعر الانتظام والمرابطة وتوطنت نفسيتها على المداومة.

وسيعزز من وضعها ذلك ما باتت تفرزه المصادمات مع العدو من مكاسب مادية عن طريق الغنائم التي كان أولئك المستنفرون يجدون فيها بعض العوض عما كان يفوتهم في حياة التفرغ.

من تلك الفئات التي وقفت نفسها في سبيل الجهاد والتزمت حالا من الاستنفار التلقائي الجهادي تشكلت إذن نواة جيش البلاد الذي سيعرف تطويرا بالغا على يد الأمير، والذي سيكون أداته الأساس في أحوال السلم والحرب.

ذلك لأن سير الأحداث المتسارعة وتوسع رقعة الاختراقات التي بات المحتلون يختبرون بها ردود فعل الأهالي، كان يجنح بأوضاع الاستنفار التطوعي الجهادي إلى

إبداء المزيد من اليقظة والمزيد من المتابعة والترصد، وهو ما عجل بالتحول إلى نظام التجند والاحترافية.

فبعد أن استمرت العمليات الجهادية الأولى تتم على نحو تطوعي، حتمت الظروف اللاحقة على الأمير – الذي كان يحرص على تحقيق النجاعة –أن ينتقل إلى مرحلة تنظيمية أرقى، وهو ما حدا به إلى أن ينشئ الجيش النظامي تفاديا لكثير مما كان يسببه الوضع اللانظامي والخطط الارتجالية للمقاتلين من ارتباك ومحدودية في النتائج.

بل لقد لاحظ الأمير نفسه أن تلك الحال القتالية غير النظامية كانت تسيء ليس فقط للجهاد ولكنها كانت تهدد بإبطال شعيرته تماما بما كانت تؤول إليه المواقع من فوضى ومن تهافت على الغنائم ومن اعتبارات دنيوية تخل بالمبدإ وبروح التماسك.

لقد أدرك الأمير أهمية التحول إلى النظام العسكري الاحترافي بعد أن كابد كثيرا مما كانت تسببه فوضى المتطوعة سواء أثناء الوقائع الحربية أو بعدها.

ومما يذكر هنا أن الأمير نازل في بعض المعارك قبائل الزمالة والدوائر التي ارتدت إلى جانب العدو، وتغلب عليهم، لكن تهالك مقاتليه على المغانم شغلهم عن الاحتراز وأخذ الحيطة، وهو ما جعلهم يقعون في قبضة أعدائهم بعد أن تمكنوا من إعادة الكرة على جند الأمير المنهمك في جمع الغنائم والتدافع عليها. ويقال إن الأمير نفسه لم ينج في تلك

الموقعة إلا بفضل استماتة وبطولة من بقي يلازمه من جنوده.

لقد كان الأمير إلى ذلك الحين يقاتل بعدة شبه دائمة من الجند، وبجموع المتطوعة التي كان النفير يأتي بها من كل صوب، وحيث أن الكثرة الكاثرة كانت من المتطوعة فإن أمر ضبطها والتحكم في مقادتها كان غير متأت بالصورة المطلوبة، وذلك ما عزم الأمير على تجاوزه، لا سيما بعد أن ثبت لديه أن بقاء الأمر على حالته التلقائية لا يفيد ولا يرتقي بالفعل الجهادي إلى ما كانت المطامح تنشده.

ولنتذكر هنا واقعة حصار وهران وإحجام المقاتلين عن تنفيذ أمره بمد المخندقين بالذخيرة واضطراره هو نفسه إلى أن يجازف بحياته. فذلك الموقف لم يكن إلا وجها من وجوه الخلل التي كانت تحد من فاعلية الجهاد.

لقد كانت المرامي الاستعمارية في احتلال البلاد راسخة وحاسمة، لذا مضت عملية اكتساح القوات الغازية للبلاد تتصاعد مع مرور الوقت، فما أن تهيئ تلك القوات لقدمها موطئا حتى تتقدم خطوة أو أكثر لتتشبث بما أصابت من الأرض ولترفع عينيها إلى أكثر من موقع جديد تخطط لاحتلاله.

تلك هي خطة المحتل في التقدم إلى داخل البلاد والهيمنة عليها، ولا غرو أن نجد المحتل مثلا يعالج قضية احتلال أعماق البلاد على مدى ثمانية عقود تقريبا ظل خلالها

يداب على التحرك التدريجي المتحذر والآخذ بمختلف الأساليب ومنها حتى أسلوب التمسيح والاستحواذ على النفوس بواسطة مؤسسات الإحسان التي ظلت تصطنع أقنعة شتى، استكشافية علمية وإنسانية ودينية وما إلى ذلك.

على أن العامل العسكري الاستعماري ظل مناط الرهان في تحقيق فتح الجنوب. فكلما تهيأت للمستعمر قوة وآنس من جانبه اقتدارا عسكريا زحف ما أمكنه الزحف إلى الأمام. ولا غرابة أن نجده في هذا الصدد يسلك المرة تلو المرة إلى إلغاء معاهدتي الاعتراف بالدولة الجزائرية والتحلل من التزاماته تجاهها بأسباب مصطنعة ومفضوحة وطابعها الاستفزازي جلي، وهذا سواء بالنسبة لمعاهدة دي ميشال أو معاهدة بيجو. وما ذلك إلا لأن التصميم على استعمار كل البلاد كان ثابتا، وكل اجراءات الصلح أو التفاهم التي كان يتخذها أو يوافق عليها إنما كانت للتمويه على مقاصده المبيتة لا غير.

ولا شك أن أقوى ما ساعده على التوسع والثبات أمام المقاومة تمكنه من مد جسور التبعية والتخضيع بينه وبين القبائل التي كان يفلح في كسبها إليه أو تلك التي تمكن من تحييدها من طريقه.

استطاع العدو أن يجند في صفوفه قبائل وكتائب أهلية تزايد عددها مع السنوات والعقود، واستطاع من ثمة أن يؤثر على قطاعات أخرى من الأهالي، الأمر الذي ساعده على أن يواصل عملية الاحتلال وأن يضمن لنفسه - بفضل تعامل

وتعاون تلك القبائل المستدرجة – وفرة المؤونة والحاجات الاستراتيجية الأخرى، لا سيما على مستوى تزويده بوسائل النقل والمواصلات ومساعدته على معرفة مسالك البلاد وعلى الجهات.

**قرار إنشاء العسكرية الوطنية خطوة نوعية حاسمة على طريق التمدن.**

استطاع الأمير من جهته أن يبني جندية نظامية محاربة بفضل سنه مبدأ التجنيد بين الأهالي كما أسلفنا، وهو ما كفل له الاحتياط العددي والنوعي من العساكر والمقاتلين.

ولقد كان لتلك الخطوة أثر مدني وثقافي حاسم تجاوزت به البلاد –وبصورة محسوسة- كثيرا من العقد التي كانت تميز نظرة الأهالي إلى الدولة وإلى الرموز السلطانية، بما فيها العسكر.

فالروح الفروسية التي حكمت الوجدان الأهلي على مدى القرون ظلت ترى في العسكري فردا مأمورا مسخرا، مسلوب السيادة والخيلاء.

ذلك بالتقريب هو ما كان يسود نظرة الأهالي تجاه العسكرية في العهد التركي على الأقل.

وعلى الرغم من أن وظيفة الجندية في العهد التركي كانت احترافية لا تتهيأ للفرد الأهلي إلا بمقاييس، إلا أنها مع ذلك ظلت لا تتلاءم مع أريحية الفارس العربي ابن الأجواد

الذي لا يخضع ولا يرضى بالخدمة إلا من موقع الأمر لا الائتمار.

ولما كانت العسكرية في بعض جوانبها عنوانا على الخضوع والخدمة، فقد أنف الأهالي منها ومن تعاطيها على توالي العهود، لذا رأينا الدول الواسطية قبل العهد التركي تلجأ إلى اتباع أسلوب التجنيد القبلي، وذلك ما عرفته الدولة الزيانية والعبد الوادية، بل والموحدية أيضا، من خلال تجنيدها قبائل أطلقت عليها اسم حميان، تحمي بها نفسها من فوضى البدو ومن تحرشات المتغلبين والطامعين في الداخل والخارج. وستجند الجزائر المستقلة، وبعد زمن طويل من تلك العهود، قوات الدفاع الذاتي، وهم تشكيلات شعبية لها نفس المواصفات التي كانت لمخافر حميان في ظل الدول الغابرة.

فذلك النوع من التجنيد القبلي الشامل كان في الواقع لا يخرج بالفرد البدوي والأهلي عن نظامه القيمي والأخلاقي.

من هنا كان لا يستشعر الوصمة أو النقص بممارسته للجندية.

علما بأن مصطلح حميان لا يزال مسترذلا في الذهنية الجزائرية إلى اليوم، لما لابسه من سخرة للسلطان وبيع الذمة له.

بل إن مفهوم الزمالة والدوائر نفسه كان يندرج ضمن هذا النظام القبلي المتأبي عن خدمة السلطان خدمة سافرة ومكشوفة.

فالزمالة والدوائر هي عشائر وقبائل استتبعها نظام البايلك لكي تقوم بخدمته وبحمايته ضد الأهالي، بعد أن تيقن أن الإقبال على الخفارة يكاد يكون معرة في الذهنية الجزائرية. من هنا استحدث البايلك ذلك الاسلوب مستلهما أحوال الدول السالفة في البلاد التي كانت تتخذ قبائل الحماية (الحميان ) كأداة وكأمن مدني تضرب به الأعداء وتدفع عن حرمتها المخاطر.

من هنا كان قوة الزمالة والدوائر قوة خليطة قوامها عديد من القبائل والعناصر التي تتداعى إلى الانخراط في ذلك النظام التسخيري المرتبط بخدمة الحكم، وهو أمر كان يجنبها إلى حد ما الوصمة، من حيث طبيعة بنية تلك القوة ذاتها، غير المنتسبة لقبيل بعينه.

فهي من ثمة تشكيل يشبه إلى حد ما تشكيل اللفيف الأجنبي في العسكرية الغربية الحديثة.

ترى هل يمكننا القول في هذا الصدد أن زمالة الأمير عبد القادر كانت تندرج من بعض الوجوه هي أيضا في هذا المنظور التقويمي الذي كان للأهالي تجاه العسكرية ؟

لا نعتقد ذلك، لأن دواعي إقامة زمالة الأمير لم تكن إلا جهادية تكيفية كما سنرى بعد قليل، الأمر الذي جعلها تحوز الاعتبار ليس فقط من لدن الجموع التي عمرتها ولكن من الأجيال اللاحقة جميعا، إذ رأوا فيها وجها فذا ومشرفا في مجال الاقدام الجهادي المجيد.

وإنه لمن اللافت للانتباه أن نتبين روح الاستمالة والاستدراج التي طبعت تلك العملية التجنيدية التي باشرها الأمير لأول مرة من أجل أن يتحول بالعمل الجهادي إلى مرفق نظامي احترافي.

فالمهمة لم تكن يسيرة، ولم يكن من السهل على النفوس أن تتجاوز ما رسخ لديها من أحكام على مدى قرون.

لقد كان على الأمير وهو ينتقل بالأهالي إلى نظام التجنيد الاحترافي أن يشرع في تفكيك منظومة القيم ليستأصل منها عقدة مستفحلة ظلت تستهجن التجند وتنفر من سخرة الانتظام في سلك العسكرية، ولم يكن يساعده على تحقيق ذلك القصد إلا مناخ الجهاد الذي كان يحفز الناس على التكيف مع الظروف المستجدة بشيء غير قليل من العزم والإصرار.

وهكذا لم يعتم الأهالي بتأثير ذلك الحدث التمديني أن أيقنوا أن الأداء العسكري هو أداء مشرف ولا غضاضة فيه، على عكس ما كان قارا في الأذهان، إذ كان التجند عنوانا على التردي والتحلل من شرف الرجولة وعلى الوخامة المعنوية.

بل يمكننا القول إن نظرة الأهالي إلى المتجند كانت تحمل شيئا من مشاعر النبذ التي كانت العقلية العربية زمن الجاهلية تحملها للفرد المخلوع الذي تتخلى عنه قبيلته وتقصيه. من هنا كان انجاز الأمير على ذلك الصعيد على أهمية نفسية واجتماعية كبيرة.

لقد طفق المنادون الذين كان الأمير ينتدبهم عبر الجهات والمناطق التي يشملها نفوذ الدولة يدعون الشباب إلى التجنيد بصيغ تتجلى فيها روح الترغيب والتقريب: "إلى كل من يريد أن يكون من أبناء الأمير .."

والواقع أنه إنجاز على درجة حاسمة في التحول الاجتماعي والنفسي والمدني الذي تحقق للأهالي حين سنت الدولة نظام التجنيد، إذ أن البيئة التي كانت بيئة قبلية في الأساس، قد وجدت نفسها فجأة تتحول إلى مجتمع المؤسسة، حيث يقدم الشاب أو المجند على بذل جهده وفتوته في خدمة إطار غير إطار العشيرة والقرابة، إطار الدولة القومية.

هكذا كانت النظرة الأهلية تتحور بالتدريج وتتسع لتنتهي إلى آفاق قومية جعلت الوعي يرتقي بالفرد الأهلي إلى مستوى مدني أرهصت له عمليات الجهاد التطوعي الذي كان المقاتلون يخوضونها تحت اللواء الجماعي قبل ذلك.

فالجهاد كان يتم – كما أسلفنا –على نحو إرادي، وكانت الحمية القبلية هي التي تصعد من احتدامه أو العكس.

ذلك لأن القبيلة كانت تنسحب من المعركة لانسحاب كبارها، أو لسقوط وجهائها ومقاتلتها المبرزين أو لما شابه ذلك، إذ ليس عليها بعد ذلك من رقيب.

فالبأس كان لا يزال فاعلية قبلية، ذاتية، والاستماتة وإن حكمتها عواطف الإيمان والاستنفار العام إلا أنها استماتة تعدم الإطار العام الذي يخرجها عن النطاق الطوعي إلى نطاق الخطة العامة وتقبل التضحيات مهما جسمت.

وإنه لمهم أن نشير إلى أن قرار الأخذ بنظام الاحتراف العسكري قد عمل من جهة أحرى على تضييق باب كان قد شرعه المستعمر في وجه الأهالي حين راح يجندهم ويدمجهم في صفوفه، تقوية لجانبه واستيعابا لهم حتى يتمكن من مواجهة الأعمال الجهادية.

لقد هداه مكره منذ أول العهد إلى خطة تجنيد المواطنين وتأسيس فرقا بل وقيالق منهم، كان يجعلها طليعة في حملاته و يتترس بها ويزج بصفوفها في المعامع الضارية.

لقد لعبت فرق الزواف (= زواوة) أخزى الأدوار طيلة عهود المقاومة التي امتدت أزيد من نصف القرن، وكانت القبائل المتعاملة مع العدو تشكل رأس الحربة ليس فقط في المواجهة بين الأمير وبين أعدائه المحتلين، بل لقد استمرت خيانتهم بعد ذلك بحيث وقف الموالون للعدو ضد كافة الزعامات الجهادية التي ظهرت تباعا بعد عهد الأمير.

لقد كان الخونة المجندون في صف العدو الفرنسي يسمون (مزانات)، أو الحركة منذ ذلك التاريخ.

ومن المؤكد أن القبائل المتعاملة مع المحتل قدمت له عظيم الخدمات على حساب الوطن والدين والقومية، لذا وجدنا الأمير يتشدد بصورة حاسمة في محاربتهم وقطع دابرهم، ولعل قبيلتي الدوائر والزمالة كانتا مثالا حيا لذلك التعامل الخياني الذي استنفد من الأمير غير قليل من الجهد.

لقد دأبت هاته القبائل على خدمة السلاطين وعلى بيع ذمتها للأسياد حتى الكفار منهم. فقد سجل التاريخ ما كانت هذه القبائل ومثيلاتها تظهره من خضوع للأعداء منذ العهد الزياني، إذ كان النصارى الصليبيون يجدون لديهم كل الدعم.

وحين دخلت فرنسا البلاد بادرت إلى اصطناع من لمست فيه الاستعداد من القبائل، فقد انتهى الأمر بكثير من العشائر إلى أن تمد يدها للعدو، وأن ترتبط به، وكانت الزمالة والدوائر في طليعة المتجاوبين مع العدو.

بل لقد وجدنا قبائل الدوائر والزمالة تدخل في علاقة مع العدو من خلال اتفاق أبرمته معه، الأمر الذي شكل أول اختراق لسيادة الدولة على الأرض وضد المجموعة الأهلية المتساكنة في هذا الجناح من الوطن، إذ كان العدو يرى في مناطق هذه القبائل المتعاقدة معه أراضي تابعة له بحكم تبعية أهلها، الأمر الذي تناقض مع رؤية الأمير الذي لم تفته

مرامي العدو ومقاصده من خلال ممارسة مثل ذلك الإلحاق القبلي.

لقد أيقن الأمير أن العدو كان يخطط لتوسعات إقليمية سوف لا تلبث أن تسترسل كلما تمكن من استمالة قبائل أخرى إليه. لذلك سارع الأمير إلى قتال تلك القبائل بل وإلى تكفيرها وإشهار سيف الشرع عليها من خلال استفتائه علماء الأمة من داخل القطر وخارجه في أمرها.

لقد ظهر منذ ذلك الحين مصطلح " المتنصرة " في الخطاب السياسي الوطني، وكان يشير إلى تلك القبائل التي باعت ضميرها وذمتها للعدو الصليبي، ولم يكن من بد للأمير أن يكون معها صارما وغير مهادن، فلهذا وجدناه يسدد لها الضربات ويضيق عليها بكل السبل - بالمقاطعة والغزو والتكفير - لأنه كان يراها بمثابة حصان طروادة الذي سيمكن العدو من النفاذ إلى البلاد.

لم تكن تلك القبائل وحدها هي التي رفضت سيادة الدولة الوطنية، ولكن هناك حواضر أخرى ارتبطت بالعدو وولت وجهها شطره، من ذلك مثلا طوائف من أهل مستغانم وتلمسان والمدية وعنابة وغيرها من مراكز عمرانية أخرى كانت تضم أخلاطا سكانية متباينة الأجناس.

فاليهود والنصارى وحتى بعض من كان يظهر الاسلام من قدامى الأسرى الأوروبيين الذين اعتقوا ومكثوا في

البلاد، كانوا أول المرحبين بالمحتل والمسارعين إلى تأييده والتعامل معه.

وكانت هناك أيضا فئات أخرى لاسيما من الكراغلة ومن كانت الإيالة التركية تحفظ لهم امتيازا اجتماعيا على عهدها، فهؤلاء سارعوا إلى مد يد الترحيب والتعاون مع العدو استبقاء لحال الامتياز أو بسبب طبيعة الانغلاق وعدم الاندماج في البيئة الأهلية التي شبوا بها ولم يستطيعوا التفتح عليها لخصوصيتهم الطبقية والمذهبية أو ما إلى ذلك.

من هنا وجدت المقاومة نفسها تواجه كل هذه الفئات التي كانت تقدم الخدمة الكبيرة للمحتل.

وكان من بين الأساليب التي اتبعتها المقاومة ضد المحتلين ضرب الحصار على الثغور والمدن التي احتلوها، وفرض المقاطعة التامة عليها بيعا أو شراء أو دلالة أو ما إلى ذلك، لكن المحتل سرعان ما وجد في خدمة هؤلاء (المتنصرة ) وسيلته إلى اختراق الحصار وإلى تجاوز وطأة المقاطعة وبذلك مضى في تنفيذ مخططاته التوسعية والحربية.

وسنجد الأمير يعالج حالة التواطئ تلك بكل الصرامة التي تستحقها، إذ قاتل الخونة والمتحالفين مع العدو بكل حسم، مسوغا مقاتلتهم بما أصدره في حقهم مجلس الفتوى في الدولة، إذ اعتبرهم متنصرة، مرتدين، وقتالهم جهادا.

ولكي يتفادى الأمير ما كان يرى العدو يجنيه جراء وضع مساكنة الأهالي له في الثغور والحواضر التي احتلها، قرر إخلاء تلك الثغور والحواضر من سكانها وحمل الأهالي على الهجرة إلى جهات أخرى عزلا للعدو، وهنا نجد رأي الدين مرة أخرى ينفذ في تطويق الخيانة وتجاوز حال الضعف.

فقد أصدر مجلس الفتوى قراره بوجوب الهجرة وعدم مساكنة العدو، لذا وجدنا الأمير يبادر إلى ترحيل سكان أرزيو ووهران ومستغانم وحتى تلمسان وغيرها لما كان يرى للمساكنة من إضرار بالجهاد.

وسنرى كيف استجابت جموع الأهالي لذلك القرار الشرعي، وكيف تحملوا الخروج من ديارهم بما تيسر لهم من متاع، وما آل إليه أمر كثير منهم فقرا وتشردا.

لقد كانت تكاليف الجهاد تقتضي منهم الانصياع لذلك القرار الشرعي والسياسي، ومن جهته لم يتردد الأمير في تنفيذ أمر الترحيل واعتبار كل من تخلف ولم يستجب من الأهالي خائنا ومتنصرا.

على أننا رأينا فئات أهلية كرغلية ممن كانت تقيم في تلك الحواضر ترفض الهجرة وتصر على مساكنة العدو، بل ولا تكتفي بذلك، إذ ما لبثت أن راحت تقدم له الخدمة والعون وتأتمر بأوامره، وهو ما جعل الأمير يحاربهم ويشملهم هم أيضا بالحصار وبالملاحقة.

بل لقد رأيناه الأمير يمارس سياسة التهجير الإرغامي حتى على القبائل البدوية، بعد ما تبين له تعامل بعضها مع العدو واستفادة هذا الأخير من جراء جوارها له، وهو ما فعله مثلا مع قبائل البرجية بنواحي مستغانم ومع قبائل الزمالة والدوائر المذكورين سابقا، فقد رحل هؤلاء عن مواطنهم بإقليم وهران وبلعباس ونقلهم إلى نواحي تلمسان، ثم وجدناه ينقلهم تارة أخرى إلى نواحي معسكر، قريبا من حاضرته، ليضع حدا لما كانوا يقيمونه من أواصر التواطئ مع الأعداء.

لم تقتصر الصرامة الجهادية على التصدي للعدو المحتل وأذنابه واعتراض تقدمه بكل السبل، ولكن امتدت تلك الصرامة حتى إلى جهات أهلية أظهرت معارضة لسلطة الأمير، أو تعاملت صراحة مع العدو واعترفت بسيادته عليها.

فقد خاض الأمير عديدا من معارك التصفية والتدويخ ضد جهات شهرت امتناعها عن الانضمام إلى حظيرة النظام الجهادي.

وفي هذا الاطار يمكن التذكير بحصاراته الطويلة لكل من تلمسان والمدية وعين ماضي. لقد طاول الأمير هذه النواحي بقواته واستغرق أحيانا في المرابطة أمام بعضها أشهرا، إذ ظلت تمتنع عليه بسبب تمرس الناس على مدى عهود طويلة بالمدافعة وبمواجهة الحصارات.

لقد عاش -مثلا- أهالي تلمسان كما يذكر المؤرخون خلال محصارة الأمير لهم خصاصة وأعوزتهم المؤونة. ويذكر هنا أن القائد العسكري الفرنسي الذي كان يقيم بالمدينة في تلك الأثناء قد بات يبتاع القطط لطعامه.

ولم تكن تلك الحال الصمودية لتستغرب من أهالي تلمسان الذين عرفوا على مدى التاريخ تجارب أخرى من الحصار والتأبي عن الملوك، فقد بقيت مدينتهم في العصر الزياني نحو الثماني سنين تحت حصار الأمير المريني قبل أن تنعتق من قبضته، لكن تجربتها مع الأمير -والتي لم تكن طويلة نسبيا - كانت أيضا قاسية.

فتوالي النزالات على تلمسان عبر التاريخ مرده إلى تلك الأهمية التي كانت للمدينة في المشهد الاستراتيجي، إذ أن وضعها كقلعة مفتاحية هضابية تقع بين قطرين جارين، زيادة على مشارفتها للبحر من جهة والصحراء من جهة ثانية جعل الأمير يلح على فتحها ويتحمل عناء المرابطة من أجل ذلك.

وتحدثنا الأخبار أن الأمير استجاش لذلك الحدث الحربي كل إمكاناته الروحية والمادية، وأنه وظف السياسة والدهاء إلى جانب المصاولة القتالية الصريحة، الأمر الذي جعله يحقق فتحها في وقت يبدو للعارف حرجا، بالنظر إلى ملابسات المرحلة وإلى الطبيعة غير المتجانسة للسكان، إذ كانت هناك طائفة كولوغلية لا تريد أن تسلم بسيادة الأمير،

بالإضافة إلى تدخل عوامل أخرى ضاغطة كانت تمضي بالعصيان إلى حدوده.

لقد جهدت الدوائر الاحتلالية من أجل صد الأمير عن تلمسان وجعله يعود بالخيبة في أول مواجهة توحيدية لأجزاء الوطن.

ونفس الأمر يقال عن مستغانم والمدية، فواقع هاتين الحاضرتين، حيث كانت التركيبة السكانية والاجتماعية ووجود طوائف يمكن القول عنها إنها ارستقراطية تتكون أيضا من كراغلة ويهود ومن أسر أهلية متنفذة اجتماعيا، جعلهما تشهران امتناعهما في وجه الأمير وهو ما دفع بالأمير إلى اقتحامهما عنوة وبعد تخضيع.

وربما كان وضع واحة عين ماضي مخالفا -نحوا ما- إذ أن هذه البلدة التي كانت مركزا روحيا كبيرا، قد دافعت الأمير عنها من منطلق الاختلاف في وجهة النظر إلى الواقع السياسي للبلاد.

فقد كان الأمير يوم أن هاجمها يعيش تلك المهادنة التي أبرمها مع الفرنسيين، وهو ما جعل الانتقاد يستهدفه من جهات وطنية مختلفة، إذ أشاعت أوساط - وأغلبها كان ينافس الأمير أو يعاديه - أنه أبطل شعيرة الجِهاد بتعاقده مع العدو الكافر، وأنه لذلك لا تحق له طاعتهم.

لقد أثارت تلك الإراجيف العواطف وهيجت المشاعر الدينية في نواحي من البلاد، الأمر الذي يسر على بعض القبائل أن تعاود وضع التحلل من النظام، ركونا إلى روح التمرد التي لم تكن المدة القليلة التي انقضت على قيام دولة الأمير بكافية لاستئصالها من نفوسهم. لقد وجد هؤلاء في ما أرجف به الخصوم المبرر الكافي لإعلان العصيان والخروج عن طاعة الدولة .

فروح تقبّل سيادة النظام والخضوع للدولة لم تكن ملموسة لدى كثير من الأوساط الأهلية التي كان واقع التحرر والبعد عن سيطرة الدولة يطلق يدها في أعمال الغزو والتعدي، وهو ما كان يحسن من أوضاعها الاجتماعية.

لقد حرمها الانضباط والاندماج في لحمة الدولة مواردها ونزع عنها صبغة القوة التي كانت تكتسبها من أعمال البطش وفرض السيادة على الجهات والقبائل. لذا كانت قابليتها لدواعي التحلل من النظام حادة ومهيأة على الدوام.

من هنا كان اعتراف تلك الأوساط بالامير مجرد أمر واقع فرضته سياسة الحزم التي اتبعها إزاء الرعية، لذا كانت تلك القناعة المدنية والنظامية السطحية تتخلخل ما أن تجد الباعث والمبرر.

فالقبائل والجهات التي شملتها دولة الأمير بسيادتها كان كثير منها لا يزال يرى في شخص الأمير وفي حكومته صورة لبايلك ودايات الأمس، خاصة وأن الأمير لجأ في

مرحلة أولى من عهده إلى فرض معونة مالية على الأهـالي اقتضتها عمليات الجهاد وضرورة تسيير الدولة، الأمر الذي هيأ العواطف أكثر لأن تبقى على جفوتها الأولـى للحكـم، نزاعة لأن تخرج عن نطاق سطوته.

لقد كانت فكرة الدولة الوطنية غائبة عن الحس الأهلي تقريبا، وكانت مساعي الأمير الحثيثة تهـدف إلـى غـرس مشاعر الوطنية في المواجد والضمائر بكل سـبيل غيـر أن عامل الوقت وتلاحق الأحداث كان أحيانا كثيرة يعمـل فـي اتجاه معاكس لما كان يرمي إليه الأمير.

من هنا وجدنا واقعة حصار عين ماضي تتحـول فـي بعض أطوراها إلى جدل ديني وعسكري معا يفتح فيه النقاش حول موضوع الشرعية والجهاد والأحقية في تمثيل الأمـة. وتلك حال رغم تفجرها ودمويتها إلا أنها جمعت بين فئـات جزائرية لأول مرة وجمعتهم على أرضية مـن الاخـتلاف والتباين في وجهة الرأي حول القضايا الوطنية الكبرى، وفي مقدمة تلك القضايا مسألة الشرعية وحرية الاختيار والحـق في التمثيل والاختلاف.

ومن غير شك أن الأمير لو لم يكن يعيش ظرفا جهاديا ملحا، لذهب بالحوار مذهبا سلميا. ذلك لأن القواسم المشتركة بين الطرفين كانت من الوجاهة والبروز بحيث تمنع حدوث المواجهة العنيفة.

ترى أكتب على وطننا منذ ذلك الوقت أن يفتح حواراته الكبرى تحت ضغط الظروف الملحة، والمراحل الدقيقة الحاسمة، بحيث يغدو في كل مرة اللجوء إلى تحكيم السيف هو المخرج الذي لا بديل عنه؟

على أنه لا ينبغي أن يغيب عنا هنا ما كانت ذاكرة التجاجنة (أهل عين ماضي) تحتفظ به لأهالي معسكر ولرجالاتها من مشاعر سلبية عائدة إلى حادثة مقتل سيدي محمد شيخ زاوية عين ماضي على أبواب معسكر بعد خديعة حلفائه الحشم له.

فجراح تلك الواقعة كانت لا تزال تنزف في الوجدان، الأمر الذي كان يزيد من عوامل إعاقة التفاهم بين الجانبين.

كما أن عامل التنافس بين الزاويتين – الذي ربما كان يتغذى بيد جهات مغرضة – لم يكن ليستبعد في ذلك النقار، وربما ساور الزاوية التجانية بما لها من امتداد ونفوذ على طول ساحة البلاد، بل وعلى بلاد المغرب أيضا، أن تتطلع هي أيضا إلى أن تخلف الحكم التركي المنهزم، إن لم يكن على الوطن في كليته، فعلى الصحراء بالأقل.

وهكذا استمر الأمير يرابط على مشارف الواحة، ثم دخل في مفاوضات بعد أن استنفذ الجهد الحربي في تهييئ أسباب النصر، وستعيش الزاوية التجانية بأتباعها المطوقين وسكانها المتجندين نساء ورجالا وأطفالا صفحة باهرة من الصمود، لقد كانت مدافع الأمير تقوض أسوار البلدة بالنهار،

وكانت القوى العاملة التيجانية تعيد سد الأثلام والثغور ليلا، واستغرق الأمير في عملية التخضيع، لا سيما وهو يرى إصرار خصومه على الثبات، أشهرا متلاحقة دون أن يظهر عليهم ما يشير إلى خنوعهم، ثم نهج الأمير في ذلك نهجا حاول أن يلتزم فيه بالسنة، إذ اتبع سيرة الرسول (ص) في حصاره لواحات أعدائه في يثرب، إذ باشر عمليات اهلاك الزرع والشجر تخنيعا لهم، لكن التجاجنة لم يزدادوا إلا صمودا ولم تتكسر شوكتهم، الأمر الذي كفل لهم في نهاية المطاف أن يتفاوضوا مع الأمير على الاستسلام المشرف للطرفين ليخرجوا تاركين الديار وقد أتلفتها مدافع الأمير.

ولم يكن أمام الأمير بدوره غير ذلك الحل التأميني، إذ أن تراجعه عن تكريس سيادته كان سيشجع خروج مناطق وجهات أخرى ظلت عوامل الوهن والاستمالة الاستعمارية الماكرة تهيئهم للتحلل من الموثق الجهادي.

وربما استشعر الأمير- بحسه التبصري - ضرورة إشعار السلطان المغربي بما تم له في عين ماضي، فقد كان يدرك العلاقة القائمة بين آل التجيني وبين السلطان المغربي، لذا سوف نراه يضمن رسالته إلى السلطان إشارة إخبارية بما كان له مع أهل تلك الواحة، وسنرى الرد السلطاني - ورأي العلماء - يؤيد موقفه من أهل عين ماضي.

والحقيقة أن مراجعة الأمير للسلطان - في ذلك الشأن بالذات- كان تدبيرا سياسيا وحنكة منه، إذ أنه من خلال تلك المراجعة قد سد باب التظلم في وجه التجاجنة لدى السلطان

وأمِنَ ما كان ذلك التظلم سيفتحه من ثغرات في العلاقة بينه وبين السلطان، إذ أن الأمير كان يعي الصلة بين الجانبين والمرامي التوسعية التي ظل السلاطين المغاربة يعربون عنها خاصة تجاه الصحراء.

وإلى هذا ظل الأمير يتعاطى مراصدة العدو المحتل، إذ أن الأمير قد استمر على إدارة التحركات العسكرية بنفسه، وواظب على خوض الغمار ميدانيا ولم يركن إلى اعتزال المعركة أو الاكتفاء بتعيين القادة الذين يباشرونها ليتاح له هو أن يشرف على شؤون الأمة من داخل ديوانه محاطا بوزراء وكتاب.

لقد كان خوض المعارك والتحرك السريع إلى مقاتلة العدو عبر الجبهات وسيلة ملائمة للأمير كي يقوي من صلته بالأهالي، وكي يتمكن من مراقبة وتنفيذ تعليماته وأوامره بنفسه وفي عين المكان.

أجل لقد كانت هناك ضرورات تحسيسية تقتضي من الأمير أن يكون حاضرا في الميدان، وأن يظل قريبا من الأهالي بصورة متواصلة،، إذ أن حضوره كان يحول بين الناس وبين دواعي اليأس أو التشكك في قدرة الدولة الناشئة، ذلك لأن الخصوم الموجهين من قبل المحتل خاصة، كانوا يشنون حرب الإشاعة ضد الأمير باستمرار تفشيلا لمشروع الدولة الوطنية، وكان الرد الملائم هو تكذيبهم من خلال ذلك التجند القيادي الفعال الذي رأيناه لا يكاد يخطئ أهدافه في أغلب المواجهات الحاسمة التي جمعت المجاهدين بالعدو.

لقد رأينا المتربصين والخصوم يذيعون مرات عديدة أخبارا عن مهلك الأمير، وكان ذلك يهبط سريعا بمعنويات الأهالي وينعكس أحيانا حتى على القيادات، إذ أن الدولة الوليدة كانت رغم اجتهادها في توسيع مرافقها النظامية التي تدار بها الشؤون العامة، ويتجسد من خلالها حضور الدولة، إلا أن الضمير الأهلي قد ظل ينيط الدولة وبأسها وقتاليتها بشخص الأمير.

وتلك في الحقيقة نزعة لا تزال إلى اليوم تلابس المجتمعات العربية- والمجتمعات المتخلفة عامة- بسبب ما تركز في الضمير الجمعي من انسياق للأبوة القبلية التي تسير على وصاية وتعليمات شيخ القبيلة وكبير جماعتها.

فالرقي المدني وتعمق ثقافة الاجتماع السياسي وحدهما يزيلان من الأذهان هذا السلوك غير المعقلن.

ونتيجة لتلك الحال كان الأمير يعمل بجهد على أن يكون موجودا في الساحة باستمرار من خلال عمليات التحسيس والتنظيم والتثقيف، ولا سيما بخوض المعارك على رأس المجاهدين.

بل إن حضوره كان أساسيا وباعثا على الطمأنينة وتجديد الهمة حتى بعد أن أضحت الجهات والمناطق تسير وفق نظام اللامركزية، وبعد أن تقوت إمكانيات الخلفاء وبات لهم من الوسائل والخبرة ما يجعلهم يسيرون شؤونهم المدنية والعسكرية على صورة مستقلة.

لقد كانت رسل الأمير لا تتخلف عن موافاة الخلفاء في كل جهات الدولة بالتعليمات والنصائح وبالاخبار. فالرسل والرسائل أضحت، حين توسعت جغرافية الجهاد، وسيلة أخرى للأمير يثبت من خلالها حضوره المباشر وإشرافه العملي على سير الجهاد والنظام. لقد رأينا حركة تنقل الأمير عبر الأقاليم و(الولايات) لا تتوقف، وقد كان يجد في فتوته وقوته الجسدية ما يمكنه من الدأب على الانتقال بين الجهات والاطلاع عن كثب على أحوال الإدارة والأهالي، وعلى اتخاذ –في عين المكان – الاجراءات التي تسهم في تحسين وضع المجاهدين وتخفف عن الأهالي بعض عناء المقاومة.

لقد رأيناهم يلقبونه– جراء حركيته الخارقة وتنقله الدائب السريع – أبا ليلة وأبا نهار، وما ذلك إلا لما شاع عنه من قدرة على إدامة السفر وطي الآماد بما يعد خارجا عن العادة.

لقد وجدناه ينفذ من قلب الهضاب الصحراوية في بضعة أيام إلى أقصى حدود الإمارة في الشرق مارا بأقصى حدودها في الشمال وفي بلاد القبائل، دون أن يستريح في جهة بعينها إلا على قدر ما يتفقد أو يحاضر أو يفصل في إشكالات اجتماعية أو تنظيمية أو شرعية، أو يجدد الموثق مع الأهالي ويواصل رحلته.

ومما ينبغي أن يسجل هنا هو تحول الأمير بأسلوب المواجهة العسكرية الحاشدة مع العدو إلى أسلوب المواجهة بالوحدات الصغيرة، فقد رأينا أنه في صدامات العهد الأول

كان يؤهب الأعداد الحاشدة من المجاهـدين، يواجـه بهـم الأعداد المضاعفة من فيالق العدو، لكـن التمـرس القتـالي الميداني سيملي على الأمير اعتمـاد اسـتراتيجية الحركـة بالكتائب والفرق المحدودة العدد.

لقد رأيناه يأخذ بهذا الأسلوب في أطوار كفاحه اللاحقة، لا سيما بعد أن تقوت معرفة العدو بالأرض وسـهل عليـه التنقل عبر ربوعها ومسالكها التي أمنّها من خلال ما أقام بها من مراكز.

لقد تحول الأمير بذلك الأسلوب التفكيكي والتكتيكي إلى منهجية حرب الكر والفر التي كانت خاصية قتاليـة عربيـة معلومة، الأمر الذي جنبه كثيرا الوقوع تحت طائلة الرصـد والملاحقة والمباغتة، إذ أن من شأن السير بالحشود الجرارة افتضاح الأمر وانكشاف الوجهة، وبالتالي الوقوع في شـباك ومباغتات العدو بسهولة، خاصة إذا كان هذا العدو قد أفلـح في تجنيد العيون والاستخبارات وتسليطها على الخصم.

ومن جهة أخرى تمكن الأمير - بذلك الأسلوب الحركي السريع - أن يكبد الأعداء بالغ الخسائر بفضل خطة المباغتة ومداهمة المعسكرات والقوافل والفلول الجرارة من حيـث لا تتوقع ظهوره.

بل لقد مارست القبائل البدوية نفسـها ذلـك الأسـلوب الهجومي الناجع، إذ باتت تباشر شن غارات النهـب علـى مقدمات الجيوش والقوافل أو على مؤخراتها خاصة فتفتـك

بالأعداد وتغنم السلاح والذخيرة والمؤن. لقد وجدت القبائل في هذا الأسلوب نشاطا جهاديا لم يكن ليسع الأمير إلا أن يشجعه ويشجع القادة على مباشرته من خلال وحدات عسكرية إلتفافية وتعقبية راصدة.

وربما وجدنا الأمير يزداد اقتناعا بأهمية هذا الأسلوب الجهادي المثمر على إثر واقعة الزمالة وخسارته المفجعة لعاصمته المتنقلة. لذا رأيناه يصعد منه، بل ووجدنا قادة الجهات تعتمده كلية مما أربك الأعداء وهددهم بوخيم العواقب لو لا أن الأوان كان قد فات والتصدع في البنية الجهادية قد تعمق.

لقد كان لحادثة الزمالة المدمرة أبلغ الدروس إذ رجحت لدى الأمير إن يتبع خطة الكفاح بواسطة الفرق المحدودة، لا سيما وأن العدو المحتل نفسه بات يتبع ما يشبهها ولو على نطاق نسبي، إذ أنه هو الآخر صار يوزع فرقه وفيالقه الجرارة وخاصة منها الفرق الأهلية التي تمكن من تجنيدها في صفوفه، ويرسل بها عبر المناطق تترصد وتلاحق المجاهدين.

بل إن واقعة الزمالة نفسها تمت على إثر تمكن بعض الفرق الاستخبارية من الأهالي المجندين الذين استنفرهم العدو لترصد حركة الزمالة ومعاينة الجهة التي تحط بها رحالها، فما أن تأتى للأعداء والخونة رصدها حتى باغتتها الفيالق من كل صوب، ولم يكن لها عندئذ من مدافع إلا حامية محدودة العدد، لا تتجاوز الخمسمائة محارب، لم

تتمكن من أن تصد الهجوم، وإنما استماتت تستنقذ بعض نفائس السلطان والدولة (أسرة الأمير وأبناؤه و..) وهو ما جعل الكارثة تتم على ذلك المستوى المُرْدي الذي ذهلت له البلاد من أقصاها إلى أقصاها وجعل الأذهان ترتسم المصير المحتوم للحركة الجهادية منذ ذلك الحين.

لقد كانت قيادة البلاد تعول كثيرا على الحرب الخاطفة وعلى اعتماد أسلوب الغارات كمنهج يمكنها من مواجهة العدو. ذلك ما وجدنا وزير الأمير عبد القادر للخارجية نفسه يؤكده لمحدثيه من القادة المحتلين في بعض لقاءاته معهم، فقد رد على أولئك القادة حين سمعهم يستعرضون أمامه أحجام القوة الضاربة التي كانت تحت أيديهم والتي في استطاعة فرنسا أن تهيئها لمواجهة المجاهدين، وحينئذ لم يكن في وسع الوزير إلا أن يكشف لهم عن طبيعة القوة التي كانت المقاومة تضعها في حسابها، والمتمثلة في شن الهجومات المباغتة والسريعة والتي هي من تقاليد الكر والفر عند العرب.

ومما لا شك فيه أن العدو المستعمر قد تكيف كثيرا مع أساليب الكر والفر التي كانت غريبة على نظمه القتالية، إذ كانت الحرب عندهم لا تزال محكومة بقيم الفروسية وبما يمكن أن يسمى أخلاقيات المبارزة الثنائية LE DUEL . ولذلك وجدنا المحتلين ينشئون قوات الزواف LES ZOUAVES والقوات الأهلية من الصبائحية والبغالين والقفالة (مستخدمي الجمال ) ويضمونها إلى صفوفهم ويخوضون بها الحرب ويحققون عن طريقها ما لم تستطع قواتهم الأصلية تحقيقه.

بل لقد وجدناهم يصطنعون حتى الزي المحلي لباسا لتلك الفرق العسكرية التي هيأوها استجابة للمطالب الحربية الميدانية، ولمواجهة فاعلية قتال الكر والفر الذي ظلوا يعانون من ضرباته ويعجزون عن السيطرة عليه.

وكانت شساعة الأرض تقتضي من الأمير أن يحل مسألة النقل والتنقل أو المواصلات، إذ الحرب كانت وسيلتها الخيل والوسائط الحيوانية الأخرى من بغال وجمال وغيرها.

لذا رأينا الأمير يحرص على التموين بالمركوب وتوفيره، لا سيما الخيل، إذ كانت المعارك تقضي على الأعداد الكثيرة باستمرار، وكان ذلك يتطلب وجود الاحتياط منها ومن سائر الدواب الأخرى، لذا وجدنا الأمير يعمد إلى اتخاذ حظائر إقليمية يجمع فيها المدد من الخيل والابل والبغال ويوقفها على الاستعمال الجهادي، وكان يبعث إلى الجهات بحاجتهم من المركوب كلما طلبوها.

ثم أذن بعد ذلك للمقاطعات والجهات أن تنشئ حظائرها الخاصة وتتولى استيفاء حاجتها من المركوب حسب ظروفها.

وإنه لطبيعي أن تعز الخيول في جو الحرب، لذلك رأينا حظائر الأعداء ومراكز إقامة المعمرين تضحى أهدافا لفرق المجاهدين، تباغتها ليلا خاصة، وتسوق الدواب والنعم الموجود بها، ولذا رأينا المحتلين يقومون بردود فعل مماثلة ويغيرون على حظائر المجاهدين ويأخذون احتياطها من

الخيل والدواب، الأمر الذي حتم على الأمير أن يصدر تعليماته إلى القادة والخلفاء في مناطقهم من أجل أن يستبدلوا نظام الحظائر بنظام تفريق الاحتياط الحيواني على المجاهدين وعلى الأهالي يتعهدونها لفائدة الجهاد.

ومن غير شك أن جهدا أهليا رعته الدولة قد بذل في تقوية السلالات الأصيلة من الخيل، وتعددت مراكز تربية الجياد لاسيما في سنوات الهدنة مع العدو، تكثيرا للطاقة وللمادة القتالية والتعميرية.

لقد استطاع الأمير أن يتحول على ذلك النحو التدريجي إلى نمط من التسيير والتموين لا مركزي تقريبا، إذ أنه كان يدرك أن انشغاله بالميدان وبالقيادة السياسية، لن يمكنه من أن يكون على أهبة دائمة لتلقي المستجدات والتصدي لما يطرأ على حياة الناس في المناطق المختلفة، لا سيما على مستوى العمليات الحربية، لذلك رأيناه يوكل مزيدا من المهام التسييرية إلى الخلفاء، وهؤلاء بدورهم كانوا يستعينون بمساعديهم.

فمهمة التسلح وتوفير الاحتياط من المركوب والمؤونة وما إلى ذلك أضحت مسألة جهوية تقريبا يتولاها الخليفة بنفسه.

فعلى صعيد التسليح مثلا، وجدنا الأهالي قد شرعوا في خوض أوائل معاركهم الجهادية بما كان يتوفر للأفراد من أسلحة بسيطة مع ما تمكنت الجماعات القيادية الأولى من

توفيره من سلاح وخيل وعتاد، مستغلين في ذلك ما كانت إدارة الأتراك خلفته وراءها سواء في يد من كانوا مجندين معها أو ما تركه الجنود الاتراك وراءهم في الحظائر والمعسكرات.

ولقد عرفنا حسبما صرح به الأمير في بعض المواقف، أنهم (الأتراك ) تركوا نحوا من ثلاثين مدفعا ثقيلا لم تكن كلها صالحة للاستعمال، بالإضافة إلى احتياط آخر من القطع والسيوف وما إلى ذلك، استغلها المجاهدون الأوائل وشنوا بها هجماتهم ضد العدو.

لكن توسع ساحة القتال وتزايد الطلب على التسلح، وحال الشحة التي كانت عليها تجارة السلاح، لا سيما بعد أن باتت الرقابة الاستعمارية مشددة على واردات البلاد منه، كل ذلك جعل الأمير يتطلع إلى تخطي الإشكال بصورة جذرية، فعزم على أن ينشئ مصانعه التسليحية الخاصة.

أجل لقد شجعه على ذلك وجود بعض مصاهر الضرب التي كانت في يد الأتراك والتي خلفوها معطلة، فسارع من ثمة إلى إعادة تشغيلها وتوفير الخبرة المسيرة لها من بين الأهالي، ثم بجلب تقنيين من المغرب، حيث أحضر مثلا مهندسا إسبانيا كبيرا كان لاجئا في المغرب واتخذه مشرفا على التصنيع في الدولة.

ثم استجلب تقنيين عسكريين من بلدان أخرى لا سيما ليبيا وتونس بالإضافة إلى متعاونين أوروبيين كانت الأجور

تغريهم على العمل بتلك المضارب، وقد انطلقت الأشغال وبدأت مصانع أخرى أقامها في عدة مناطق: في تلمسان حيث كانت تصنع المدافع، وفي تاقدمت حيث تصنع البنادق والذخيرة، وفي خميس مليانة وغيرها. وبذلك تجاوز الأمير إلى حد كبير إشكال التجهيز.

وربما واجهته مسألة توفير المادة المعدنية الخام التي كان استخراجها باهظ التكاليف، لذلك رأيناه يسعى جاهدا لحلها، وهذا بالتفاوض والتعاقد مع أوروبيين على إقامة علاقات تجارية، حيث كانت الصفقات تتضمن استجلاب مادة الحديد تلبية للحاجة الصناعية الحربية.

وقد شجع الأمير مساعديه وإدارته على ضرورة تحصيل الحاجة الوطنية من السلاح والذخيرة ولو حتى بواسطة التهريب، بعد أن تبين له انصياع الأوروبيين إلى تعليمات فرنسا بفرض حظر على الجزائر في مجال تجارة السلاح ومواد التصنيع، إلا أن الأمير تمكن من التعامل مع التجار الانجليز وربما مع غيرهم، وهو ما أثار فرنسا، إذ سرعان ما أدركت أن مالية دولة الأمير تصب في خزينة الانجليز وغيرها من الدول التي كان يتعامل معها.

وقد رأينا أن المناطق والأقاليم الجهوية تمكنت من أن تضمن مستوى تسليحيا مشجعا، لا سيما بعد أن راجت البندقية الوطنية التي باتت مصانع البلاد تسوقها للمواطنين وباتت تمثل سلاح المجاهدين، رغم التميز النوعي الذي كان يجعل من البندقية الأجنبية سلاحا مطلوبا ومضاعف القيمة.

ولما كان التفاوت النوعي ملحوظا بين القطعة المصنعة محليا وبين القطعة المستجلبة من الخارج وجدنا الدولة الجزائرية تشجع على أن يتسلح جنودها بالسلاح المستورد، لاسيما وأن صناعة السلاح الدولية كانت يومئذ بدأت تحقق التطور النوعي الحاسم، لذلك السبب رأينا القيادة الجزائرية تشجع على شراء الأسلحة الأجنبية، بل رأيناها تشتري حتى الأسلحة الأجنبية الموجودة في يد الأهالي وتجهز بها المجاهدين، وكان ثمن ما تدفعه للقطعة الأجنبية الواحدة مضاعفا يتيح للأهلي أن يتسلح ببندقيتين محليتين لما كان عليه السلاح الأجنبي من تطور قياسا بما كانت تصنعه مضارب السلاح الوطنية بسكتها القديمة وبخبرتها التي كان يتوقع لها أن تتطور هي أيضا.

بالإضافة إلى هذا فقد حرصت البلاد على أن تجد مصادر أخرى خارجية للتسليح إذ عملت على أن تسترفد حاجتها من التجهيز من أكثر من جهة، فقد كانت تبحث عنه في أسواق المغرب وفي ليبيا وتونس خاصة لما اشتهر به سلاح تونس الذي كان يستجلب من البندقية.

فالتزود بالسلاح وإيجاد مناطق خارجة عن رقابة العدو لشرائه كان نشاطا حثيثا يتوازى مع المضي في عملية صناعته وتوفير احتياجات المجاهدين منه.

**الأمير وإرادة بسط السيادة على كامل البلاد.**

حين تنشأ الدولة تحت وطأة الضرورة الدفاعية لا تكون إلا دولة حربية، والدولة الحربية وجودها قائم على ركوب

المخاطرة، فهي لذلك في سباق دائم مع الزمان والمكان، وربما تبدى لنا صحة هذا في خطة الأمير التي انتشر بها عبر نواحي البلاد، لاسيما النواحي الشرقية، حيث كان يوجد كيان محلي مواجه للأمير ومنافس له على صعيد بسط السيادة الوطنية وحكم البلاد.

لقد كانت خطة الأمير في هذا المجال التوسعي تنفذ إلى مقاصدها باستغلال رشيد للظروف، فقد كانت العوائق متعددة أمام تحقيق تلك الغاية، لا سيما وأن رهان احتياز الرقعة الوطنية وفرض السيادة عليها بات يتصارع عليه أكثر من طرف.

فمن جهة كان حكم أحمد باي يبني خطته على حسابات خارجية يراها كفيلة بأن تحقق له بسط شرعيته على الوطن بكامله، ومن جهة أخرى كان المحتلون يرتبون بصورة حاسمة لمد سيطرتهم على تلك الجهات بالتوسع العسكري وبالسياسة الاستدراجية وبالمطاولة، كمرحلة أخرى يتغلغلون بها في الوطن قبل أن يلتفتوا إلى بلاد الأمير التي كانت في وضع مستقل تقريبا، فيضموها تحت سلطانهم الاستعماري.

لذلك رأينا فاعلية الأمير الحربية تنجز مكاسب وأهدافا كانت في الواقع فوق سقف إمكانات دولته الفتية.

لقد كان المحتلون الفرنسيون يقدرون ما كان يقف وراء الكيانين الناشئين: حكم الأمير وحكم أحمد باي، من قوة

إسناد، لذا رتبوا قواهم لقمع كل من الكيانين لكن على مراحل وبالتوالي تقريبا.

لقد كانوا على علم بما كان يعتد به أحمد باي أو بما يعول عليه من دعم موعود من قبل الباب العالي، كما كانوا يدركون مدى الترابط بينه وبين دولتي تونس وليبيا وقد كانتا معا تحت نفوذ آل عثمان، يشتركان في الانتماء والعقيدة مع أحمد باي.

حقا إن ماضي العلاقات بين الجزائر التركية وبين جارتها تونس بل وحتى مع ليبيا في بعض الأحيان لم تكن بالطيبة دائما، ولكن احتلال الفرنسيين للجزائر كان قمينا بأن يجعل تينك الدولتين تقفان موقف التضامن والدعم لشعبها المسلم.

لذلك رأينا المحتلين يبادرون إلى وضع غراقيل كثيرة للحيلولة دون حدوث التقارب الجهادي المنشود.

ولقد تمت بالفعل اتصالات سواء بين أحمد باي وبين الحكومة التونسية والحكومة الليبية وكذلك بينه وبين الباب العالي بغرض طلب الدعم والوقوف معه ضد العدوان، وتكررت مساعيه في أكثر من اتجاه وبأكثر إلحاح.

لقد كانت مرامي أحمد باي- بطبيعة الحال - هي تحرير البلاد كلها ووراثة الدولة التركية التي سقطت.

لقد كان يرى نفسه أولى من غيره بالمناداة بالتحرير وباستصراخ الخلافة والأشقاء من أجل تحقيق ذلك الهدف، لذلك رأيناه يكثف من اتصالاته على أكثر من صعيد مع تلك الجهات ويتلقى وعودها، لا سيما من الباب العالي، لكن اليقظة الاستعمارية كانت بالمرصاد لتلك المساعي، إذ ما لبثت الحكومة الفرنسية أن فتحت باب المناورة والتهديد مع تلك الجهات، وتمكنت من أن تغري الباب العالي بوعود، وأن تكف يد تونس وليبيا عن تقديم أي معونة للباي، وهو ما جعل الباي يبوء بالخيبة بعد أن راهن طويلا على الدعم الخارجي، لذا رأيناه يلجأ آخر الأمر إلى توظيف أطراف ووسطاء منهم بوضربة وبعض اليهود، ويشتري وساطتهم لدى الباب العالي حتى بالمال، لكن الآمال خابت في النهاية واقتحمت فرنسا عليه حاضرته قسنطينة التي أظهر سكانها (وأنتليجانسيتها بالخصوص) أروع البطولات في الدفاع عن حماهم قبل أن تزيحهم عنه يد البطش، بما كان لها من قوة ولوجيستيك.

من هنا رأينا المحتلين يهادنون الأمير عبد القادر ويرجئون حسم الوضع معه إلى حين، إذ كانوا على بينة بأن صلات الأمير الخارجية لم تكن مستوثقة إلا مع جاره السلطان المغربي، لا سيما وأن المحتل أيقن من أن الدعم الخارجي وخاصة من الباب العالي لن يحصل له-الأمير- هو أيضا بعد أن عالجت الدبلوماسية الفرنسية الأمر مع دولة الخلافة ومع باي تونس وطرابلس، بل إنها كانت لا تعبأ حتى بتلك الصلة التي كان ظاهرها يعرب عن متانة الأواصر بين السلطان المغربي وبين الجزائريين.

فقد كانت قوة فرنسا من الاستحكام بحيث أمكنها أن تفرض نفوذها وتملي أوامرها على السلطان المغربي بكل سهولة، ولا أدل على ذلك ما كان لها معه حين أرسل بممثله أميرا على الجزائر. لقد بادر السلطان يومئذ إلى سحب ممثله وكف يده بمجرد أن أحس بالخطر يتهدده من قبل فرنسا.

بل إننا سنجده يتلقى التأديب العملي، بأن ضربت البحرية الفرنسية بعض موانئه كفا له نهائيا على التدخل في شؤون الجزائر والتجاوب مع المقاومين.

لذا سنرى التضامن بين البلدين يستمر على مستوى القبائل والجماهير بصورة أساسية، قبل أن تتفاقم ضغوط العدو على السلطان فيتحول إلى خصيم للأمير وللكفاح الوطني الجزائري.

من هنا وَسِعَنَا القول إن المخطط الاستعماري كان يضع في حسابه ضرب الجبهة الشرقية وتقويض صمودها الذي كان يرى فيه خطرا يهدد بنسف العملية الاحتلالية برمتها، مرجئا الالتفات إلى الجبهة الغربية التي كان يقدر امكانياتها على حقيقتها ولا يراها ستقدر على المطاولة أمام ما أعد لها من أساليب الإخماد.

إلا أن الأمير بروحه التدبيرية العالية لم يتح الفرصة للعدو كي يمضي في تنفيذ برنامجه على الصورة التي خططه فيها، بل لقد رأيناه يبادر منذ أول توليه إلى مزاحمة

العدو على الأقاليم التي كانت في وضع شبه متسيب، خاصة أقاليم الصحراء والتيطري والجنوب القسنطيني.

وما عتم الأمير أن زحف على تلك الأقاليم وعالج أوضاعها بالمهادأة وبالحرب وتمكن من أن يبسط السيادة على بعضها رغم الاعتراض القوي الذي أظهره المستعمر على عملية التوسع التي باشرها الأمير بعد امضائه المعاهدة الأولى.

لقد كانت بنود تلك المعاهدة غير وافية في رسم الحد الذي كانت تقف عنده سيادة كلي الطرفين، وربما كان القصد السياسي واضحا من وراء ذلك الابهام البندي، إذ أن الأمير كان ينظر إلى المحتلين على أنهم دخلاء لا ينبغي أن تخرج دائرة نفوذهم عن نطاق المدن والثغور التي أخذوها والتي كانت في أيديهم حتى ميقات التعاهد، لذلك لم يكن يشاء أن يدقق في التفاصيل مخافة أن يؤدي إظهار النوايا إلى إفشال المعاهدة.

ذلك لأن الأمير كان يقدر أهمية الهدنة التي توصل إليها مع العدو، وما ستتيحه له من امكانات تعميق السيادة على البلاد التي كانت تحت سلطته وضم الجهات التي كانت لا تزال خارج نفوذه.

أما المحتل، فقد كان يرى أن في ما أقره للأمير من أقاليم يقيم عليها دولته كان منة منه وفضلا، لذا ليس عليه إن هو عاهده على صلح أو هدنة أن ينص ببنوده على حدود

معلومة يعترف بها لخصمه، لأن ما كان يقر في حسبان العدو هو أن كل ما كان يخرج عن سيادة الأمير ساعة التعاهد كان معدودا من نصيب فرنسا وإن لم تكن قد وضعت عليه يدها بعد.

هكذا استعر السباق بين الأمير وبين المحتلين على احتياز الأقاليم الوسطى والشرقية، وبذلك غدت فرنسا تغص بمكاسب الأمير الكفاحية.

من هنا تجندت فرنسا بكل ما وسعها من سلاح وحسمت المنازلة مع أحمد باي بعد أن ارتكبت من الفظائع ما يخزي وما لا يزال محفورا في الوجدان الجمعي تشهد به ملاءات القسنطنيات الباسلات بلونها الحدادي الحالك.

وعادت بعد ذلك فكشفت عن نواياها الاحتلالية بسفور، لذا رأيناها تعمد إلى إثارة الأمير واستفزازه من خلال قراءة خاصة بها لبنود تلك المعاهدة، إذ راحت تصرفاتها الميدانية تظهر إرادة نقض تلك المعاهدة لكل ذي عينين.

بل سنجدها حتى في تعاهدها الثاني مع الأمير - الذي تم في عهد بيجو - لم تتفاوض معه إلا بدوافع قهرية داخلية وخارجية كانت تحتم على عسكريتها أن تهادن وتتوقف عن القتال حينا، لتعاوده حينا آخر ما أن تتمكن من جمع قوتها وما أن تأنس من نفسها القدرة على الصدام.

**الزمالة وحركية الكفاح.**

لئن تبدت لنا قتالية الأمير في خطـــة إنشـائه للجـيش الوطني المنظم وفي هيكلته لجهات البلاد بالفيـــالق والفــرق الخاصة، وفي توفيره للوجيستيك - إذا صحُ التعبير - مــن وسائل نقل وسلاح وذخيرة ومن اعتماده أســاليب مواجهـة ناجعة ومتكيفة فإن هذه القتالية تظهر أكثر ما تظهر في نظام الزمالة المتنقلة الذي استحدثه وواجه به عمليات الاكتســاح التي استهدفته من قبل جيوش الاحتلال.

والزمالة هي تلك العاصمة الكبرى المشادة مــن خيــام الشعر ومن القياطين، والتي استوعبت كل مرافق الحاضــرة معسكر ومؤسساتها المدنية والعسكرية، بأحيائهــا وأســواقها ومساجدها وشوارعها التجارية ومدارسها وأجهــزة أمنهــا وعسكريتها.

فالزمالة في التقاليد الجزائرية والاسلامية كانت عبــارة عن تجمع بشري يسير به الحاكم أو السلطان في تنقلاته عبر البلاد حين يقرر تفقد جهة أو تــدويخها أو أثنــاء ســياحته واستطلاعاته.

إذ كان السلطان أو صاحب الشأن يصطحب معه مرافقه الخاصة بدءا بزوجه وخدمه ومتاعه ومصلاه وما إلى ذلــك فضلا عن ديوانه وركابه من الجند والسلك المقدم لمرافقتــه والأفراد الذين يعتمد عليهم في الاستشارة أو في السمر أو في تنفيذ المهام العامة المختلفة.

لقد كان الرسول (ص) يصطحب معه في المعارك بعض أزواجه وخادمه، وكان ذلك بمثابة شكل مبسط لزمالته (ص) إذ لم يكن الشأن عنده شأنا ملكيا دنيويا يهتم بالمناحي الحياتية والتمتعية. لقد كانت خرجات الرسول (ص) جهادية، فكان يقتصر على مصاحبة الزوجة والخادم حتى لا يكون عالة على صحابته من حيث خدمته والوقوف على حاجاته.

وشأن الملوك قديما هو الخروج بحواشيهم وأتباعهم في ظروف الحرب والسلم، فحلهم كترحالهم سواء بسواء، وكذلك كان ملوك المسلمين يفعلون لا سيما عندما يحجون مثلا، فرحلة الحج كانت تتم في شكل زمالات كبيرة قوامها القوافل الجرارة والجيوش الكرارة.

وقد اشتهر الحكم التركي في الجزائر باتخاذ نظام الزمالة في خرجاتهم لتفقد الجهات واستخلاص الأتوات أو اللزمة كما كانت تسمى، حيث كانوا يصطحبون معهم قبائل معينة أو حاميات تتكفل بإمداد الجيش بما يقتضيه السير والانتقال عبر المناطق، من حيث توفير الأعلاف وتدبير لحوم الجيش وطعامه وحماية الجند من مباغتات القبائل العاصية التي كانت تتحين الفرص لمهاجمة المحال العسكرية التركية.

وحين اشتدت المواجهة بين الأمير عبد القادر وبين الغزاة وتصعدت أعمال القتال بينهما وألقت فرنسا بثقلها الأوروبي - بتجنيد المرتزقة من كل الآفاق واستجلابهم تحت وعود الإستيطان في أرض الجزائر- كان على الأمير أن يثبت ما وسعه الثبات خاصة وأنه بات يدرك أن الحرب

كانت تستهدف القضاء على الدولة ذاتها، ولم تعد مجرد نزالات تفضي إلى مفاوضات ومهادنات تنهض بها الدبلوماسية.

لقد تبين الأمير أنه بات المستهدف من حيث كان التركيز يستهدف الحاضرة معسكر، تلك الحاضرة التي رأيناها تضحى هدف الحملات الاحتلالية منذ أول المقاومة، لذا كان على الأمير أن ينشط عمليات الكفاح على طول الساحة الوطنية مبددا ما أمكنه التبديد الضغوط القتالية المكثفة من حوله.

من هنا رأينا الخلفاء جميعا ينخرطون بجيوشهم وأتباعهم في معارك ضارية ويشنون اشتباكات هجومية مؤثرة زعزعت العدو وأربكته في جل المواقع التي واجهوه فيها، لكن التصميم الاستعماري على الصمود وتسديد الردود كان قويا، لذلك رأينا الجيوش الاحتلالية رغم تسجيلها انهزمات عديدة وتراجعات متكررة على أكثر من موقع، إلا أنها ظلت تجهد على أن تتثبت وتتصدى لمحق مصدر الحطر ذاته، وهذا بأن تلقي بثقلها على اكتساح العاصمة معسكر، إذ كانت تدرك أن مستقبل المقاومة رهين بمستقبل الأمير، لذلك راهنت على القضاء على عاصمته كخطوة إجهازية أولى، وربما نهائية، تكسر بها عنفوان المقاومة.

وصمد الأمير واستطاع أن يشن الهجمات الإلتفافية وأن يكثف من الاختراقات الموفقة من خلال إصداره الأمر للخلفاء بالدخول في المواجهات الحاسمة، لكن الأمير ما لبث

أن رأى الضغط المتزايد والعنيف والمركز يرغمه على إخلاء العاصمة معسكر، وكان الانخراط الجهادي الذي عم المجاهدين الصادقين في معسكر وما تاخمها يهون عليهم التخلي عن كل شيء إلا عن السلاح.

وهكذا انسحب الأمير واتخذ الزمالة عاصمة له، وكانت تضم سائر الأهالي الذين كان الوازع الجهادي يملأ قلوبهم ويشحذ عزائمهم للمضي قدما مهما ضخمت التكاليف.

على ذلك السبيل أصبح الأمير يتولى مقاليد البلاد ويمارس السلطة من على صهوة الجواد، وأضحت - فعلا - رواحل الإبل وظهور الدواب دواوين ومرافق إدارة وتسيير عامة متنقلة.

**الهجرة والوجدان الجمعي الجزائري.**

لم تكن تلك أول تجربة تهجير جماعي يعيشها الأمير، فقد سبق في أوائل عهد الاحتلال أن أمر سكان الثغور المحتلة -كما رأينا - بالهجرة من مواطنهم تفاديا لما قد يؤديه التساكن من خدمة للعدو وتجنبا لدواعي التفاعل والميل إلى المحتلين.

وقد رأينا كيف استجابت آلاف الأسر من الأهالي لأمر الهجرة وكيف استطاعت أن تتحمل الأعباء وأن تواصل حياتها الجديدة في كنف الجهاد والتنقل عبر المناطق متكيفة مع واقع التبدي الذي باتت تعيشه، معولة في سد بعض

حاجتها على ما قدرت الدولة أن توفره لها من مساعدة من بيت مال المسلمين.

والواقع أن تجربة الهجرة لم تكن جديدة على الأهالي، بل لقد رسخت في ذاكرة الأجيال أخبار وأطوار عن هجرات كثيرة بعضها لا يزال قريبا، حيأ في الحس، وبعضها الآخر أضحى دارسا، طوته الذاكرة ولفه النسيان، وربما كان قصص الهجرة الهلالية في القرن الرابع وما تلاه أهم ما تختزنه ذاكرة الأهالي الجماعية، الأمر الذي جعل نوابض الثقافة الشعبية المتداولة بين الأوساط الأهلية في عصر الأمير، بل وإلى قريب من أيامنا هذه، تتضح بعاطفة الحنين ولواعج الغربة ومفارقة المضارب والأوطان.

لقد ظلت أخبار زاجية وذياب بن غانم مادة التخييل الأساسية التي كان يشب الطفل الأهلي وهو مأخوذ بتفاصيلها.

لقد كانت الهجرة منذ عصور الفتح الاسلامي سلوكا تعبويا تنساق له الجموع كلما أحست بخطر لا تستطيع رده أو عنتٍ لا قبل لها بمواجهته.

ولقد ظلت جغرافية البلاد السكانية تتغير على مدى القرون بفعل جدلية الحل والترحال. فتاريخ البلاد تاريخ هجرة مستمرة لا تتوقف، ألم نعش اليوم ونحن أحرار حالة من التوق إلى مغادرة الوطن تعم الأوساط والأوساط الحية؟ ألم تقم لنا جالية معتبرة وراء البحر قوامها مهاجرة شقوا

البحر إلى ديار عدو الأمس طلبا للحياة ؟ ألم تكن سنوات الحريق الحالية منعطفا مدمرا ركز في الوجدان الجمعي غريزة المقاومة بكل سبيل، لا سيما بالهجرة ومفارقة الموطن؟

وطيلة التاريخ الاسلامي، ظلت الأندلس أرض مهاجر للمغاربة، كما ظلت ربوع بلاد المغرب العربي مسرحا لحركة أهاليه بربرا وهلالية. فضلا عن الوجهة المشرقية التي كانت مفتوحة أبدا أمامهم، إذ لم يكن الوازع الديني وحده هو الذي يشد المواجد الفردية والجماعية إلى بلاد المشرق، بل لقد كان الحنين الغامض والنابع من الأغوار، والمشدود إلى الأصل الأول وإلى البيئة الأم، هو الذي ينزع بالأفراد والجماعات إلى طروق تلك الأوطان كلما دعا الداعي.

وعند دخول المستعمرين هبت الجموع من أهالي العاصمة وضواحيها إلى الهجرة نحو الداخل خاصة، لأن الاستجابة التي رسخت في الضمير الجمعي بإزاء اجتياحات الكافر العدوانية هي الهجرة ومبارحة الموطن. بذلك استجاب المسلمون في الأندلس لأعمال التنصير، وبذلك استجاب أيضا أعقابهم ومن انضم إليهم من أهالي الحاضرة الجزائر عندما داهمها الاحتلال الفرنسي.

في هذا السياق الجهادي غادر الأمير حاضرته ليتخذ من أرض الله متنقلا ومقاما، وليواصل المرابطة مع المجاهدين

على ظهور الخيل، لا تثنيهم عن الإيفاء بموثقهم موانع مهما تفاقمت وعظمت.

وربما تساءلنا لماذا اختار الأمير سبيل الهجرة على ذلك النحو الجماعي الحاشد، والمتمثل في حاضرة مترامية بكل مرافقها، يتحرك بها من صعيد إلى صعيد، هو الذي أدرك أن النزال بينه وبين أعداء الوطن بلغ درجة الحسم القصوى، ولا قبل له معها بمواجهتهم مثقلا ؟

أما كان الأوفق أن يتجرد مع جيشه للمنازلة المسلحة، وأن يتخلوا عن الأهل والمتاع ليحيى من حيي بعزة ويهلك من هلك عن شهادة ؟

إنه لمن نافلة القول التأكيد أن الحرب التي خاضها الأمير ضد الفرنسيين كانت حربا ضد الكفار، وأن المرجعية الثابتة في ضمير المجاهدين أثناء ذلك إنما كانت سيرة السلف بدءا بالرسول (ص) وأخبار المسلمين ووقائعهم في منازلاتهم مع الأعداء لا سيما في عهود الضعف والانكسار، ولذلك كان أمامهم الأخذ بسنة الهجرة واستنقاذ النفس والدين وحفظ البيضة.

فملجأ الهجرة كان يومئذ هو المخرج الراجح الذي انقادت له الجماعات وقياداتها باحتساب وتسليم.

على أننا من جهة أخرى وجدنا أسلوب العدو المحتل في القتال كان في العهد الأول للاحتلال لا يزال يعتمد على

المواجهة المكشوفة ومقابلة الصفوف بالصفوف في منازلات ميدانية.

فقد كان القرن التاسع عشرة بأوروبا لا يزال – وفي كثير من جوانب قيمه القتالية – موصولا بالماضي وبثقافة المبارزة الرأسية LE DUEL. فلا غرو أن نجد الحروب الأوروبية في تلك الحقبة تتبع أسلوب المواجهة الصفوفية والمكاثرة والتخذيل العددي، ولذلك سنجد كثيرا من كتابات العسكر الفرنسيين تصف العرب بالجبن حين رأوهم يرجحون أسلوب الكر والفر بدل المنازلة الصفوفية العيانية.

من هنا لا يمكن إلا أن نتوقع من الأمير أن يتخذ تلك التدابير الحركية والتكتيكية التي اتبعها حين ضيق عليه الأعداء الخناق وسعوا إلى إجهاض جهاده عنوة. وستتعلم الشعوب المستضعفة كيف تواجه جيوش المحتلين باستراتيجية ما سيعرف بحرب العصابات التي تمرس بها الأمير خلال كفاحه الطويل، إذ لم يكن أمامه للثبات حيال اللوجيستيك الأوروبي الغاشم إلا ما ورثه عن السلف من صيغ حربية تقوم على خطة الكر والفر كما أسلفنا.

لقد هجر الأمير حاضرته بكامل أعدادها وعتادها تقريبا لأن المدافعة عن العرض والمال والدين كانت من كليات الإيمان، ولذا لم يكن منتظرا من الأمير أن يغادر حاضرته مع رجاله ليترك المحارم والصغار نهبا للانتهاك والتنصير والإذلال. لذا اختار الأمير أن يهاجر بكامل جاهزيته المادية والبشرية وأن يتخذ الزمالة عاصمة متحركة لا لتكون

وسيلته في إدارة البلاد والتكفل بحاجة الجهاد الدفاعية والتمويلة فحسب، ولكن لتكون أيضا ملاذا منيعا يحفظ العرض ويصون الشرف ويحمي البيضة من الباغين.

ثم لا ننس الانقلاب السلبي الخطير الذي كان الأمير يراه يطرأ على الجهات التي كان المحتلون يتغلبون عليها، إذ سرعان ما كان الأهالي هناك يخنعون لسيطرة العدو، بل إن بعض الجهات كانت لا تتردد في مسالمة العدو ورفع الراية البيضاء تجنبا لعناء الجهاد وأعباء الاستنفار.

فمساكنة العدو كانت مدعاة لإضعاف الحمية في النفوس، من هنا كان الأمير يحرص على أن تسير معه الجموع التي كانت تقيم في حاضرته حيث يسير، صونا لها من أي عنت أو وهن.

فالأمير من خلال اتخاذه الزمالة وتجنيده لعشرات الآلاف من الأهالي عسكرا ومدنيين نساءا ورجالا في زمالته، إنما كان يبسط جناحيه على تلك القوة الأهلية التي أضحت في تلك المرحلة تمثل مادة الصمود والطليعة الضاربة التي تضع نفسها في المقدمة.

لقد كانت- فعلا- الزمالة بجموعها هي القلب النابض الذي ينبغي أن يحتفظ بقوته وحيويته حتى يستطيع أن يمد الجهات في باقي الوطن بالمدود والدعم والإسناد.

فالزمالة كانت بهذا المنظور مجمع الطاقة القتالية، والكيان الأهلي النخبوي الذي أفرزته تجربة الجهاد بتقلباتها الشاقة. ولا غرابة أن يكون الأمر كذلك إذ ما أن وقعت الزمالة في يد العدو حتى بدأ العد التنازلي يتجه بالأحداث الجهادية نحو النهاية.

لقد أسفر ذلك الحادث الجسيم – سقوط الزمالة-عن خسائر معنوية ومادية مدمرة تمثلت في فقدان الدولة لتلك السطوة التي كانت لها حتى وهي تأخذ بشكل الزمالة المتنقلة تكيفا مع دواعي القتال، وتمثلت أيضا في ضياع تلك النوعية من الرجال ورجال الفكر خاصة الذين استشهدوا أو أسروا أثناء الواقعة المشؤومة.

ونذكر منهم في هذا السياق شخصية واحدة على سبيل التمثيل هو السيد أحمد بن رويلة أحد عمال الأمير وكان عالما وشاعرا مبرزا، فقد وقع في الأسر في تلك النكبة هو وأسرته، وكان لفقده مع أمثاله المبرزين عميق الأثر في صفوف المجاهدين.

وسنرى الأطوار تتقلب بهذا المجاهد المثقف وتسوقه إلى الحرم الشريف حيث سيجاور قبل أن يقدم على الأمير عبد القادر في بلاد الشام حين استقر هذا الأخير فيها، كما سنجد من جهة أخرى ابنه – وقد وقع في الأسر في جملة آلاف الأسرى- ينقل مع أمثاله من الصبيان المأسورين إلى فرنسا، فيُنَشَّأ تنشئة عسكرية في مراكز عسكرية ليعود بعد

ذلك ضابطا مجندا للقضاء على الثورات التي أعقبت حرب الجهاد الأولى التي قادها أبوه بمعية الأمير عبد القادر.

وستكون ذروة المفارقة في تلك السيرة حين سيقضي هذا الضابط الأهلي نحبه على يد المجاهدين في أحدى انتفاضات الجنوب، حيث هلك متغرب اللسان والفكر وربما حتى العقيدة بعد أن حولته النكبة الاستعمارية رغما عنه إلى عدو للبلاد، مارق عن الأهل والملة، هو سليل الخليفة وابن العالم الديني والشاعر الذي كانت تزدهي ببلائه المناسبات الدينية والجهادية.

ومن غير شك أن تجربة هذا الفتى لم تكن فريدة من نوعها في تلك التقلبات المفجعة التي أحدثها الاحتلال، بل لقد عاشت فئات من الأهالي مثل تجربة الضابط بن رويلة المتغربة كما قد نرى ذلك في حينه.

لقد كانت واقعة الزمالة من أفجع ما عاشت البلاد من انتكاسات مردية خلال مقاومتها في تلك المرحلة، ولو لم يكن إيمان الأمير قويا وثقته في الله راسخة لكانت واقعتها هي الخاتمة المفجعة لمقاومته. لقد تلقى الأمير نبأ تلك النكبة برباطة من الصبر والاحتساب ما كانت لتبرز على ذلك

المستوى من القوة والتسليم القدري لو لم تكن أعماقه عامرة بالإيمان[34].

لقد قضى مدة يناجي ربه مختليا بنفسه، يستعرض الفداحة الكبرى التي لم تصبه كقائد من جملة قادة الجهاد فحسب، ولكنها أصابته إلى ذلك كزغيم أناطت به الأمة عهدتها.

وخرج من حال التفرد والصمت التي لاذ بها ليلقي بضع كلمات على المجاهدين، وليس فيهم واحد إلا وقد فقد متاعه وأهله أو بعضا منهم، قال لهم الأمير بهدوئه المعهود:
إنه قضاء الله ولا راد لقضائه، إنما الحمد الله واجب علينا لما ابتلانا به، والشكر له خالص على امتحانه إيانا، إذ جعلنا بهذا البلاء أكثر قدرة وأشد تصميما على مواصلة الجهاد، بعد أن لم يعد لنا ما نخشى على فقدانه.

لقد كانت الضرورة التعبوية وراء اعتماد نظام الزمالة على ما عرفنا، إذ أن افتقاد الأهالي والقبائل للعدة الهيكلية وغياب التأطير المادي كان مدعاة ليأسهم وباعثا على انسلاخ كثير منهم من الصف. من هنا كانت الزمالة من خلال حلها وترحالها بين القبائل وعبر الأرجاء عنوانا على سلامة المقاومة وقوتها وتماسك صفوفها.

---

[34] – وجدنا أنفسنا نعيد الحديث عن هذا الموقف الفاجع لاحقا، ولم نشأ حذفه، لأننا لم نشعر أننا وفقنا في الحالين للتعبير عن لواعجه بما تستحق. وليس مثل القصص إطارا لتصوير مثل هذه الأحداث الجسام التي يبتلى بها الانسان المؤمن.

فالزمالة من هذا الجانب كانت تحتفظ للدولة بصبغتها الوجودية وترمز إلى دوامها وحضورها، كما أن الزمالة بطبيعتها المتنقلة كانت تسعف القادة والهياكل المركزية على أن يقتربوا من الأهالي في مختلف الجهات، إذ لا ننس أن دواعي التجنيد وبث الوعي وشحذ الهمم كانت ملحة على الدوام، فبعد كل تقهقر أو انهزام أو خسائر كان لا بد أن تتصدى القيادة لرفع مستوى الوعي وتقوية العزائم وذلك ما كان يقوم به القادة ورجال التوعية وأهل الوجاهة ممن كانت تضمهم الزمالة.

ولا عجب إذا ما تذكرنا أن سقوط الزمالة إنما حدث وجيش الأمير غائب عنها، حيث كان يصادم الفيالق المتعقبة له في نواحي تاقدمت، وهو ما يبين طبيعة الدور الذي كانت الزمالة تقوم به، إذ كانت تنهض هي أيضا بوظيفة تحسيس وتجنيد من خلال محطات حلها ورحيلها بين المداشر والقبائل، كما أنها لم تكن تكلف القيادة عناء توفير الحاميات الكبيرة التي ترابط على أبوابها لرد العدوان عليها كما كان حال الحاضرة معسكر، إذ أن الزمالة بصبغتها الحركية كانت تكفي نفسها بنفسها من حيث الحماية والمدافعة، إذ لم يكن يلزمها أكثر من بضع مائات من الحراس يتنقلون بها ويقومون على رعاية النظام فيها، هي التي كانت تناهز في بعض أطوارها مائات الآلاف من الأنفس[35]. ولم يكن وقوع النكبة إلا بفعل الخيانة كما أشرنا أعلاه.

---

[35] يذكر أن الأمير أوقف عليها زيادة على بضع مائات من الجند، أربع قبائل أو كل إليها حمايتها. وذلك تحوط كاف للذود عنها لو لم تكن حادثة احتياجها

ولو تساءلنا الآن هل كان هناك أسلوب آخر أمام الأمير كان سيستطيع أن يؤدي من خلاله وظيفته كأمير للبلاد وعلى جاهزية إدارية فعالة ومقنعة خارج إطار الزمالة ؟

لا نحسب أن ذلك كان ممكنا، لأننا سنرى الأمير حتى بعد أن سقطت زمالته سيستمر على اعتماد نفس خطتها (بنيتها )، بحيث رأيناه ما لبث أن رمم الزمالة من جديد واستمر في قيادة الجهاد وهو يتنقل بها من مكان إلى آخر.فلو كان أمامه خيار آخر بديل لوسيلة الزمالة لما تردد في الأخذ به كما نعتقد.

وينبغي لنا أن نفترض الآن أن الأمير حين صمم شكل الزمالة وأخذ بها كحل عملي وتجنيدي يستعيض به عن حاضرته معسكر التي أخرجته منها الجيوش الاحتلالية بالقوة والضغط، إنما كان يتوقع سرعة انحسار المحتلين عن الحاضرة تحت تأثير الهجومات والصدامات التي سيشنها عليهم المجاهدون، إذ أن تحرير العاصمة في تلك الظروف كان من أهم أولويات المقاومة لما في ذلك التحرير من إظهار للقدرة والفاعلية القتالية وقوة الشوكة أمام الشعب وأمام العدو نفسه.

---

=مدبرة وعلى صورة مباغتة . والحرب دائما تدار بفقه الخدعة. أجل فقه الخدعة الذي نعدمه نحن المسلمين .

لكن تلك الغاية الاستراتيجية لم تتحقق للأمير، بل إن الذي تحقق هو العكس: خسارته للزمالته رمز المنعة والإصرار.

إذ خابت آمال الأمير ولم يتمكن من أن يقلب الكفة لصالحة كما سبق له أن فعل مع المارشال كلوزال عندما هاجم حاضرة الملك معسكر في مرحلة أولى من الجهاد، ففي تلك الكرة توقى الأمير الضربة بأن أخلى الحاضرة ومعه سائر سكانها، ليدخلها العدو ولكن لا ليكمث فيها، بل لينسحب منها سريعا تحت الضربات المركزة والحصار المضروب من حول فلوله، بعد إحكام القبضة على الطرق وقطعها في وجه وصول الإمدادات إليه[36].

وهو ما لم يتكرر للأمير ثانية، إذ أن خروجه الأخير من حاضرته كان خروجا نهائيا لأن ظروف القتال وخبرة العدو بالأرض وما أقامه من مراكز وما ضمه إليه من نواح وقبائل سخرها في تحقيق مراميه التوسعية الاحتلالية قد جعله يدخل الحاضرة معسكر ويستقر بها ويشرع منها في مد جسور أخرى إلى جهات أخرى يحتلها ويتمركز فيها.

---

[36] - نزعم روايات أن المارشال غادر الحاضرة معسكر في يومه بسبب سوء صحة ابن الملك الذي كان على الجيش أن ينقله إلى حيث يعالج ويستريح. والحقيقة في رأينا غير ذلك، إذ أن المقاومة التي خرجت تاركة كل ما تملك وراءها قد عزمت على أن تجعل من معسكر قبرا للأعداء

بل سنراه يضع على رأس خططه الوصول إلى تلك المراكز الحضرية والحربية التي أنشأها الأمير في داخل البلاد وعبر مناطق عديدة رمزا لحضور الدولة ونشرا لقواتها في الأرجاء، ومن جملة تلك المراكز سبدو وسعيدة وتاقدمت وتيزي بنواحي تيسمسيلت وغيرها من المدن الجهادية الجديدة التي أدت دورا بارزا في توطيد النظام وفرض الأمن واستقطاب الأهالي إلى الدولة، لا سيما أثناء فترة الهدنة مع العدو.

فمن خلال تلك المراكز التي توسعت سريعا من حيث الاعتبار السكاني، بسبب ما بات لها من أهمية اقتصادية وتجارية واجتماعية نشطت بها الحياة الوطنية بصورة لا تنكر، تمكنت دولة الأمير من أن تخطط سياسة دفاعية قارة، فقد كانت مساحة البلاد المترامية تمكن العدو بسهولة من أن يخترق الحدود باتجاه الأمير، وكانت قوات المجاهدين تتمركز فقط في نقاط محددة بالجهات والأقاليم، أي في مقر القيادات المحلية تقريبا، وهو ما كان يؤخرها في الاعتراض على الاختراقات والمناورات التوسعية التي كان العدو يقوم بها كلما أمكنه ذلك، لذلك باشر الأمير تشييد تلك المراكز والحواضر توزيعا لقواته العسكرية وحتى الإدارية في الأماكن الحيوية، منعا لتسربات العدو.

ثم إن الأمير من جهة أخرى كان يلمس أهمية تلك السياسة التعميرية والأمنية التي كان العدو نفسه يتبعها.

فالعدو طفق يسارع إلى إقامة المراكز العسكرية كلما توسع في جهة من الوطن، يحفظ بها المستعمرات الزراعية التي بدأت تظهر في المناطق التي سيطر عليها، ويؤمّن بها حركته وتمركزه في الجهات التي استولى عليها، الأمر الذي كان يجعله في تأهب دائم للتوسع.

فحتى تلك الضربات لتي كانت تصيبه على يد المجاهدين كان لا يلبث أن يتجاوزها لأنه أدرك قيمة تثبيت الانتشار على الأرض وإقامة المراكز التعميرية حيثما تم له الفتح. من هنا رأيناه يستغل حتى تلك المراسم الأثرية للمدن والمراكز القديمة، فيعمل على إقامة مراكزه بها، لما كان يستدل به من خلال تلك الآثار على صلاحية المكان وملاءمته للتعمير، فضلا عما كان يسعى إلى بعثه من ماض احتلالي روماني للبلاد، لذا سنرى جملة من الحضائر الرومانية الدارسة تنبعث على يده ويعاد تشييدها من خلال إقامة مراكز للجند والمعمرين بها.

إن المتتبع لتلك الأحداث يتبين أن خروج الأمير الأخير من معسكر لم يكن خروج من يطمع في العودة إليها بنفس السهولة التي حصلت في الأولى، لقد رأينا الأمير يوم غادر حاضرته في المرة الأولى يغادرها ولم يكد يحمل معه شيئا، ربما للمباغتة التي أخذه بها العدو، أو لأن الخطة كانت لا تخلو من مناورة تبيت للكر.

إذ خلف يومها أشياءه ومنها حتى ما كان تشريفاتيا لا يستغنى عنها كمظلة الملك مثلا، فقد رأينا الأيدي تمتد إليها

وتسرقها في جملة المسروقات التي ارتكبتها بعض القبائل المتربصة ( الدوائر والزمالة )، لا سيما وأن الغزاة حين حلوا بالحاضرة معسكر بادروا إلى إضرام النار في دورها، الأمر الذي شجع الأعراب ومن إليهم على أخذ ما وقعت عليه أيديهم.

لكن الأمير في خروجه الثاني وجدناه لا يترك وراءه شيئا بتاتا، لكأن الأوامر قد صدرت منه هذه المرة للناس والجند والإداريين بوجوب حمل كل شيء معهم، لأن الأمير - بلا شك - كان يعي أن مصيره في تلك الحاضرة قد حسم - ولو لمدى غير قريب- وأن عليه أن يتحول بالجهاد إلى استراتيجية استنفارية قصوى من أجل أن يفرض على العدو الاعتراف به وبسيادته على وطنه.

من هنا سنجد واقعة سقوط الزمالة تتكشف على ذلك التصميم الذي كان يلابس قلوب الناس ويجعلها تقطع بأن مغادرتهم للحاضرة[37] إنما كانت هجرة نهائية، وأن عليهم أن يحملوا كافة متاعهم وممتلكاتهم في أيديهم، فلا أمل هناك في عودة قد يساورهم فيغريهم بطمر شيء ما لوقت الرجوع.

لقد رأينا الأمير عبد القادر نفسه يوم سقوط الزمالة يصاب في مكتبته، لأنه حين خرج مهاجرا خرج وفي أعماقه شعور بألا عودة هناك في الوقت القريب على الأقل، فلم

---

37 — الزمالة كانت تضم في الحقيقة حضائر أخرى زيادة عن معسكر، إذ أن سائر من لبى نداء الهجرة ومجاهدة العدو وعدم مساكنته قد انضم إلى الزمالة .

يستبق وراءه شيئا. كما أن اصطحابه للمكتبة في تلك الهجرة المتنقلة، لمما يبين أن التخطيط للهجرة كان يتوقع امتدادها الزمني، لذا تحوط الناس ومنهم الأمير للأمر وحملوا معهم التجهيزات حتى الثاقفية والتعليمية منها، لأنه لا يتصور أن يسلخ الأهالي وأبناؤهم خاصة وقتا من غير تعليم. ومكتبة الأمير كانت بمثابة المكتبة الوطنية العمومية التي يرتادها الجميع ويسهم في إثرائها الجميع. لذا كان حملها معهم إلى المهجر مطلبا حيويا لم يفرطوا فيه، كما لم يفرطوا في غيره.

وفي هذا الصدد لابد أن نسجل الجاهزية الكبيرة التي كان عليها سكان الزمالة، فقد كانوا يتوفرون على عدتهم وأموالهم، بل لقد عملوا حتى على إنمائها، إذ أن الزمالة استمرت على تعاطي نشاطها الاقتصادي والتجاري محليا ومع المدن والجهات الوطنية الأخرى.

من هنا رأينا الجيش الاستعماري بفيالقه التي تساندت في اجتياح الزمالة يستغرقهم جمع الغنائم الطائلة من ثياب ومتاع وخيل ونفائس وقتا يعد بالأيام[38].

بل لقد انتهى الأمر بتلك الجيوش إلى أن تتقاسم الأموال من ذهب وفضة ومال عيني بالقباعات والأقواز، وكل ذلك لأنهم وقعوا على مدن وليست مدينة واحدة كانت الزمالة تضمها في كيانها، وتنتقل بها وبكامل مؤونتها ومدخراتها النفيسة.

---

[38] -تذكر بعض الروايات أن اقتسام المغانم دام ثلاث أيام .

انتهت أنباء النكبة إلى علم الأمير وهو ينازل قوات العدو في نواحي تاكدمت[39]، فاهتز للأمر وأوشك ألا يصدق الخبر المفحم، فقد كان يحرص على أن يحارب الجيش الاستعماري بخلقية الأبطال وبمراعاة قواعد الحرب، لكنه ها هو مرة أخرى يرى نفسه يقع ضحية حسن الظن في شرف العدو الذي أبى - بذلك الفعل الجبان- إلا أن يغدر بالآمنين ويغيرعلى المدنيين العزل.

ولأن تلك الضربة القاسية لم تكن الأولى مما أصابه على يد العدو، ولأن روحه قد تعودت منذ أن انخرطت في الجهاد على ملابسة الامتحانات الشاقة وتلقي الضربات الأليمة، وجد الأمير نفسه مرة أخرى في مواجهة القدر، السيف في اليد والقلب الذي شب على التسليم بما يقضي به القدر لا يزال يخفق بالإيمان.

والتفت إلى المجاهدين، ليس منهم هناك أحد إلا وقد أصيب في أهله أو متاعه أو في عزيز لديه، وتطلعت الأنظار إلى القائد الذي تعودوا أن يتلقوا منه التعليمات والتحميس حربا وسلما. ولم يشكوا أن الجدار الذي ظلوا يستكنون تحته في الملمات سيهوى هذه المرة لجذرية الفاجعة، واسترسل الصمت حينا. أمة من الرؤوس المنكسة والملامح المشوهة تدحرها الفاجعة فلا تجد إلا الصمت سبيلا لمواجهة الصدمة والعار .

[39] ـ كتبنا تاكدمت في موقع آخر بالقاف، والاسم واحد.

وتحرك الأمير لمصلاه يناجي ربه وينحني له وتنحني من ورائه الصفوف، ثم يقف فيهم خطيبا، فيسمعونه يكلمهم ليس بنبرة ذلك الصوت الذي تعودوا لعلعته في كل المواقف، ولكن بدا لهم أن النبرة في ذلك المشهد اكتسبت شيئا من الخمود و الخفوت غير المعهودين لديه حين يخطبهم، وسمعوه يثبتهم ويعظهم ويؤكد لهم أنه قضاء الله، وسرت السكينة من ثنايا الصوت إلى النفوس، وتحركت الرؤوس في هون تؤمّن على ما تسمع وتستغفر وتسأل العوض والمثوبة.

ثم حمل المبعوثون رسائل القائد إلى الجهات والأقاليم التي كانت أخبار الفاجعة قد انتهت إليها، تدعوهم إلى الثبات والصمود، وتذكرهم بأفضال الجهاد ووجوب الإذعان لما يقضي به الله وتقبل البلاء والتضحية مهما كانت جسيمة.

على ذلك النحو الرجولي والقيادي الفذ، تخطى الأمير بالمجاهدين والأهالي والوطن آثار تلك المحنة الكارثية التي ظل المستعمر يراهن على نتائجها وأنها ستكون القاضية.

وفي الحال انطلق المتطوعة يستأنفون القتال، اندفعت مفارز الفداء من الصفوف يراهنون على الثأر للواقعة في الحين، ومضوا يلاحقون فلول العدو من كل سبيل، واعترضوا قوات من الحركة الخونة كانت تتعقب خطا الناجين من سكان الزمالة، وطبق المجاهدون عليها وأبادوها، وكان بينها رمز من رموز الخيانة هو كبير الدوائر بن اسماعين فقتل وحز رأسه وأرسل إلى الأمير. واستمرت المعركة على أشد ما تكون تصعيدا، لقد وجد المجاهدون خير

متنفس لما أصابهم أن يمعنوا في مقاتلة العدو ومن تشيَّع إليه، وضَرْبِهم بلا هوادة.

خاض الأمير بعد واقعة الزمالة معارك انتحارية متواصلة، وقد ظهرت روح الاستماتة التي جسدها الجند المحمدي بعد تلك الواقعة في ارتفاع عدد الضحايا بين صفوفهم سواء من حيث الشهداء أو الجرحى، ويكفي أن نذكر بالإصابات التي تعرض لها الأمير نفسه بعد ذلك التاريخ لندرك البسالة والاستقتال الذي كان يخوض به هو والمجاهدون معارك الغضب والثأر.

لقد تكرر سقوط حصانه في المواقع، بل وتكررت إصاباته الجسديه هو نفسه، بل وتواترت أخبار استشهاده أكثر من مرة، وما ذلك إلا لأن المعارك التي كانت يديرها ضد أعدائه كانت ضارية وحامية الوطيس، ولنستحضر هنا أن الأمير قد رزئ بفقد كثير من أعز أصدقائه ومقربيه من القادة المجاهدين في تلك المرحلة، ولنذكر خاصة استشهاد البطل الفذ السيد محمد بن علال خليفته على الشلف ومليانة الذي سقط في ميدان الشرف في إحدى المعارك الشرسة التي أعقبت واقعة الزمالة.

لقد كانت خسارة الأمير في ذلك البطل كبيرة، ولم يكد الأمير يُرى متأثرا لفقدان أحد من خاصته مثلما رؤي حين بلغه استشهاد ابن علال، لقد كان هذا الأسد الضرغام في سن

الخامسة والثلاثين بعد[40] حين اخترمه الموت في موقعة زلزلت العدو وألحقت به وجيع الضربات . وكان هذا الشهيد القائد من عائلة شريفة تعاطت الجهاد على أرفع ما يكون التعاطي بسالة ومقدامية وبأسا، لذا سارع الأمير إلى تعيين أخي الشهيد في منصب الخليفة، فاسترسل هذا المغوار أيضا في العمل الجهادي وظل يتعارك مع العدو على نحو مستمر لا ينقطع تقريبا، إذ أن نواحي الوسط، لا سيما الشلف، كانت الجسر الذي ركز العدو على اقتحامه، ولم يتردد في توجيه الحشود الجرارة ناحيته بصورة مستمرة، لا سيما بعد أن شرع في إقامة مركز حضري لمدينة مستقبلية هي الأصنام - الشلف حاليا - على أنقاض مدينة رومانية قديمة هناك[41]. وهو ما جعل المعارك لا تتوقف بين الخليفة بن علال وبين العدو مما جعل الأمير نفسه يتحرك بشكل دائم تقريبا على محور تيارت- تاكدمت - مليانة - المدية، دعما لقوات تلك النواحي وإسنادا لخليفته بن علال حتى يقاوم الاندفاعات الحربية الاستعمارية على تلك الجبهة المحورية.

لقد كانت سياسة انتهاك الأعراض والاعتداء على المحارم والمدنيين التي عرفت ذروتها على يد المستعمرين حين سقطت الزمالة واجتاحتها قواتهم، إيذانا مشروعا للأمير كي يصعد من وتيرة الحرب ويوسع من نطاقها لتشمل حتى

---

[40] كانت القيادة شابة ولكن على نضج رجولي باهر تجشمت به الصعاب التي تنوء بها الجبال.

[41] - لا شك أن الاسم العربي: الأصنام قد أحال إلى ما كان هناك من آثار وتماثيل، إذ أن البلدة أخذت تسمية استعمارية أخرى هي ORLEANVILLE

الفئات المدنية سواء الأوروبية أو المتنصرة (المتعاونة مع العدو)، لا سيما بعد أن تبين له أن المدنيين الاوروبيين أنفسهم كانوا يحملون السلاح ضد المجاهدين وضد الأهالي العزل، زيادة على كونهم مادة احتلال خطيرة، إذ كانوا بتمركزهم في الأراضي المفتوحة يعملون على توسيع رقعة الاحتلال.

ولعل من جملة ما كانوا يأتونه من أعمال إجرامية هي ترويع السكان وترهيبهم والاعتداء عليهم من أجل دفعهم إلى إخلاء أراضيهم لاحتلالها والاستئثار بها، لقد كانت تلك الأعمال الارهابية ترهص لمرحلة لاحقة ستشهد حربا أخرى تتركز حول غصب الأراضي الزراعية والمضاربة عليها من أجل الاستيلاء عليها وانتزاعها من أصحابها الأصليين.

وقد نذكر هنا حادثة تجاوزية اضطرارية سجلها المجاهدون على أنفسهم. حادثة كانت في الواقع ناتجة عن طبيعة الاحتدام العراكي المتفاقم بين الجانبين، لأن القتال يومئذ قد توسعت أوجهه ورقعته بعد أن اتسم بالطابع اللامركزي، وحيث باتت القرارت الميدانية تتم من منطلق اجتهادي شخصي، ولم تكن تخلو من صبغة رد الفعل على الأعمال الشنيعة والفظيعة التي كان المستعمر يرتكبها ضد الأهالي.

ذلك لأن الأمير قد انخرط كليا وبصورة ميدانية في القتال، وأضحى دوره التنسيقي بين الجهات يتحدد أو يتقلص على نحو محسوس، لأنه أوشك أن يستقل بالقتال هو أيضا

بجبهة غير مستقرة ولكنها تتسع مدا وجزرا عبر الأرجاء كلها. وربما كانت حادثة الأسرى الأوروبيين وجها دالا على مدى الانهماك القتالي الذي كان يعيشه الأمير، إذ لم يعلم بأمر التنفيذ إلا بعد فوات الأوان.

فقد أوكل أمر عشرات الأسرى إلى ابن عمه ابن التهامي، واتجه هو إلى مناطق أخرى يعبئها، وفي غيابه سار المجاهدون بالأسرى نحو الغرب، ثم ما لبثوا أن أعدموهم تحت ضغوط استعمارية تريد أن تنتزعهم عنوة، ولم ينج منهم إلا بقية كانوا ضباطا.

لقد كان ذلك خطأ اقترفته القيادة الجهوية وفوتت الفرصة على الأمير الذي كان يرتب لجولة من التفاوض على تسريحهم مقابل مكاسب سياسية كان يحرص على أن يحققها في تلك المرحلة الحرجة بالذات.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن مسؤولية القيادة الفرنسية في هلاك أولئك الأسرى ثابتة. فقد ظلت تصم آذانها عن دعوات الأمير بوجوب حل قضية المأسورين على مائدة التفاوض، وهو ما لم تستجب له القيادة الاستعمارية التي كانت يومئذ تراهن على القضاء على خصمها، فهي لذلك عملت على ألا تعطيه فرصة يسترجع بها اعتباره السياسي محليا ودوليا.

ومما سجله التاريخ أن إنسانية الأمير طيلة تلك الحرب كانت مثالية، إذ ظل قلبه مفتوحا بالعطف والتفاعل الإيجابي مع الأحداث، لا سيما ما تعلق منها بالجوانب الانسانية.

وإنه للافت للانتباه أن نرى أولئك الناجون يبادرون -ما أن وصلوا إلى أهلهم- إلى إذاعة أخلاق الأمير ومبرته بهم وكيف كان يشرك الأسرى في طعامه، ويتفقدهم بنفسه ويوكل بهم أقرب الناس إليه رغم الظروف التعسة التي كانت بلغتها حياة الجهاد والمجاهدين في تلك الفترة.

بل سنجد أولئك الأسرى يسارعون إلى زيارة الأمير ما أن إتيحت لهم الفرصة حين علموا بنزوله باريس أثناء فترة سجنه، وقد كانت زيارتهم تلك اعرابا تلقائيا وخالصا عن امتنانهم له وعرفانهم بأفضاله وانسانيته. وكل ذلك زاد من رجاحته في ميزان العظماء الانسانيين.

ومن جهة أخرى نذكر بموقف اتخذه خليفته الشهيد بن علال، حين استجاب في غياب الأمير إلى طلب أحد رجال الكنيسة، إذ أقبل هذا الأب الكنسي يريد أن يفاتح الأمير في شأن بعض الأسرى، فما كان من الخليفة إلا أن استجاب وأطلق سراحهم، ثم أبلغ الأمير بعد ذلك بما صنع فرضي بالعمل وثمنه. ومن غير شك أن تصرف الخليفة في أمر دقيق كهذا - إذ يعد من اختصاص الأمير باعتباره رئيس الدولة الذي يملك وحده حق العفو - ليؤكد روح التسامح ويبرز مدى السياسة الانسانية التي كان الأمير يسير عليها ويكرسها في من حوله، بحيث تيسر على أحد خلفائه أن

يتصرف في غيابه بما كان يدرك أنه يطابق مواقف الأمير ويترجمها[42].

ثم مضت الحرب تأخذ طابع المد والجزر، ولم تعد ساحتها تقتصر على حدود الوطن، بل لقد نفذ المجاهدون إلى ما وراء الحدود الجزائرية، بحيث باتت أراضي المغرب قاعدة خلفية لحركتهم الانقضاضية.

في تلك الفترة كان الأمير قد أرسل أهله وأبناءه إلى التراب المغربي وبقي يصعد من كفاحه الميداني في أرض المعركة مستخدما كافة السبل والوسائل المتاحة في النزال، مستثمرا حتى أسلوب الجوسسة.

فلقد وجدناه يتعامل مثلا مع بعض المواطنين ممن كانت الإدارة الاستعمارية توظفه في مصلحة البريد وتأمين مروره بين تلمسان والجزائر، وبفضل تعاون ذلك الجزائري كانت الأخبار والمعلومات تصل إلى الأمير، الأمر الذي هيأ انتصارات باهرة في تلك المرحلة للمجاهدين، وبسبب تلك الانتصارات، ونظرا لاسلوب الالتفاف والهجمات الخاطفة الذي بات المجاهدون يتبعونه، فقد تأذت القوات المستعمرة من توالي الضربات عليها ولم تتورع في ارتكاب المجازر

---

[42] رواية أخرى تقول إن الأمير هو الذي امر بإطلاق سراح المساجين، وذلك أمر طبيعي، إذ أن الأمر استراتيجي ويتعلق بسياسة البلاد ولا يحق للخليفة أن يتصرف في شأن على هذا المستوى من الأهمية دون مراجعة الأمير. إنما الطريف في الحادثة هو قصة الفرنسية التي أسر زوجها والتي كانت وراء تلك النهاية السعيدة للأسرى.

الجماعي بواسطة النار وتدخين المغارات وهي تلاحق الأهالي العزل. سجل هذا الفعل الفظيع في نواحي الظهرة بالشلف وفي نواحي سبدو بتلمسان.

لم تزد تلك الجرائم المرتكبة في حق الأهالي إلا من استماتة المجاهدين، إذ عمت الجهات جميعا حالة من العراك عارمة، وبات المجاهدون في كل مكان يقاتلون بعصامية ومواجهة ميدانية لا مركزية، وعلى قدر ما ارتفعت الخسائر في صفوف العدو على قدر ما اشتدت وحشيته واستهدفت الأهالي المدنيين، ولما كان المجال الحيوي للمجاهدين هو أولئك الأهالي من حيث دعم الثوار وإسنادهم، فقد وجد المجاهدون أنفسهم يفتقدون مع الأيام ذلك الدعم. لقد تردت أحوال الناس نتيجة التفقير والحرق والتبديد، واشتدت الحاجة وعمت الفاقة وضاقت الحياة بالأهالي أكثر فأكثر، وهيأ ذلك المناخ المكفهر شروطا سلبية تقوت بها جبهة العدو لا سيما بعد أن تيسر عليه تجنيد القبائل التي ساسها بالعنف أو بالاستمالة بالمغريات ضد الأمير والمجاهدين.

ويمكن القول بعد هذا كله أن حربية الأمير اتسمت بالقوة والعصامية من خلال خوضها أول العهد سلسلة من المعارك الكبرى ضد العدو المحتل، وتأتى لها بعد ذلك ونتيجة التمرس والخبرة الميدانية أن تتفنن في المنازلة، لاسيما وأنها باتت تتبع ما سيعرف بحرب العصابات، فقد أظهر المقاتلون والقادة عبقرية جهادية عالية في محاربة العدو على ذلك النهج المباغت والالتفاف عليه وتكبيده الخسائر.

وبفضل الحصارات الكبرى التي فاعل بها الأمير حواضر امتنعت عليه، تمكن من تدويخ الممتنعين وبسط سلطة الدولة على أقصى الأماكن التي استطاع أن يحتازها بالبارود، كما عزز سياسته الجهادية من خلال تنفيذ برنامج عمراني وصناعي طموح، فقد كان التصادم القومي مع الاحتلال من أبرز حوافز اليقظة والعناد ونشدان التطور وامتلاك القوة، وفي بضع سنين حقق الأمير إنجازات واعدة وتعكس همة لا تمارى، وستعمل آليات القهر الاستعماري - انطلاقا مما ثبت لها من قابلية تعمير أهلية - على صد الجزائريين عن الاستفادة من معارف ومهارات الغرب، بل وستحرص مع مرور الزمن على تكريس عقدة العقم في نفوسهم، الأمر الذي استحالت به القابليات الابداعية إلى قابليات اتلاف ونفور من الابداع والخلق. وربما استمرت الحال إلى يومنا هذا.

مع ازدياد الضغط العسكري على الأمير لا سيما بعد واقعة الزمالة، لجأ الأمير إلى اتباع منهج الانسحاب وإخلاء المواقع ظرفيا ليعاود الانقضاض.

لقد كانت الزمالة نفسها أسلوبا حربيا جديدا، إذ استطاع الأمير من خلالها حينا من الزمن أن يجند وراءه المخلصين وأن يقودهم إلى المعركة، ولما كانت الموازين غير متكافئة فقد آل الأمر إلى محنة وانكسار باهظ، بانكسار الزمالة التي كانت عاصمة ومقر قيادة الأركان والجند والشوكة الجمهورية المهيأة.

كان الأمير مقاتل ميدان من طراز لا يبارى، ونزعته الحربية لم تفارقه طيلة حياته، وإن وقفته بين أهل الشام في تلك الفتنة المعروفة بأحداث المسيحيين، لتكشف عن منزع الوثوب الذي كان من سجاياه، إذ أنه كان يحمل بين جوانحه قلبا لا يهادن الشر. وهو لم يترك السلاح ويسلم نفسه إلا بعد أن استنفد كل أسباب المقاومة، وبعد أن أضحى طريدة تتظافر على قنصها قوى البغي والنذالة الخارجية والداخلية.

وإنه للافت ذلك الضعف المبين الذي لحق الهمم الأهلية بعد ستة عشر عاما من الصبر والصمود، حتى إنه ليحق لنا أن نتساءل: أكان المستسلم هو الأمير أم جموع الأهالي؟

إن المستسلم الحق كان جماعات الأهالي التي استننفدت قواها وأدركها العناء فتركت مواقعها واستكانت للعدو ؟

لقد كانت سياسة اللامركزية في القتال أسلوبا نافعا ومفيدا أطال عمر المنازلة مع العدو، لكن انعدام البنية التحتية التي تربط الأهالي بالأرض جعلتهم يعبرون بصورة درامية من مواقع الانهزام في المعارك إلى حياة التشرد وافتقاد أسباب الرزق والبقاء، وهو ما كان له سيء الأثر، إذ أن العدو كان يعتمد سياسة الأرض المحروقة، لا يستبقي على أي شبر يفتحه إلا من أجل أن يغري به من رضي أن ينضم إليه ويذعن لسيادته ويكون حربا على بني قومه.

فالمحتل كان يثبت حضوره على الأرض التي يحتازها بالقوة، وهذا إما بإقامة مراكز للمعمرين أو من خلال شراء

ذمم القبائل التي يجتاحها، والتي كان في الغالب يحطم مقاومتها بسلبها كل ما في يدها.

بل إن لامركزية القتال هي التي أسهمت في مد حدود السيادة الوطنية إلى الأقاليم الشرقية وإلى بسكرة وحدود ليبيا وتونس، إذ أن الأمير حين تهيأ الأمر له بتلك المناطق، وانقهر أحمد باي الذي كان حاكما لإقليم قسنطينة، سارع إلى إرسال مفارز وجند إلى تلك الجهات من أجل إلحاق تلك الجهات بحيز الدولة الجزائرية.

فلامركزية القتال كانت تندرج ضمن رؤية إدارية أشمل سير بها الأمير البلاد، وتجسدت عمليا في تحوله بكرسي الدولة من إقليم إلى إقليم، فقد كانت العاصمة تنتقل بتنقله حتى قبل أن ينشئ الزمالة، لقد رأيناه يقيم وقتا في المدية ويباشر منها الحكم والإدارة، ورأيناه يقيم حينا بجبال عمور وبجبال كسال ونواحي طاغين والصحراء، وحينا آخر بتلمسان وسبدو وسعيدة وتيارت وبمناطق القبائل، وذلك سعيا منه إلى أن يقرب حضور الدولة من الأهالي ويجعل السكان في مختلف الأقاليم يلمسون عن كثب المؤسسة السلطانية ويتأثرون بقرارات ميدانية صادرة ليس فقط عن ممثل الأمير كما هو شأنهم دائما، ولكن صادرة منه هو نفسه، مع ما يحدثه ذلك من وثوق أهلي تتعزز به الإرادة الجهادية واللحمة الوطنية.

لقد مثل التقتيل الجماعي السياسة التي نهجها العدو من أجل أن يقضي على المقاومة. لقد مضى يستخدم أفظع

أساليب الإبادة، ولم يكفه استعمال السلاح ضد العزل والمدنيين، بل لقد مارس التقتيل الجماعي بالنار، فأول المحرقات المستخدمة ضد الشعوب في العصر الحديث قد أودت بحياة الآلاف من الجزائريين الذين تعرضوا لحرب دينية استعمارية فرنسية استخدمت السلاح وزادت عليه النار وإقامة الكوشات البشرية، وهو ما صنعه العدو في مناطق متعددة من بينها ما اقترفه في نواحي سبدو حين قام بإحراق بعض القبائل من أولاد نهار بالنار

وعلى الرغم من كل ذلك فإن ارتكاب تلك الفضائع أفشى إصرارا أهليا على مواصلة الحرب، لكن المعاناة والتضييق على المجاهدين وتكثيف قوات الملاحقة انتهى بهم إلى اليأس وإلى التسليم.

لم يكن للفجائع التي حفل بها سجلنا التاريخي الجهادي إلا هذا الشعور من الكره والنقمة الذي حملته – ولا زالت – الأجيال الجزائرية لفرنسا الاستعمارية.

لقد كان الجزائريون أكثر البشر إدراكا لزيف ادعاءات الغرب الانسانية، وذلك بسبب الأعمال الوحشية التي لازم الفرنسيون استخدامها ضدهم، ومن المؤكد أن فضائع الحرب وجرائم الاحتلال خلال حرب التحرير الوطني، والتي بدأت بعض الرموز والدوائر الاستعمارية تحت دوافع كثيرة تكشف

عنها [43]ستظل علامة سوداء على لا انسانية الغرب الاستعماري، هذا الغرب المطالب اليوم بأن يقلب الصفحة ويباشر سيرة انسانية يكفر بها عن بعض ما اقترفه في حق شعوب الأرض من المستضعفين.

ليس هناك قانون يؤبد ضعف الأمم والشعوب، فليع هذا جيدا الغرب.

وحين انتهت تطورات الحرب بالأمير إلى مباشرة جولاته الأخيرة من موقع جزري وتحول إلى أرض المغرب ينطلق منها للكر على العدو داحل الوطن، أثارت فرنسا ضده أسباب الفتنة من خلال الضغوط والتآمر وإملاء الرأي، مما أشعل نار الفتنة بين الأشقاء، وهو ما جعل الأمير يستهلك جهودا كبيرة في الدفاع عن نفسه هناك.

وكان عليه أن يبتدع في مدافعة الأشقاء حرب النار واستطاع بمهاراته القتالية أن يضرب بقوة قبل أن يتراجع مستسلما لإرادة الله.

---

[43] -لعل كتاب AUSSARESSE واحدها، لكنه بكل تأكيد أشدها حلكة لاعتراف صاحبه باقتراف جريمة قتل عظيم شهداء ثورتنا ابن مهيدي.
ومن جهة أخرى نرى أن الكيفية اللاعقلية التي رددنا بها عليها سيكون لها أثر سلبي على ما كان يمكن أن يلحق به من اعترافات. ونخشى الآن أن يسود التحفظ أو حتى يتسع فعل التزوير في ما يكتب عن ثورتنا بأقلامهم، الأمر الذي يحرمنا من معرفة شيء من الحقيقة. لقد كان من المفيد أن نترك الأمر يمضي بدون جلبة ووعيد . ليزداد السيل.

وعمل ذلك الصراع المؤلم مع الاشقاء على أفشاء مزيد من اليأس على المقاومة في الداخل، فــلا غــرو أن يجـنح المقاومون إلى التسليم.

وهناك، في أرض المغرب الشقيق، كتب على الأميــر أن يعرف أشقى ظروف الاحباط والانسداد وهو بين نيــران العدو والشقيق. فقد تبدت له النهاية المأساوية مقبلــة بكـل بشاعة وجهامة. وكان مرة أخرى الإيمان ووازع التسليم هو السائد الوحيد الذي اتقى به الأمير مغبة ذلك المآل القمطرير. لقد وسعه يومها أيضا أن يؤدي ركعات الاستخارة وأن يرفع يديه إلى السماء كي تسلك به أقوم طريق، فاختار له الله مــا اختار من مسار.

7-الدبلوماسيـــــــة.

من الطبيعي أن يغدو الفعل السياسي الدبلوماسي بالقياس إلى شعب يباشر أول مرة مهمة تفعيل العلاقـــات الدوليـــة، انجازا اجتهاديا وتجريبيا قائما على منطق الصواب والخطأ.

لقد تزاوجت مهمة بناء الدولة عند الجزائريين بمهمـــة تعلم أبجدية التعامل مع الآخر والتمرس بعقليته وثقافته وفهم مكوناتها. ومما لا شك فيه أن الوثبة الجهادية العامـــة فـــي تلقائيتها الأولى التي سجلتها الجماعات والجهات الأهلية كانت فعلا سياسيا صريحا راهن علـــى ردع الهجمـــة الاحتلاليـــة وقطع السبيل أمامها بحد السيف.

فالفعل القتالي-في الحقيقة- هـــو المســـتوى السياســـي السافر والعملي الذي ينشد بلوغ أهدافه عن طريق التصرف العلني المشروع، لأنه لا يجد مثل الرد الفعلي العنيف طريقا لتحقيق تلك الأهداف. فهو لذلك غالبا ما يســـبق المســـتوى الدبلوماسي الذي يتوخى -عادة -وضع الأمور في نصـــابها بواســـطة الحـــوار والمراجعـــات السلمية، إذ أن صـــعيد الدبلوماسية هو صعيد التمرس النزالي الضاري المكفوف عن دمويته، من حيث توسله إلى تحقيق الغايات بأساليب الإقناع الباردة والمنـــاورات التفاوضـــية المخاتلـــة والمســـاومات المتبصرة الذكية، بل إنه ليأخذ لتحصـــيل الأهـــداف حتـــى بأسلوب المخادعات البلاغية والوعود الكاذبة.

والدبلوماسية مهارة وتراث تتحقق للأمة ضمن مرصود تجاربها المدنية وثقافتها المترقيـــة، لأن الدبلوماســـية **هـــي**

بالضرورة نتاج الأوساط النخبوية التي مكنتها اســتعداداتها وشروط حياتها وثقافتها المتفتحة من أن تؤدي أدوارا علــى صعيد تفاعل الأمة مع الخارج.

وإنه لأمر طبيعي أن تجد بلادنا نفسها شبه عزلاء مــن النخب المهيأة لذلك الدور بحكم ظــروف الكــف والتعقيم الطويلة التي مرت بها في تاريخها الوسيط.

وحين نجد البلاد تمد يدها إلى السند الخارجي - لاسيما وقد كان هذا السند شقيقا - تسلمه زمام أمرها ليساعدها على مفاعلة الخطر الاستعماري المداهم، فإن ذلك يعني أن الأمة وعلى الرغم من حياتها وحيوية استجاباتها للأحداث، إلا أنها كانت عاجزة عن أن تتولى مصيرها بنفسها. غيــر أن ردة الفعل الاستنجادية التي عبرت عنها الجماعات الأهليــة فــي ذلك الظرف لا ينبغي أن تخفي علينا قيمــة ذلــك الحدث السياسي كأسلوب أراد أن يتجاوز الوضع السلبي السائد.

فالموقف الاستدعائي الذي وقفته الجماعات من مصيرها -حين التمست أن تستظل بالشقيق - السلطان المغربــي - موقف جدير بالتأمل، لأنه يعتبر الخطوة الأولى والحاسمة على طريق الانعتاق من الوصاية، تلك الوصاية التي ظلت مضروبة على أهالي هذه الديار زمنا غير قصير، ربما يعود إلى ما قبل العصر التركي.

بل والأكثر من هذا أن الأمة بــذلك الموقــف الإرادي سجلت خطوة متقدمة في مضمار الأداء الدبلوماسي، إذ كان

قرارها السياسي ذلك، وما لابسه من مخاض تشاوري على أكثر من صعيد، انجازا دبلوماسيا تأدّى بإرادة جماعية، إرادة لم يزجَّ بها وضع التفكك والخطر المحدق والاضطراب المستشري الذي كانت تعيشه البلاد، في دوامة من السلبية واللافعل، وهو ما كان سيؤدي بالبلاد حتما إلى التشرذم والفتنة وتشتت الرأي.

وكل ذلك كان سيفقدها وبصورة خطيرة هويتها الجماعية، مما كان سيسهل على المستعمر أن يتصرف في البلاد تصرف الوطنِ الشاغر، أو كان سيعمد إلى تفتيتها أوطانا وكيانات يستجمع زمامها في يده ليخرج الوطن بذلك عن إطار وُحدته وجغرافيته الموحدة التي ناضل طويلا قبل ذلك من أجلَ أن يكرسها.

وذلك ما عاشته أوطان لاحقة، إذ فككها الاستعمار وأعمل في جغرافيتها المقص بلا وازع إلا وازع المنفعة وما يخدم مصالحه وبقاءه.

فالاجماع الأهلي من خلال موقف الوجهاء والقبائل في النواحي الغربية من القطر والمضي بالقرار المتخذ إلى نهايته، ثم الالتفاف حول المشروع الجماعي في ما تلا ذلك من مراحل، هو كسب سياسي ودبلوماسي غاية في الأهمية، بل إنه لحدث يجعلنا نراجع الافتراض الذي توهمنا به أن البلاد كانت عزلاء من أدوات السياسة وفقيرة في مستوى فواعل الدبلوماسية وعديمة المرصود من النخبة.

فالأوفق أن يقال إن الوطن كان يتوفر على مواد خام سواء من ناحية الاحتياط البشري المهيأ للتعاملات السياسية والدبلوماسية، أو من ناحية إثبات قابلية المراس الاجرائي نفسها وتحديد الرؤية المصيرية.

ومما لا شك فيه أن ذيوع الثقافة الاسلامية والشرعية منها بالخصوص كان الأساس المتين الذي تجركت على أرضيته تلك الإرادة الجماعية التي واجهت بها البلاد حوادث الاجتياح الاستعماري.

فقد كان الشرع ينيط ذمة المسلمين بالإمام وبالجماعة ويجعل من المدافعة عن النفس والعرض والدين والمكتسب وما إليها أركانا تقوم عليها عقيدة الفرد المسلم وتكتمل بها بشريته وتتعزز درجته في سلم الإنسانية.

من هنا لا بدع أن نرى روح التكتل الجماعي تبرز على نحو تلقائي تقريبا في الأوساط الجزائرية، بحيث ظهر على ساحة الوطن تشكيلات قوامها الجماعات المحلية الإقليمية أو الجهوية التي كان وازعها جميعا هو تقرير المصير.

وإذا كانت هناك -مثلا- أوساط من الوجهاء والسماسرة والإداريين كان ماضيهم قد هيأهم لأن يتقبلوا الوضع الاحتلالي وأن يبدوا نوعا من الاستعداد والتكيف معه كما هو شأن قطاع من صفوة سكان العاصمة أو لنقل حتات من بقايا تلك الصفوة، إذ أن الغزو واندحار الحكم التركي قد جعل عددا كبيرا من المقتدرين ينزاحون عن العاصمة، إما إلى

تونس أو مصر أو صوب أراضي الخلافة، بل وحتى صوب أوروبا، فلقد تشبثت الجماعات في مختلف الأقاليم والجهات ببناها التنظيمية وبقياداتها المحلية على أقوى ما يمكن التشبث درءا للخطر الاحتلالي الماثل.

ففي أقاليم الشرق الجزائري التفَّتْ النخبة حول قيادة أحمد باي الحاكم الجهوي وفوضته على رأسها قائدا تنافح تحت رايته ضد العدوان، أما في أقاليم الوسط، حيث تم نزول المحتلين واستقرارهم أول الأمر، فسنجد الجماعات تتنظم وتنضم إلى قياداتها المحلية وتباشر عمليات المدافعة، وما زالت إرادتهم في الجهاد قوية رغم الانكسارات والانحسارات التي كانت تتصدع لها صفوفهم.

لكن ذلك لم يمنع من ظهور زعامات مركزية في تلك النواحي تمارس الجهاد وتتصدى حتى لمقارعة من أفلحت الدعاية الاستعمارية في جذبه لها من الأهالي، وهو ما سجلته شخصية الشيخ المجاهد الحاج بن سعدي، المنحدر من بلاد القبائل والذي استطاع أن يقود الكفاح مدة، وتمكن من أن يمارس حربا فدائية حقيقية ضد القوات الدخيلة حتى داخل أحياء العاصمة، وأن يلحق الهزائم بالجيش الفرنسي الذي كان قد شرع في التغلغل صوب الداخل في اندفاعة مجازفة نتيجة لما ظهر لقادته من انطفاء شرارة المقاومة، لكن فرق الشيخ بن سعدي ومقاومين آخرين سرعان ما نظمت عملها واعترضت سبيل الدخيل الصليبي، الأمر الذي جعل تلك الاندفاعة الاحتلالية تتراجع أكثر من مرة لتعيد إلى صفوفها التماسك من جديد.

أما ردود فعل الجماعة في الغرب وفي جهـات أخـرى مثل الصحراء، فالذي لا شك فيه أنها هبت -على نحـو أو آخر- للاشتراك في التصدي للعدوان بـادئ الأمـر، ولمـا انهارت الإدارة التركية الحاكمة عاد المتطوعة مـن حيـث أقبلوا ليزداد تمسكهم بوحـدتهم وبنظـام جمـاعيتهم، بـل وبقياداتهم المحلية.

والملاحظ أن تلك القيادات الأهلية كانت تمارس وظيفـة الإدارة الفعلية بين الأهالي، إذ كانت تستمد سلطتها إما مـن النفوذ الروحي وهو ما كان يختص بمشـائخ الزوايـا أو أن نفوذها كان يقوم على البعدين الروحي والزمني معـا مثـل السلطنات التي كانت في عمق الداخل كسلطنة بني جـلاب، وسلطنة التوارق وجماعية قصور تيميمون.

كل هذا كان نابعا من مشاعر تلقائية باعثها الإحسـاس بالخطر، لكن الدافع الديني الذي يعم الأوساط الجزائرية كان عاملا حاسما في حفز الأهالي على سلوك طريـق التأهـب والتجند الذي اعترضوا به سبيل المحتل وأعاقوا طويلا تقدمه عبر مختلف أنحاء البلاد.

ومن المؤكد لو أن البلاد كانت تملك يومئذ أمرها بنفسها وكانت إرادتها السياسية في يد أبنائها، فإن الحال كانت حتما ستكون مغايرة لما آلت إليه.

على أن ما يهمنا في هذا كله هو إظهار تلك الديناميـة المعتبرة التي استجمع بها الأهالي في مختلف البقاع أمرهم

وتعاقدوا على الجهاد، ولن يطعن في هذا التقرير ما رأيناه من تخاذل بعض الجهات والمحليات لمجرد انهزامها بعد مصادمة العدو الأولى، إذ المعتبر في هذه الأحوال هو الإجماع العام والتوجه الغالب الذي تسجله الجماعات حين تواجه وضعا يهدد وجودها في كليته.

وإذا كنا سجلنا ترددا شاب بعض المواقف أو عدم قطعها في تحديد الخطة، أتكون دفاعية انغلاقية، أم يجدر أن يُتخذ قرار الانسحاب الجماعي والهجرة عن الوطن أم ينبغي الثبات ومعاودة الهجومات الاستشهادية، فالمعتبر هو ذلك التداعي العام الذي برز في ردود فعل تلك المجموعات الوطنية التي على الرغم من استقلال بعضها عن بعض، إلا أنها اشتركت على أوسع نطاق المشاركة في مهمة المدافعة عن الوطن والنهوض بشريعة الجهاد.

ولذلك باشرت الأنحاء -كل حسب امكاناته ومن خلال قربه أو بعده من الثغور التي نزلها العدو- مسؤوليتها الدفاعية ولو حتى بواسطة مسلك الانغلاق والتمنع عن معاملة الدخيل الكافر، وكان قدرها جميعا تقريبا أن تتحمل من العناء والتضحيات مالا ينكره عليها التاريخ، وإن تفاوتت حظوظها من حيث التوفيق والفاعلية.

وكم كان الوضع يغدو مواتيا لنجاح جبهة المقاومة الوطنية لو أن الإجماع كان حليفها وسارت المدافعة تحت راية جماعية واحدة.

## الدبلوماسية بين الفعل الحربي والتموقع التاكتيكي

مما لا شك فيه أن احتدام القتال وتوسع رقعته على الصعيد الوطني عجل بفتح المجال في وجه الدبلوماسية وربط الصلة بين الأمير والمحتلين.

فتفجر الجبهة الشرقية بقيادة أحمد باي كما أسلفنا في وجه المد الاحتلالي فاقم من أوضاع العسكرية الفرنسية فاضطرت إلى أن تسلك طريق الدبلوماسية وأن تلوح براية المهادنة مع الطرف الأكثر قوة والأقدر على إرباك فلولها ميدانيا، فكانت معاهدة دي ميشال الأولى مع الأمير عبد القادر.

وكان طبيعيا أن يستجيب الأمير لكل إشارة تأتيه من جهة العدو تحمل علامة التسليم له بالحق في السيادة على البلاد أو حتى على جزء منها، والكف عن مواصلة الزحف واحتلال مزيد من مناطق البلاد.

لقد كان الأمير في حاجة إلى أن تقف منه فرنسا موقف المعترف وأن تكف عن محاربته ولو إلى حين، إذ أن ذلك سيعزز من جانبه ليس فقط حيال فرنسا، ولكن أيضا حيال الأهالي الذين كان منزعهم القبلي والجهوي طاغيا ويحول دون تحقيق انتظامهم في كتلة قومية متجانسة قادرة على أن تواجه العدو بقوة الوحدة.

ثم إن من شأن مهادنة فرنسا للأمير أن تقوي من مكانته – كقائد للوطن – أمام الدول لا سيما الأشقاء، مما سيحملهم

على أن يراجعوا سياسة التجاهل أو الانتظار التي اتبعوها إزاءه، فيسارعوا إلى التواصل معه والاعتراف بدولته الفتية.

لقد كان الأمير يتطلع إلى أن يتلقى المدد - حتى ولو كان أدبيا- من البلاد الاسلامية لا سيما من الخلافة، بيد أن ذلك لم يحدث، فجاءت المهادنة التي أمضاها معه العدو المحتل تجدد في نفسه هذا الأمل الذي كان سيترك تأثيرا كبيرا على الأهالي وعلى الجهات والأوساط القومية والملية التي لم تكن بعد حسمت أمرها في الاعتراف بالأمير وتزكية شرعيته.

لقد كان الباب العالي كما أسلفنا يراهن على أحمد باي، وكانت دولة تونس مثلا تشايع جارها الجنب بتوجيه من الباب العالي، وتناور في مشايعة ذلك الجار تجنبا لتهديدات فرنسا.

وحال ليبيا لا تختلف عن حال تونس تقريبا مع المقاومة الجزائرية في تلك المرحلة.

أما مصر فإن علاقتها بأوروبا - وفرنسا تحديدا-كانت تتقوى على صورة لم يكن الأمير يطمع معها في دعم يأتيه من قبل ساستها، لذا كان عليه -الأمير - أن يقنع في كل ذلك بما استطاع أن يستحصله من تلك الدول من حيث التزود

بعض التجهيزات الحربية والحاجات التجارية التي كانت توفرها أسواقها الحرة له[44].

لقد كان العدو الفرنسي يخشى كثيرا من قيام علاقة تعاون ومناصرة بين الأمير وبين الدول الشقيقة، لذلك ألقى بكل ثقله الدبلوماسي والمالي والعسكري في سبيل الحيلولة دون ذلك، وفي هذا الصدد يمكن أن نسجل تنازلات وتلويحات إغرائية وضغوطا كثيرة مارسها العدو الفرنسي ضد الدول الشقيقة، لا سيما دولة الخلافة من أجل أن يكفها عن مد يد العون أو التزكية لكفاح الأمير، واعتراضا عن أن تعترف بالكيان الوطني الذي كان الأمير على رأسه.

ولعل ما يكشف عن مدى تخوف وتحوط العدو الفرنسي لتواصل الأشقاء مع الأمير، هو ذلك التدبير اليقظ الذي تابعوا به علاقة الأمير الخارجية. ومما يمكن استحضاره في هذا المجال ترتيبهم للعيون وحتى دسهم للجواسيس من أجل ترصد صلات الأمير المحتملة مع الدول والأوطان الاسلامية، وإن قصة الجاسوس المتأسلم ليون روش لواحدة من القصص التي تبين التركيز الكبير الذي تابع به المحتلون سياسة الأمير الخارجية.

---

[44] - راجع في هذا الصدد المقالة المهمة لأستاذنا يحي بوعزيز . علاقات الأمير عبد القادر وخلفائه بالمملكة التونسية. مجلة مسالك العدد 2-جويلية 1998، الجزائر. وقد تطرق فيه بالحديث إلى صلات الأمير الدبلوماسية مع بقية دول العالم، لا سيما انجلترا واسبانيا وأمريكا.

لقد دست الدوائر السياسية الفرنسية شابا يدعى روش ليون، بعد أن يسرت له سبل القدوم إلى معسكر في رفقة والده الذي تظاهر باصطحاب ابنه الذي جنح - بزعمه- إلى اعتناق الاسلام والاندماج في الحياة العربية، الأمر الذي جعل الدولة الجزائرية وعلى رأسها الأمير تحتفي بالحدث وتفتح صدرها للشاب وتحصه بالعناية التامة، إذ أن اسلام شاب مسيحي بإرادته في ظروف تتواجه فيها دار الحرب مع دار الاسلام لهو حدث يستحق أن ينظر إليه من الزاوية الرمزية المعبرة عما للاسلام من جاذبية آسرة.

وفعلا لقد اندمج الفتى في الحياة الوطنية وعاش أقرب ما يكون من الأمير ومن الدوائر الرسمية للدولة، وهو ما يسر عليه - بطبيعة الحال - أن يكون قناة مهمة في تزويد العدو بما يريد من أخبار وأسرار، ولما كانت مخاوف الفرنسيين تتركز على العلاقة المحتملة التي قد تنشئها دولة الأمير مع الأشقاء، فقد حاكى الجاسوس المتأسلم خطابا بقلم الأمير وبطابعه وتوجه به إلى الحجاز، على توهم العدو أن الأمير كان يقيم صلة مع حكومة الديار المقدسة، لكن رد الحاكم الحجازي على رسالة الأمير المزيفة أقنع فرنسا بانعدام ما توهموه من علاقة بين الجانبين، وهو ما جعل الأعداء يطمئنون من ذلك الجانب.

ولما كان الأمير يتطلع إلى خلق الصلة مع الدول الشقيقة ذات الحضور الدبلوماسي المؤثر في الأحداث، فقد جهد المستعمر في محاصرته وإعاقة كل مسعى من قبله للارتباط مع الخارج بأي نوع من الصلات. لذا كان الأمير يصرف

جهده في السعي لاستثمار المجالات السياسية والدبلوماسية التي كان يتوقع لها الجدوى والإثمار العاجل.

من هنا وجدناه يتواصل أقوى ما يكون التواصل مع المغرب ومع سلطانه، كما وجدناه يراسل الباب العالي وإن لم يتلق منه ما كان يأمل من رد مشجع. ومما لا شك فيه أن الأمير يكون قد راسل، بل وداوم على مراسلة محمد علي والمسؤولين المصريين كلما تأتت له المناسبة. ونفترض أن المواسم الدينية كالحج والأعياد وحلول رمضان وما إليها كانت سوانح يغتنمها الأمير لمراسلة الحكام المسلمين والشخصيات العلمية والوجهاء وتذكيرهم بواجباتهم حيال الأمة وحيال شعيرة الجهاد التي كان الجزائريون ينهضون بها وحدهم ضد أطغى الدول الأوروبية يومذاك.

بل إن أخلاقيات الأمير وشعوره بدوره كقائد مجاهد كانت تحفزه على ملازمة التواصل وإتحاف الرؤساء والملوك الذين كانت مواكب الحجيج الجزائري تمر بهم على جاري العادة في تلك العهود.

إذ أن السياسة كانت تجد في تلك المناسبات فرصة لربط الصلات وتجديد المودة وكان التهادي بين الملوك والدول لغة تتأدى بها معاني دبلوماسية غاية في الدلالة والإعراب، فلا بدع والحال تلك أن نجدهم يتهادون إلى جانب التحف المادية، السرائر والعبيد والخيل المسومة والنفائس وكل ذلك تمتينا للقربى وتمكينا للتآزر، وفي ذلك ما فيه من دواعي الاختلاط والتقارب.

ونذكر في هذا المجال أن الأمير نفسه قد تسرى ببعض السودانيات التي تكون أهديت له.

ومن غير شك أن الأمير وهو المتمرس بالنفسية المشرقية لم يكن ليقف عند حد مخاطبة المستويات الرسمية في البلاد العربية وطلب معونتها، بل لقد رأيناه يشجع على استقدام أهل الخبرة من البلاد العربية - مشرقا ومغربا- لا سيما في مجال العسكرية والتصنيع والاتجار، فقد نشطت تجارة السلاح مع البلاد العربية والعثمانية على أيدي وسطاء وسماسرة أجانب مسلمين وأوروبيين، كما ضمت مصانع التعدين والضرب أعدادا منهم، فضلا عمن كانت تسند إليهم مهام التدريب العسكري وغيرها من الأنشطة الأخرى مثل الاستشارة والانتداب إلى البلاد الاسلامية والغربية تأدية للمراسلات والتكليفات الخاصة.

بل لقد رأينا طواقم التقنيين الذين كانت توظفهم الدولة الجزائرية في شتى الميادين آنذاك تضم أعدادا من الأجانب مسيحيين وغير مسيحيين. وكل ذلك كان يبلور على نحو جدي ومتدرج الفعل الدبلوماسي الوطني في تلك المرحلة التأسيسية الشاقة.

**الميلود بن عراش وزير خارجية الدولة الجزائرية .**

ومما يشهد لاستنارة الأمير الدبلوماسية حسن انتقائه للعناصر الوطنية المكلفة بالنشاط الدبلوماسي.

وربما بدت لنا شخصية الميلود ابن عراش - وزير خارجية الأمير - تحمل شيئا غير قليل من المزايا التمرسية

التي اختص بها هذا الرجل والتي – لاشك- أن الأمير يكون أصطفاه بها وأوكل إليه منصب الخارجية والدبلوماسية من أجلها.

فالمتتبع لسيرة هذا الوزير سيقف على صفات لا تتوفر حقا إلا لشخصية الدبلوماسي المهيأ للدور التفاوضي المتماسك.

حقا إن بدايته السياسية كانت بداية باقي القادة الجزائريين تقريبا، إذ أنهم جاؤوا إلى المعركة وليس في تصورهم أن يتحملوا مسؤوليات عليا سيتعلق بها مصير البلاد. فمهما كانت مكانة الفرد منهم بارزة في قبيله أو على صعيد منطقته، فإن تصور دور آخر غير الدور القتالي لم يكن ليخامر نفسه، لكن طبيعة المعركة ومصيريتها جعلت استعداداتهم وتحفزهم الجهادي يرقى بهم إلى تولي المسؤوليات العليا والمأموريات السامية التي فرضتها عليهم المنازلة الجهادية الشاملة ضد العدو، واستوجبها التنظيم السياسي المتكامل الذي اقتضاه سير الجهاد ومقاومة المحتلين.

لقد رأينا هذا الوزير ينخرط أولا كقائد مقرب من الأمير، يخوض المعارك ويذوق طعم الانتصارات والانكسارات معه، ثم رأيناه بعد ذلك يتعين في المنصب السامي، فلا ينقطع مع ذلك عن خوض العمليات الحربية حتى انعقدت المهادنة الأولى مع المحتلين، وحين سيشتجر الخلاف بين الدولة الجزائرية والغزاة الفرنسيين في مرحلة

لاحقة سنرى المجال ينفسح لوزير العلاقات الخارجية بن عراش، فيقوم بأولى المهام الدبلوماسية التي يمكن أن يقال إنها تمت في ظروف مهيأة وأن الدوائر السياسية في كلا الدولتين قد حضرت لها من أجل أن تحقق الغاية التي أملها لها الطرفان كل من وجهته.

ولعله من اللافت أن نسجل أن تلك الزيارة الدبلوماسية الأولى لوزير الخارجية الجزائري إلى فرنسا قد تمت بطلب من قيادة الاحتلال، إذ أن الحاكم العسكري هو الذي أشار على الأمير أن يوفد وزير خارجيته ليقابل ملك فرنسا في باريس.

ومن غير شك أن الدوافع الاحتلالية التي كانت وراء تلك الزيارة قد اقتضت من المستعمرين أنفسهم أن يدعوا إليها، فالدوافع كانت واضحة ومكشوفة، فهي في الواقع زيارة كانت تتجاوز الإطار البروتوكولي والتفاهمي الذي يؤمل عادة من مثل ذلك التواصل الدبلوماسي بين الدول.

إذ اننا لمسنا القصد التبييتي وروح المناورة تكمن وراء تلك الدعوة، وربما كان العسكر يراهنون على ما كانوا يتوقعونه من أخطاء وسوء تقدير سيرتكبه الوزير الأهلي في أول طلعته الدبلوماسية تلك، فيحققون أهدافهم في استئناف الحرب والدفع بفرنسا – بتياراتها المختلفة – كي تنخرط كلية في تصفية مسألة احتلال الجزائر بصورة نهائية ومن غير ما تردد.

إذ لا ننس أن المحتلين كانوا بين رأيين، رأي ينادي بابتلاع الجزائر كلها وبسط النفوذ عليها، ورأي آخر كان يرى الاقتصار على احتلال الشمال بثغوره ومفالحه وليس أبعد من ذلك. وهناك رأي ضعيف ثالث نادى وقتا ما بالانسحاب من الجزائر وتركها لأهلها.

من هنا كانت حماسة التيار الأول الذي كان يرى في تلك الهدنة التي عقدت مع الأمير إعاقة سافرة لانجاز المطامح الاستعمارية، الأمر الذي كان يجعلهم في حالة تأهب دائم من أجل أن ينقضوا المعاهدة ويباشروا تنفيذ خطتهم الاغتصابية.

ولم يكن يغيب ذلك عن الأمير وعن قيادة الجهاد، لذا رأينا الأمير يتقبل نص المعاهدة – سواء المعاهدة الأولى أو الثانية – على ما في بنودهما من تقييد وتحجيم واضح لسيادته على البلاد.

لقد كان على وعي بإمكاناته القتالية المحدودة، وكان على إدراك بما يعرو الصف الداخلي من حال تفكك مرده واقع التشرذم القبلي والإقليمي الذي ورثه المجتمع الجزائري عن العهود السابقة، لذا كان الأمير يغض عن تلك الشروط التي تحد من سيادته لأنه كان يرى أن الهدنة ولو جاءت السيادة فيها منقوصة إلا أنها ستمكنه من التفرغ للتنظيم والتوعية وتجنيد المزيد من السكان تحت راية الجهاد.

لقد كان يعي أنه في مسيس الحاجة إلى أن يخوض عملية بناء شاملة، ولذا كان دائبا على استغلال فرصة

المهادنة في تنفيذ برنامج الجهاد الأكبر والمتمثل في بناء الدولة وبعث الانسان المسلم الجديد.

بل لقد كان في تلك المرحلة قد قطع شوطا مهما في عملية البناء والتنظيم، الأمر الذي كان يزعج العدو ويقوي من روح النقمة في نفسية قادته العسكريين.

ولعل ما يدل على تأهب العسكرية الفرنسية للانتفاض على الهدنة ما رأيناها تقابل به الوزير بن عراش من روح إخناعية تريد بها أن تفجر الوضع وأن تلغي بنود الهدنة لتستأنف مقاتلة الأمير والقضاء على دولته.

لقد واجه الحاكم العسكري الوزير بن عراش فور رجوعه من فرنسا -حيث قابل ملكها- ببيان يتضمن شروطا أرغمه على توقيعها باسم الأمير كان فحواها يستفز حقا، إذ اقتطعت بنود ذلك البيان الجديد من الأمير مناطق كانت صيغ الهدنة لم تحدد تبعيتها لأي من الطرفين، فجاء ذلك البيان لينتزعها من الأمير وليسطر حدود الدولة الجزائرية لأول مرة بصراحة مجحفة وبانتقاص اقليمي كانت الدوائر الاستعمارية تعرف أن الأمير لن يوافق عليه، لأنه كان قد بسط فعلا قواته وممثليه على تلك النواحي التي عناها البيان.

ومما لا شك فيه أن التوقيت الذي عرض فيه هذا البيان، إذ جاء عقب زيارة الوزير الجزائري إلى فرنسا، ليؤكد أن العسكرية الاحتلالية قد لجأت إلى ذلك الاستفزاز كنتيجة مباشرة على نجاح الزيارة الدبلوماسية التي أداها

الوزير الجزائري إلى ملك فرنسا، وكتجاوز للآثار الطيبة التي تركتها تلك الزيارة ومستوى اللياقة الذي تمت فيه، إذ أن تلك العسكرية الاستعمارية كانت تتوقع نتيجة سلبية ستسفر عنها مقابلة الوزير للملك.

أما وقد حدث العكس فكان لزاما أن يلجأ العسكر إلى ذلك البيان التخضيعي كإجراء سافر يقصد من ورائه الإطاحة بالمعاهدة وضرب الهدنة واستئناف القتال، لا سيما وأن العسكر كانوا يرون ويلمسون التصعيد الدينامي الذي كانت تحققه الإرادة الوطنية سواء في مجال البناء، من ذلك مثلا تشييد مدن بكاملها وإنشاء المؤسسات الاقتصادية والمالية وتوسيع المرافق الاجتماعية وشمول التأطير الإداري لمختلف جهات الدولة، أم على صعيد تحقيق مستوى من التلاحم وتوطيد مساحة من السيادة الوطنية على أوسع نطاق من القطر.

في ذلك الموقف الامتحاني سنرى الوزير ابن عراش يواجه انتقادا من قبل الأمير على انصياعه للأمر العسكري حين وقع على البيان، لكن الرواية التاريخية تعترف أن ابن عراش قد وقع على البيان بعد أن أضاف إليه خطيا عبارة تجعل من توقيعه مجرد إطلاع على الفحوى أما الإقرار بمواده أو عدم الإقرار بها فقد أناطه برأي الأمير.

وعلى الرغم من ذلك التحوط السياسي الذي أظهره ابن عراش حين ضغط عليه الحاكم العسكري وألزمه بالتوقيع – كما تضيف الرواية – إلا أن ابن عراش تعرض لما يشبه

التوبيخ من قبل الأمير، لأن الأمير رأى في توقيعه إذعانا ما كان ليسجله الوزيرعلى نفسه حتى ولو تحت الضغط.

والحقيقة إن المتتبع للظرف والكيفية التي وقّع فيها ابن عراش البيان سيدرك أن الوزير لم يذعن للضغط وإنما ظل متمسكا بموقف الامتناع، وأنه إنما وقع بعد أن ألزم بفعل ذلك - بواسطة الاحتيال البروتوكولي - إذ طُلب إليه بعد أن أظهر تصلبا ثابتا، أن يضع خط يده إقرارا منه بأنه اطلع فقط على نص البيان، فلم يتردد عندئذ في إشفاع توقيعه بملاحظة تخلي ساحته من أي التزام، إذ تحيل الأمر في كليته على الأمير.

أن الأمر بكل تأكيد يبدو لنا اليوم على شيء من السذاجة السياسية، لكن لو أننا التفتنا قليلا إلى الواقعة في ظروفها الزمنية والثقافية والتأهيلية لما ترددنا في أن نصفها بالحدث التاريخي.

إذ يكفي لكي نقدر خطورة الانجاز أن نعرف ما سبق تلك الزيارة من ترتيبات تجاوزت الإطار الرسمي البروتوكولي، إذ أن إقرار الدولة المسلمة بمجرد زيارة يؤديها ممثلها إلى بلاد الكفر حيث سيلتقي فيها بالبغاة الصليبيين كان يعد نازلة تستدعي كثيرا من البحث والتثبت والمشورة.

بل لقد كانت تلك الزيارة بالفعل نازلة دينية قبل كل شيء[45]، إذ أمر تسيير الدولة لم يكن يخرج عن نطاق الكتاب والسنة، ولهذا سنرى الدولة الجزائرية المسلمة لا تتلقى البادرة الفرنسية المتمثلة في دعوة وزير الخارجية إلى زيارة حاضرة ملكهم بالترحيب والارتياح الذي نجده اليوم يميز كل خطوة تقارب بين دولتين وإن اختلفتا في المعتقد والإيديولوجية، بل لقد تلقت تلك البادرة بكثير من التردد والحيرة والاستخارة.

لقد كان الدين محك المواقف والصلات، وإنَّ طرْقَ باب الكافر المعتدي والمنتهك لحمى الملة والوطن لهو حادث لا ينبغي أن يتحقق إلا من خلال مراجعة الشرع وتقدير أهميته أو خطورته على ضوء العقيدة.

من هنا رأينا الدولة الجزائرية تُخضع تلك الواقعة للفتوى، فتسارع إلى إحالة الأمر على الجهات الاسلامية التي كانت ترى لها الأهلية في الاجتهاد، فتستفتي علماء المغرب والسلطان المغربي في المسألة – مسألة إرسال وزير سفير (باشدور ) إلى البلاط الفرنسي للتحادث في أمر الاحتلال والعلاقة بين البلدين.

---

[45] – مما يذكر في هذا السياق أن الوزير العثماني في عهد سليمان القانوني دعي لمناسبة احتفالية إلى فرنسا وراجع الباب العالي المفتي في ذلك فكتب في ذيل الرسالة : إذا كان ذاهبا للغزو فليذهب .

وهكذا لم يقطع الأمير في مسألة إرسال وزيره حتى جاءته فتوى السلطان والمجمع العلمي بجواز ذلك، عندئذ أذن للوزير ابن عراش أن يقوم بزيارة فرنسا تأدية لتلك المهمة الدبلوماسية التي ستدشن بها الجزائر المعاصرة مجال التواصل السياسي والدبلوماسي على نطاق سيعرف ذروته بعد نحو قرن من ذلك التاريخ، أي حين سيفجر الوطن حربه التحريرية المباركة التي استدعت توظيف الفعل السياسي إلى جنب الفعل الجهادي، افتكاكا للحرية.

إن ما أردنا أن نصل إليه من وراء هذا الاستطراد هو أن مسؤولية ابن عراش الدبلوماسية لم تكن بالأمر السهل، إذ أن الدبلوماسية كانت تعد على نحو ما نشاطا يتماس مع الحرمة، وإلا فكيف نفسر تولية الأمير لمستشار دبلوماسي من اليهود – هو بن دران – لو لم تكن وظيفة السفارة وظيفة مريبة لِمَا تنبني عليه من نشاط ومراس وتفتح على الآخر، الكافر.

فمن الثابت أن الصراع الملي – بين الأديان – قد وضع حواجز بين الناس المختلفي العقائد، فقد ظلت اليهودية تنظر إلى البشر من غير العرق الاسرائيلي بنظرة دنس وتعال ونبذ، وكانت المسيحية بدورها ترى أن كل من يخرج عن الرعية الكتابية مارق ويتبع الشيطان، الأمر الذي عمق بين البشر منازع الشقاق والعدوان.

ولما كانت العقيدة الاسلامية هي العقيدة التي توجت سلسلة الرسالات السماوية إلى الأرض فقد أخذت بمبدأ

القوامة والطليعية لأنها اعترفت بديانات الأنبيـاء والرسـل أجمعين وأدمجتها في كتابها السماوي المحفوظ وتفتحت على الانسانية جمعاء، وهو ما جعلها تنزل الفرد المسلم، ومن أي جنس كان، منزلة الطليعية، اعتبارا لما ميز العقيدة الاسلامية من شمولية وكونية ومن ديمقراطية دينية ومعرفية، الأمـر الذي تحقق لها على مدار عهود من حضارتها.

إذ رأت البشرية في تلك الحضارة وجاهة استقطابية لا تنكر، وهو ما انعكس على السلوك الذي سنه الفقه الاسلامي للمسلم ذاته، إذ عزز لدي المسلم روح السمو والتسامي مـن حيث كونه يحمل العقيدة التـي شـملت غيرهـا وتقـدمت بالإنسانية بعيدا في مضمار التسامح والتـآخي والاسـتنارة المعرفية والرقي العقلي والكمال الأخلاقي.

من هنا ألحت –ومنذ عهد النزول– النصوص المقدسة – قرآنا وسنة – على أن تزرع في الانسان المسـلم قناعـة الاعتداد الإيجابي والاعتزاز السوي، بما أكرمه به الله مـن اصطفاء حين جعله ينتمي إلى خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بحقوق الانسان. وهـو اعتداد إنساني خال من العرقية التي تكرست لليهود في العهد القديم مثلا. إنه اعتداد الاستنارة والتطلع الانساني الشـمولي الذي لا يبخس البشر أو يتعالى عليهم، وإنما يسددهم بتعاليم الله.

إن هذه التربية السامية التي تسلح بها المسلم والتي ظل يستمد منها قوته الباطنة والظاهرة قد لازمته عبر الأطـوار

التاريخية الزاهية تقريبا لأنها حلت منه محلا قدسيا ألزمه بأن يكون دائما الأقوى والأظهر والأبـرز الـذي لا ينبغـي أن يتخاذل أمام الكافر، لذا رأينا العزة تلازم نفـوس المسـلمين على الرغم من اختلال كفتهم الحضارية حتى في عصـور التقهقر.

بل لقد رأينا روحية الظهور المسـتنير التـي رسـخها الاسلام في النفوس تجد مجالا للتكيف حتى بعـد أن طغـى الأعداء المليين وأضحت ضرباتهم تتلاحق على دار الاسلام، إذ سرعان ما آمن المسلمون بأن الانكسار الذي يلحقهم على يد الكفار إن هو إلا امتحان من الله تقابله سـعادة أخرويـة سيحرم منها أعداء الملة المحمدية[46].

من هنا لا غرابة أن يظل المسلمون يتحفظون إزاء كل تعامل يجمعهم بالكافر، فكيف إذا كان الظرف حربيا جهاديا، وكانت المقاصد الطغيانية لا تخفي كيدها للاسلام وللمسلمين.

فمهمة السفارة التي قام بها يومئذ ابن عراش لم تكـن رحلة عادية رتبت لها دوائر بروتوكولية وحسبت تفاصـيلها وضبطت جزئياتها، بل لقد كانت نازلـة شـرعية ومدنيـة عاشتها الدولة الجزائرية بكامل الاعتبـار الـذي تسـتحقه، وقدمت في شأنها المقصد الشرعي على أي مقصد آخر لمـا

46 – ونفس الشعور ستظل المجموعات الكنسية تعرب عنه تحت ما كان يصيب بلدالها من ضربات أو حتى من أوبئة وجوائح أو أضرار طبيعية.

كان القادة والأمة عامة يعتقدونه من أولوية الشرع على الوضع.

وإنها لواقعة سياسية تماسكية جديرة بأن تستوقف المتتبع، لما تبرزه من تشبث بالمقومات المقدسة في وقت كانت الظروف الحربية ترخص للساسة أن يتحللوا من الضوابط الشرعية أو أن يكيفوها بفعل داعي الضرورة وانسياقا مع منطق مطاوعة العدو المستفحل ومجاراته اتقاء لشروره وصَوْلته.

هكذا إذن أدى ابن عراش مأمورية دبلوماسية تداعت لها اجتهادات الساسة وأهل الدين من داخل القطر ومن خارجه، وحسم الاجتهاد الشرعي قبل الرأي السياسي في أمر جوازها وحليتها، وتخطت الأمة بانجاز تلك المأمورية الدبلوماسية عتبة الانحباس ودشنت زمنا جديدا من التفاعل مع الآخر والاحتكاك به والتمرس بأعرافه وأفكاره ومدنيته من موقع الرخصة، درءا لبوائقه التي كانت مكشوفة للعيان .

لقد كان ذلك الحدث الدبلوماسي أول خطوة تسجلها الأمة على هذا الصعيد المغاربي في مضمار فقه السياسة، إذ تلاقت الفتوى بالمراس الميداني لتكرس أفقا واسعا للتعامل مع الآخر، في مضمار الاحتراب والمسالمة على السواء.

ويبدو لنا أن آثار ذلك التحول في الرؤية وفي العلاقة مع الآخر، قد طبعت روح الأمير في الصميم، لذا سنراه يحيل

في كتاباته [47]– وإن بطريقة غير مباشرة – إلـــى الـــدواعي المستجدة والطارئة التي اقتضت من الأمة أن تراجع نفســـها وتعيد النظر في بناء علاقتها مع الآخر على أسس واقعيـــة استدراكية .

فلقد كان ذلك الاقتحام الخارجي يحتم علـــى الأمـــة أن تضبط ردود أفعالها وأن تبني سياستها مع الأجنبي في ضوء الرخصة والاعتدال والمهادنة، أي في نطاق ما انبنى عليـــه الشرع الاسلامي من روح انسانية لا تقف عقبة بتاتـــا وراء التقارب المشرف.

بل إن ذلك التكيف الايجابي هو بالـــذات الـــذي جعـــل الأمير يعرب عن نوع من تقبله للمواطنة وهو فـــي كنـــف السلطان الفرنسي، بعد أن تبين له أن مقتضى حفـــظ الـــذات والعقيدة يرخص له أن يجنح إلى المساكنة مـــن غيـــر مـــا مضض.

ألم يبادر الأمير مثلا إلى المشاركة في عملية التصويت يوم كان مقيما في محتجزه بفرنسا بعد أن أظهرت له الدوائر الفرنسية شيئا غير قليل من الحرية والتكريم الذي أتاح له أن يتعلق أكثر بعقيدته وأن يستعيض في تجسيد قيم شريعته بين الأعداء عن كثير مما أضاعه في الحرب لا سيما الوطن.

47 – انظر مثلا بعض ما ورد في كتابه : المقراض الحاد.

كل ذلك كما يتراءى لنا كان توسعة شرعية من الأمير إزاء نفسه ودينه وبني جنسه في مرحلة ما بعد الانكسار، تثميرا لما تقوم عليه مبادئ دينه من إنسانية وسماحة أصيلتين.

لقد كانت الدبلوماسية الجزائرية تتلقى أول دروسها الشاقة والصعبة بتلك الواقعة التي ألزم عليها ابن عراش، إذ كانت الكيفية التي شاءت القيادة الاستعمارية الفرنسية أن تمرر بها مقاصدها التحللية إلزاما سافرا ليس معه خيار.

ثم إن رفض الأمير لتلك الوثيقة وعدم السكوت حتى عن ذلك التوقيع الذي كان مجرد توقيع اطلاع من قبل وزيره، لمما يؤكد الحسم الجهادي الذي لم يكن ليحيد عن الأهداف المبدئية قيد أنملة لمجرد أن لاحت في الأفق بارقة حوار ولقاء مع العدو الغاصب.

لقد كانت الدبلوماسية الجزائرية في العهد الاحتلالي تواجه أولى حالات المواجهة الاستكبارية المتغطرسة، ولم يكن في وسعها يومئذ- هي التي كانت تقوم على خلفية شرعية - أن تمالئ أو تداور، وكان عليها أن تسلخ وقتا طويلا قبل أن تستيقن من ميكيافيلية السياسات الاستعمارية، ذلك لأنها كانت في عهدها الأول ذاك لا تزال تمضي على النهج القرآني الذي من ارتكازاته الصدق وعدم المماراة في الحق ولو كان الخصم عدوا كافرا، وهو ما سيكبد المسلمين كثيرا من النكبات لانخداعهم بالغرب واغترارهم بمواثيقه الادعائية ذات الوجهين والمتقلبة مع المصلحة والمنفعة.

**دبلوماسية الانفتاح.**

لا يعني ما تقرر آنفا من تمسك القيادة المجاهدة بمبادئ الأخلاق وعدم تلويثها في حمإ النفاق السياسي والمتاجرة بالموثق أنها سارت على طريق العزلة السياسية والامتناع عن التعامل مع الدول من غير أمة الاسلام لعدم وثوقها بمصداقيتها، بل لقد رأينا القيادة الوطنية تبدي مهارة كبيرة في متابعة مجريات الأحداث العالمية وفي استغلال كثير من السوانح لفائدة قضيتها التحررية.

بل لقد رأينا العمل يجري على نطاقين بقصد كسب ما يمكن كسبه من تأييد القوى الأجنبية لقضية كفاحنا.

فقد وجدنا الأمير يستغل علاقات الدول الغربية ويسعى إلى استمالة بعضها إليه في ضوء تضارب سياساتها مع سياسة فرنسا.

لقد رأيناه يطوي الصفحة الدامسة بيننا وبين الاسبان ويدخل في مراسلات واتصالات مع الرسميين وغير رسميين منهم، استجلابا للدعم المسلح الذي كان في حاجة ماسة إليه وخاصة بعد ما فرضت فرنسا الحصار على الأسواق الجزائرية ومنعت التعامل مع الأهالي لا سيما في ما يتعلق بالتجهيز الحربي والعتاد التقني والتصنيعي.

وبالفعل فلقد حققت تلك السياسة شيئا من أهدافها واستطاع الأمير أن يخترق الحصار وأن يستجلب بعضا من حاجاته الحربية والتموينية، بل واستطاع أيضا أن يبادل

صادرات من الحبوب والبضاعة الزراعية والصوفية وغيرها ببضاعة أوروبية مستوردة من انجلترا وغيرها.

بل لقد رأينا مراسلاته السياسية مع الحكومة الاسبانية تعمل بإلحاح كبير في اتجاه إرساء قاعدة للتبادل التمويني يشمل البارود والحديد خاصة، من حيث كان استيراد الحديد مطلبا حيويا يستجيب لمرامي التصنيع الحربي الذي شرع فيه الأمير.

وسوف نجد التعامل يشمل دولا أخرى من بينها أمريكا، إذ كانت قطع من أسطولها تمارس نوعا من الدلالة التجارية في منطقة البحر المتوسطي وشمال أوروبا والبلاد الاسكندنافية، وهو نفس العمل الذي كانت تؤديه بوارج تجارية من هولاندا والسويد وبلاد أخرى.

وسنجد الأمير يتقدم إلى الانجليز بعروض بغاية إدخالها في الموازنة الاستراتيجية ضد فرنسا لما قدر في ذلك من فائدة للجزائر، ونفس الأمر سعى إلى تحقيقه مع اسبانيا ومع أمريكا، لكن عروضه في هذا الشأن لم تكن لتحقق مقاصده، إذ رأينا حالا من السلبية العامة وإن تفاوتت مظاهرها تقابل تلك العروض، وهو ما زاد المسلمين الجزائريين تأكدا من أن الكفر ملة واحدة.

فالتجاذب بين الدول الغربية وإن كان يومئذ ساخنا في اتجاه اقتسام العالم واستعمار أرجائه، إلا أن اتفاقها المستتر منذ تلك المرحلة على عدم ترجيح الكفة لصالح الشعوب

المغلوبة كان وطيدا ولا سبيل إلى نقضه بالرغم من وجود خلافات بينها.

ومما يجدر التنويه به هنا حرص الأمير على اعتماد ممثليه من الأجانب والهدف من وراء ذلك ظاهر، إذ كان حاديه تحقيق النجاعة الدبلوماسية القصوى بأي سبيل.

بل لقد رأيناه يتوفق كثيرا في اصطفاء العناصر الذين تؤهلهم جنسيتهم وانتماؤهم الغربي لأداء المهام الدبلوماسية والتمثيلية التي كان الأمير ينيطها بهم.

فزيادة على ما رأيناه من تعيينه لليهودي المتمرس بن دران كممثل مفاوض عنه لدى الفرنسيين، وجدناه يختار ممثلا دبلوماسيا من أصل إيطالي كان قائما بأعمال أمريكا في الجزائر، ليتولى تمثيله لدى الحاكم الفرنسي في الجزائر. وكان سداد الأمير في ذلك الاختيار كبيرا بحيث وجدنا خياره ذاك يربك الحكومة الفرنسية إذ وجدت نفسها أمام ممثل له وجاهته على الصعيد الدولي وقادر على تحميل فرنسا تبعات خروقها للاتفاقات والتواثقات مع الدولة الجزائرية.

ذلك لأن الأمير كان على وعي بالدور الإشهادي والتشهيري الذي كان الممثل الغربي سيقوم به في أي اتفاق ينعقد بين الدولتين الجزائرية والفرنسية، إذ أن الاتفاقات كانت ستبرم بحضوره أو ربما حتى على يديه، الأمر الذي سيجعلها نافذة أو سيكسبها -على الأقل- صفة تواثقية دولية.

ثم إن تعيين الأمير للمواطن الإيطالي الذي كان يقوم برعاية مصالح أمريكا في الجزائر كان يستهدف أيضا التواصل على ذلك النحو مع أمريكا ومع ايطاليا، بل إن ذلك التعيين كان يعني -على نحو ما -توكيلا - على نحو ما - لأمريكا كي ترعى مصالح الجزائر لدى فرنسا والعالم الأوروبي، وفي ذلك - لو حصل - ما فيه من الكسب الدبلوماسي الفعال.

لكن الاستعمار الفرنسي لم تغب عنه المرامي الجزائرية من وراء ذلك الاختيار، لذا سارع إلى رفض التعيين، مستغلا الصيغة البروتوكولية الدولية التي تقتضي من الدولة المستقبلة أن توافق أولا على السفير أو الممثل المعتمد لديها من قبل الدولة صاحبة الاعتماد.

لقد أثار ذلك الاختيار فرنسا، وعملت كل ما في وسعها من أجل أن تثني الجزائر عن تعيين ممثل أمريكا عنها، وهو ما أذعنت له الجزائر في آخر الأمر بقوة العرف الدولي.

على أننا سنجد فرنسا تختار من جهتها عنصرا مصريا من الغز المماليك ممن اصطحبتهم معها إلى فرنسا عقب حملة بونابرت على مصر، لتقوم بتمرينه على المهام التمثيلية والاستخبارية ولتوجهه إلى عاصمة الأمير معسكر حيث قام برعاية المصالح الاستعمارية.

والذي لا نستبعده أن يكون ذلك الاختيار يتقصد إحكام الرقابة الخبيرة على الوضع التجنيدي الذي كان الأمير

ينهض به والذي كانت فرنسا تخشى معه أن يثمر تعاونا بين الأمير والدول الشقيقة، لاسيما مصر والدولة العثمانية.

فتعيين عبد الله المصري في ذلك المنصب التمثيلي كان يبين مدى الأهمية التي ظل المحتلون يراقبون بها العلاقات بين الجزائر والبلاد الاسلامية، إذ جعلوا في طليعة اهتماماتهم - من خلال المهمة التي ستوكل إلى سفيرهم - رصد الصلات بين الجزائر وبين بلاد المشرق وخاصة الصلات الحربية والعسكرية.

ثم إن هذا الممثل المسلم كان مهيأ لاختراق الحجب بكثير من السهولة على اعتبار وحدة الدين واللسان، فضلا على أنه سينال قبول وارتياح القيادة الجزائرية لسهولة التواصل معه لغة وعادات وذهنية.

ومن غير شك أن الاختراق الاستخباري كان أوسع نطاقا في تفاعلات الجزائر مع فرنسا، خاصة وأن فرنسا قد تيسر عليها أن تصطنع من بين الأهالي أنفسهم أذنابا ليس فقط من تلك القبائل التي توارثت العمالة للأجنبي الكافر، ولكن حتى في أوساط مثقفة وعلى شأن وحسبٍ كما قد سنعرض إليه في حينه.

**الدبلوماسية والروابط مع الدول الشقيقة.**

لا أحد يبرر موقف الدولة العثمانية السلبي من القضية الجزائرية، فقد كان سقوط الجزائر يعني تحلحل النفوذ العثماني على أول جزء من أجزاء السيادة الملية المباشرة

التي ظل آل عثمان يبسطونها بكيفية أو بأخرى على رقاع واسعة من العالم العربي والاسلامي.

لقد كان الانزال العسكري الفرنسي على شواطئ الجزائر يعني زعزعة سيادة الدولة العثمانية بالدرجة الأولى، فقد حملت بوارج الاحتلال للجزائريين وعودا بتحريريهم من الترك ومن جورهم وهمجيتهم.

والواقع أن الإيالة الجزائرية تحولت في ظل الحكم التركي إلى نقطة صدام متقدمة ومهددة للغرب، وكانت العسكرية التركية في الجزائر تنهض بدور بارز وطليعي في مناهضة التوسع الغربي وهيمنته التي ظل يعمل على بسطها عبره، مما جعل الغرب ينظر إلى الإيالة الجزائرية نظرة عدوان لأنها كانت معتبرة عندهم جبهة عثمانية لا مجال لقهر الباب العالي إلا بتصفية قوتها البحرية.

لقد كانت العلاقة بين الإيالة والباب العالي، رغم علاقة الاستقلال التي ربطتهما لا سيما في العهود الأخيرة من وجودهم بالجزائر، تقوم على نوع من الاعتراف الروحي بالباب العالي، لذلك ظلت التبريكات والتزكيات بتنصيب الحكام الجديد على الإيالة تأتي من الباب العالي.

وما أكثر ما جاءت الانقلابات الدموية بالحكام إلى السدة ولكن تزكية الباب العالي لهم كانت لا تتأخر إلا في النادر.

بل لقد وجدنا التواصل الأدبي بين الطرفين ثابتا، بحيث ألفينا حتى فترات القطيعة التي كانت تعلن فيها العسكرية التركية بالجزائر صراحة عن انفصالها عن الباب العالي لا تكاد تدوم طويلا، إذ سرعان ما كانت العسكرية تجد نفسها كمؤسسة تريد لنفوذها أن يسترسل بنوع من الشرعية في حكم البلاد بحاجة إلى التسويغ الروحي والمرجعي من الخلافة، الأمر الذي كان يحتم على العسكر أن يعملوا من جديد على إعادة الأواصر مع العثمانية إدامة لنفوذهم بالجزائر.

لقد كان تقبل الجزائريين للوجود التركي في بلادهم قائما على شعور ملي إطاره الخلافة الاسلامية.

ثم إن العسكرية نفسها التي ظل كيانها يتجدد على أرض الإيالة كانت تتكون من المدود التي ترسل بها الخلافة أو التي توافق على اعتمادها كدرع وأداة جهاد في هذا الشمال الافريقي المواجه للأوروبا، دار الحرب.

من هنا كانت الدول الغربية وهي تهاجم أو تتوعد بلاد المغرب، لا سيما ما كان منها ينتسب للدولة العثمانية، إنما تقصد تكسير شوكة الباب العالي والقضاء على دار الخلافة، مصدر الخطر والمنافسة على النفوذ المتوسطي وعلى التجارة العالمية.

لذا كان احتلال الجزائر على ذلك النحو السريع، قد أعطى الدليل على صدق النعت الذي خصت به العثمانية حين قالوا عنها رجل أوربا المريض.

ذلك لأن انهزام عسكرية الإيالة في الجزائر في أيام أو أسابيع، وعدم تلقي الغرب أي رد فعل حازم كان من شأنه أن يتحول بسير الاحداث إلى وجهة أخرى قد جعل الغرب يمضي بكثير من الثقة في تنفيذ برنامجه الذي كان يستهدف إسقاط العثمانية كقوة أولى أو ثانية في المشرق والمتوسطي، تمهيدا للاستيلاء على التركة بشراهة ستظهر في ذلك الترافس الشرس الذي تقاسم به الغرب البلاد الاسلامية ووزعوها قطعا ورقعا سيتعذر فيما بعد على الأمة أن ترتق صدوعها.

والحقيقة أن الدهشة لتتملكنا من التسليم الذي قابل به الباب العالي واقعة سقوط الجزائر والسلبية التي راح يتابع بها أحداث التوسع الفرنسي في الأرض الجزائرية، والمطامح غير المتسترة التي أظهرها العدو حين تطلع إلى البلاد المغاربية الأخرى حيث باشر إزاءها سياسة تخضيع وقهر كشفت عن نواياه في التقدم إليها واحتوائها ما أن يتهيأ له الظرف.

وإذا قلنا إن المستعمر الفرنسي قد عمل على تحييد الخلافة وعلى إبعادها عن الاهتمام بالقضية الجزائرية بما بذل من أسباب وبما لوح من وعود، فإن المؤكد أن الخلافة كانت آنذاك تمر بمرحلة من الضعف والهوان لم يتح لها

معها أن ترفع رأسها وصوتها في وجه الغرب إلا على ذلك النحو الذي لا يشكل خطرا.

وهكذا وجدنا الخلافة تتعامل مع القضية الجزائرية بطريق تكشف عن ضيق في الرؤية وعن سوء تقدير وحسابات ظرفية مخجلة. فبدل من أن تهب إلى احتواء القضية والعمل على مواجهة الموقف العسكري بتعبئة إنزالية مضادة، لا سيما وأن القوات العثمانية كانت تتمركز في كل من ليبيا وتونس، وهو ما كان يتيح لعملية مرور قواتها ليس فقط عن طريق البحر ولكن عن طريق البر أيضا وتطويق المعتدين والتفاوض معهم من موقع القوة، بدل ذلك رأينا الهمة العثمانية تتحدد في ذلك التجاوب المحتشم الذي تمكن أحمد باي من أن يظفر به منهم بعد كثير من الالحاح، وكان من أهم ما أسفر عنه إرسال مدد عسكري وشيء من الأسلحة التي لم يتمكن أحمد باي نفسه من أن يتسلمها، لأن حاكم تونس قد اعترض على توصيلها إليه بعد أن ضغطت عليه فرنسا.

وكان في فشل تلك العملية الإمدادية منتهى ما فاعلت به العثمانية واقعة سقوط الجزائر في يد العدو الملي.

بل لو أن تلك الخطة العثمانية كانت حاسمة وتستهدف حقا انقاذ الجزائر لكان التجاوب وقع مع شخص الأمير، ولألحت العثمانية على توحيد المقاومة وجعل أحمد باي وهو الأقرب إليها بحكم النسب والسابقة الإدارية له في الحكم التركي بالجزائر، ينصاع لنداءات الأمير التي وجهها إليه

يدعوه للانضمام إلى الصف والتصدي للعدو الملي المشترك، لكن الباب العالي كان يتصرف في حدود الرؤية الحولاء التي ميزت سياسته في عهد الضعف، فكان حتما أن تخيب مساعي من يعول عليه، وأن يلحق الوهن سائر الجهات التي تراهن عليه.

في تلك المرحلة سنجد دبلوماسية الأمير تتحرك في الاتجاهات التي كانت تتوقع منها الإجابة، إذ راسل العثمانيين والانجليز ولم يتلق التجاوب من الدولتين معا، ومن غير شك أن الاتصالات كانت تتردد على القسنطينية طيلة سنوات السيادة التي مكثها الأمير على رأس الدولة الجزائرية دون أن تنجح في انتزاع ما يقوي الجانب من العثمانية، لأن الخلافة كانت غائصة في طين الاندحار.

لن نقرر هنا أن موقف العثمانية السلبي من مكاتبات الأمير واستغاثاته بها كان إشارة أولى على النقار القومي الذي سينشب بين العروبيين والأتراك في وقت لاحق، واحتمال أن العثمانية تكون رأت في قيام دولة يرأسها الأمير العربي وينتزع استقلالها بتضحيات الشعب الجزائري العربي المسلم، بداية تحول قومي ستودي بالمركزية السياسية والروحية العثمانية، وهو ما لم يكن مقبولا ولا متصورا من آل عثمان رغم عجزهم عن الإيفاء بحق الحماية.

فمن الثابت أن النعرات المحلية ببعدها القومي ظلت منذ ذلك الوقت - بل ومنذ وقت أسبق - توسع من الهوة بين الأتراك والعرب في أكثر من قطر أو إيالة، فاستغلال محمد

علي بولاية مصر مثلا– رغم انتساب ذلك الحاكم إلى غير الجنسية العربية المصرية – كان ثلما في جدار الوحدة الملية الشاملة، تلك الوحدة التي طالما طمحت إلى تثبيتها وتحقيقها الخلافة العثمانية. فلا عجب – والحال هذه –أن نجد الباب العالي يتجاوب مع أحمد باي بتلك الهمة المنهكة وأن يسعى إلى نجدته بما وسع المركزية العثمانية أن تنجده به، على عكس موقفها السلبي من الأمير عبد القادر، إذ أن النظرة إليه وإلى كيانه كان يمتزج بالاستراية والتشكك لما يحمله قيام كيان عربي بحد السيف من مشروعية الاستقلال والخروج عن ربق الخلافة، خاصة وأن علاقة الجزائريين بالإدارة التركية كانت قد وصلت إلى درجة من السوء والتردي لم يفت معها الباب العالي أن يدرك مشاعر النقمة ضد حكم الأتراك التي كانت تسود الجزائريين في عهد الإيالة الجزائرية الأخير.

وهي المشاعر التي استغلها المستعمر كثيرا – كما أسلفنا – في إغراء الجزائريين بقبول تدخله وتوليه عليهم وطرد الانكشارية الجائرة من الوطن.

ترى هل يمكن القول إن الخلافة العثمانية كانت ترى في الأمير عبد القادر وفي الهمة التي أبداها في إقامة كيان وطني قومي بادرة منذرة ستفتح الباب على مصراعيه أمام الأقطار العربية التي كانت تتبع الخلافة، كي تعمل ما ستتمكن منه في سبيل التخلص من الهيمنة العثمانية حتى ولو بمد اليد إلى الأجنبي.

أجل إن هذا الأجنبي الذي كان يتربص الدوائر بالخلافة سيجد في تحريك مشاعر القومية ونقل مفاهيمها الشوفينية والقطرية من أوروبا إلى بلاد المسلمين خير عون له على تحقيق أغراضه التشتيتية التي انتهت بإسقاط مرفق الخلافة ذاته.

على أن المؤكد الذي لا نتردد في تسجيله هنا هو أن الأمير عبد القادر ومعه الأهالي الجزائريين - بسلامة الإيمان وخلوص مشاعر الانتماء الاسلامي- لم يكن التفاتهم للعثمانية مجرد لجوء اضطراري، تكتيكي، قصدوا به اكتساب الإسناد الأخوي من الخلافة، إنما كان التفاتا مليا تمليه العقيدة وشعيرة الجهاد التي ظل الجزائريون يشتركون في النهوض بها مع العثمانيين منذ عهود.

فالدوافع كانت شرعية، لذا لم يتردد الأمير في طلب العون سواء من العثمانية أو من بقية الأقطار الاسلامية الشقيقة التي كان يراها مؤهلة لمد العون.

بل إننا متأكدون من أن تطلعات الأمير التجنيدية لم تكن لتقصر على نطاق دول المغرب والمشرق العربيين، ولكنها تجاوزت إلى بلاد مسلمة أخرى بما فيها الهند وبلاد آسيا الإسلامية، ولسنا نتصور مثلا تعرف الشيشانيين على شخص الأمير إلا من خلال لحمة التضامن المعنوي والتواصل الروحي التي ساهمت في عقدها حركة اتصالات الأمير بالأشقاء المسلمين في أكثر البلاد الاسلامية سواء أثناء الكفاح الجهادي أم بعده.

ونحن نتوقع أن الكشوف التاريخية في هذا المضمار ستثبت شيئا من تلك الجهود التي بذلها الأمير في التعريف بقضيته وفي سعيه لحشد الدعم لها، تحدوه في ذلك روح الجهاد التي تفرض على كل المسلمين تبعة النهوض بشعيرة الجهاد ومصادمة العدو والتساند في رده، في ذلك الوقت الذي كانت الجزائر المسلمة تعاني وحدها من هجمة اجتياحية صليبية. إذ لا نتصور أن يترك الأمير – وهو في تلك الأوضاع المتقلبة بين التفاؤل بالنصر والاسترابة مما تخفيه الأيام للبلاد في صراعها الميداني مع الأجنبي – مواسم الحج وما تتيحه من المناسبات الأخرى لشرح أحوال الجزائر بعد أن أضحت في ضمير المسلمين أندلس ثانية .

ولعل ما سجل من أشعار[48] عن تلك الفترة صدرت عن أوساط عربية وإسلامية مفجوعة بنكبة الجزائر لخير شاهد على روح المشاركة التي لقي بها أبناء الإسلام تلك الواقعة الاحتلالية المشؤومة والتي هزت الكيان الاسلامي ونذرت بلدانهم بسيء الطوالع. الأمر الذي لا نستبعد معه أن يكون الأمير قد سعى لاستغلاله بغية حشد التأييد الاسلامي لصالحه.

---

[48] نحيل مثلا على كتاب رياض الورد فيما انتمى إليه عبد الله محمد الطالب لأبي عبد الله السلمي المرداسي الفاسي. تحقيق د. جعفر بن الحاج السلمي .طبع كلية الآداب والعلوم الانسانية تطوان. 1999. فقد أشار فيه من بعض الكلمات إلى الأثر الذي أحدثه احتلال الجزائر من قبل الفرنسيين والتجاوب الوجداني الذي أوقعته نكبتها.

وإنه لبديهي القول إن طبيعة ردود الأفعال التي أحدثتها واقعة سقوط الجزائر في يد الصليبيين لم تكن ينتظر منها أن تشذ عن مستوى الانهاك والتردي الذي كان عليه العالم الاسلامي عصرئذ، إذ أن الانحطاط كان قد انتهى بالأمة إلى عتبة الزراية والموات، بحيث بات لا يطمع طامع في تجاوب ذي جدوى يعتد به من أي مستصرَخ من أبناء الأمة أو أقطارها. لكن المصيبة حين تحل بالقوم تسوغ لهم الاستعانة بالهش وبالمتين.

ويكفينا في هذا الصد أن نطلع على بعض ما طرأ على العلاقة بين الجزائر وجارتها المغرب من تقلبات متذبذة في تلك المرحلة المتزلزلة، لنتعرف بالتقريب على مدى إمكانات التساند والمعاضدة التي كانت متاحة للمسلمين في مواجهة العدوان الخارجي.

لقد عرفنا فيما سلف أن الجزائريين أو طائفة من أهل الحل والعقد منهم، كانت توجهت إلى السلطان المغربي تطلب إليه أن يتولى قيادة البلاد والسير بالأهالي على طريق الدفاع عن الملة ودفع المحتلين الفرنسيين، وعرفنا كيف أن الفرنسيين قد ضغطوا وأجهضوا تلك الخطوة التوحيدية الريادية التي كانت ستتم بين الجزائر والمغرب في ظروف كانت البواعث الأمنية والدينية تحتم الوحدة وتوجبها بينهما.

ومن غير شك فإن الجزائريين كانوا يرون في تلك الوحدة الحل المناسب والذي لا مناص لهم منه دفعا للمخاطر التمسيحية، ثم إن العلائق بين المغاربة والجزائريين قد ظلت

موصولة بروابط الدم والقربى لم تزدها المراحل التاريخية التي عاشتها الجزائر في كنف الحكم التركي إلا قوة، إذ كان الجزائريون ينظرون إلى استقلال المغاربة تحت مشاعر الوطأة العسكرية التركية التي كانوا يعانونها في الجزائر، أي بعين الغبطة.

بل لقد كان القهر التركي يدفع بعض الجهات إلى التقرب من العرش المغربي والتوق إلى الانتساب إليه هروبا من العسف المخزني. ومن جهته كان السلطان المغربي الذي ظل يدفع عنه مساعي الهيمنة العثمانية على وطنه، يشحذ في الأهالي، لاسيما في المناطق المحاذية لبلاده، الرغبة في رفض الحكم التركي، إذ كان يرى في مجاورة الاتراك له خطرا لم يعرف معه السكينة طيلة وجود الترك بالجزائر.

من هنا تكررت محاولات اختراق الحدود التي جربها المغاربة أكثر من مرة، ومن هنا أيضا كان تأييدهم للخارجين عن السلطة التركية من الأهالي، بل وكانت مساعي الإلحاق التي ظلوا يصعدونها تجاه الجزائر والتي ربما نجحوا في بعضها بحيث تمكنوا من أن يحصلوا على نوع من التعامل المعنوي من قبل بعض المراكز القصية.

وحين دخل المستعمر وشرع يزحف على ثغور البلاد وسهولها كان طبيعيا أن يستنجد الجزائريون بالسلطان المغربي، بل وأن يقطعوا أمرهم فيطلبوا إمرته عليهم احتماء من عاديات الاحتلال والتنصير والتمزق والتشرذم وهي

أحوال هددت فعلا الجهات والقبائل في غياب وجود سلطة للدولة الوطنية وانعدام الشرعية السياسية.

ومن غير شك أن ذلك الاجراء الأهلي كان يتشاكل في طبيعته الاستنصارية مع ما سبق للجزائريين أن فعلوه مع الإخوة خير الدين الأتراك يوم أن داهمت الجزائر بوارج الإسبان وجثمت قواتهم المعادية على عدد من ثغور البلاد بقصد التوسع والاستيلاء على الأرض.

وإذا كان هناك من فارق بين واقعتي الاستنصار في الحالتين ( مع الإخوة الأتراك ومع الأشقاء المغاربة )، فهو أن المستغاث به في المرة الأولى كان مسلما ينتمي إلى سلالة الترك أصحاب الخلافة وحاملي الصولجان الملي في ذلك العهد.

أما في المرة الثانية فقد كان المستغاث به شقيقا تربطه بالأهالي زيادة على عرى الدين واللغة والتاريخ المشترك روابط الدم والأرومة الواحدة، فقبائل الأمازيغ والعرب التي سكنت شمال إفريقيا ظلت على مدى الزمن أواصرها مشتركة تتوزعها الأرجاء والأقطار ولا تقطع تواشجها الأحداث العارضة.

ومن جهة أخرى فقد كان انتماء الأسرة المالكة المغربية إلى النسب النبوي الشريف عاملا آخر يسوغ بسط اليد لها والاستغاثة بها من أجل النهوض بشعيرة الجهاد ضد الكافرين وتصعيد مكافحتهم.

لذا لم يتردد الجزائريون وهم يرون الاجتياح الصليبي يشملهم في أن يسارعوا برفع بيعتهم للسلطان المغربي وتقليده السيادة عليهم في زمن الخطر الماحق.

وهكذا أوشكت الوحدة السياسية أن تقع لولا أن يد الاستعمار الآثمة كانت من القدرة والفضاضة بحيث نقضت ما أبرمه الجزائريون والعرش المغربي، وبذلك وجد الجزائريون أنفسهم يواجهون الواقع المروع بعد أن وقعوا فريسة في يد استعمار كل ما يصدر عنه يؤكد أن مصيرهم معه سوف يكون مصير أهل الأندلس مع الإسبان.

في هذا الجو كان حتما أن تلتهب مشاعر المسلمين في القطرين حسرة على المآل وتأذيا بالحال الواهنة التي أعجزت الطرفين الشقيقين معا عن أن يمضيا على الخط الذي أراداه، وهو جمع كلمتهما في وحدة واحدة يتصديان بها للعدوان الصليبي الباغي.

وفعلا فلقد تحقق التجاوب الكبير بين الأشقاء، إذ المغاربة كانوا يستشعرون فداحة الرزء بخسارة الجزائر خاصة وأنهم يرون أنفسهم عاجزين عن إسعافها وإسنادها بسبب التهديد الذي جابههم به العدو الصليبي.

من هنا كان طبيعيا أن تفيض الأعماق بمشاعر التضامن والمشاركة والحسرة على حال العجز التي لا تمكنهم من نجدة الاشقاء.

ومع ذلك فقد رأينا الأشقاء المغاربة يعربون عن نصرة المجاهدين ودعمهم بما كان في وسعهم أن يدعموهم به، فقد جمعت التبرعات وجند حتى المتطوعة وأرسلوا يعززون صفوف المجاهدين، وكان ذلك يتم أولا بتوجيه دوائر الحكم، إذ أن السلطان المغربي بعد أن أعيق مشروع الوحدة بينه وبين الجزائريين بات يتطلع إلى سنوح الفرصة التي سيتمكن فيها من أن يجدد حمايته للجزائريين، ثم إن المواجهة مع المستعمر بينت له حقيقة العدو، ووجوب العمل على محاربته بإخلاص ابعادا لخطره ليس عن الجزائر فقط، ولكن عن المغرب والبلاد الاسلامية أيضا.

من هنا كانت السلطات المغربية تبدي تأييدها للمجاهدين، وتلوح بما يشد عضدهم وتبعث بالرسل وبالألطاف إلى الأمير تناصره وتقوي من جانبه، وكان الأمير من جهته يجد في ذلك التأييد سندا معنويا يهيئ له أن يبسط رداء الشرعية على أكبر جهات الوطن، إذ أن كسب الشرعية وإلحام الجبهة الوطنية على أوسع نطاق كان الوجه الثاني الذي تركزت عليه جهود الأمير.

من هنا رأينا علاقة التواصل بين القيادتين تنتعش في عهد أول على أكثر من صعيد، فزيادة على تلك الوفادات البروتوكولية التي كان البلدان يتبادلانها في إطار المناسبات السانحة، وجدنا التواصل بينهما يأخذ أبعادا استشارية وتعاونية واسعة، لاسيما وأن الأمير وجد في الأرض المغربية المجال الذي يمكنه من التجهز ومن تجاوز الحصارات التي تضربها عليه القوات المستعمرة، وهكذا

رأيناه يستورد من المغرب تجهيزاتـــه والخبـرة الصـناعية والعسكرية والتعليمية التي كان كيان الدولة الناشئة يحتاجها.

كما وجدناه يتخذ التراب المغربي فضاء للتواصل مـع الدول الخارجية حيث أمكنه خاصة أن يفاوض في السـر أو العلن ممثلي الشركات والدول الغربية.

من هنا كان استغلال الأميـر لهـذا السـند المغربـي استغلالا بارعا وتاما. لولا أن عين المستعمر كانت يقظة، لم يرحها أن ترى ذلك الترابط المثمر والإيجابي يسـتمر بـين البلدين الشقيقين.

بل لقد ساء المستعمر أن يرى في نهج الأمير جنوحـا سياسيا يجعل من الدولة الجزائرية التي كان يرأسها امتـدادا سياسيا ودبلوماسيا للمغرب، من حيـث مداومـة التشـاور وتنسيق المواقف.

ذلك لأن الأمير الذي كان بعيدا كل البعد عن أن ينتشي بملك أو إمارة دنيوية ظل ينظر طيلة وجـوده علـى رأس الدولة الجزائرية إلى المسؤولية على أنها عبء قـدري لـم يطب به نفسا قط، ولم يكف عن التطلع إلى التخفف منه.

ولا غرو أن نجده أكثر من مرة، وعلى مراحل متباعدة، يعرب عن رغبته الخالصة في التنازل عن الحكم للسـلطان والتوجه إلى المغرب ليتفرغ للعبادة، لا يفعل ذلك عن انقهار أو ضيق بالمسؤولية، فقد كان في زهرة العمر وفـي السـن

الذي تطيب معه التحديات والابتلاءات، لكنه طفق يعلن عن زهده في الإمارة لما كان يعمر قلبه من نزوع روحاني إلى التنسك الخالص والانقطاع التام.

فقد كانت العقيدة تعمق في نفسه تلك النظرة الوحدوية فيما يخص مسألة الملك، إذ الشريعة توجب خضوع الجماعات للإمام الواحد لاسيما إذا كان مبايعا بيعة شرعية، من هنا كان الأمير - بل وكانت نظرة الأهالي - إلى السلطان المغربي تحمل قابلية التبعية، إذ أن المشاعر الدينية كانت تقتضي منهم أن يمدوا يد البيعة إلى السلطان الشرعي القريب منهم بعد أن زايلهم سلطانهم (التركي)، وهو ما سيميز علاقة الأمير طيلة شوط كبير من عهده، إذ كان يرى للسلطان عليه حق المراجعة والاستنصاح والارتباط.

فلئن أعاق العدو قيام الصلة العضوية بين القطرين ومنع تحقيق الوحدة، فلا أقل من أن يحتفظ الأمير للسلطان المغربي بمكانته الروحية والمعنوية وأن يرعى له المنزلة على شتى المستويات، الأمر الذي وطد بينهما نوعا من التعاون والانسجام الذي ازدادت به معنويات التصدي للعدو، وسكنت في ظله مشاعر الخوف من المنافسة التي قد يكون الحكام المغاربة توقعوها من جراء قيام مُلكٍ فتي على حدود بلادهم.

إذ أن قيام مثل ذلك المُلك المجاور قد يغري المعارضين بأن يعلنوا عن شق عصا الطاعة أو طلب الاستعانة ضد السلطان.

فالعرش المغربي كان في تلك المرحلة يعيش تمزقات داخلية متفاقمة، فلا عجب أن نجد السلطان يرد على رسالة الأمير حين دعاه للمشاركة في جهاد الكفار، بأنه مشغول بمجاهدة العصاة والخارجين عن الجماعة وهي مجاهدة كما قال أولى من جهاد الكفار.

من هنا كانت علاقة التقديم والإكبار والمراجعة التي جسدتها دبلوماسية الأمير تجاه السلطان المغربي مدعاة لمزيد من التضامن والطمأنينة.

ومن جهتها ظلت فرنسا تعمل على ربط سياسة الأمير بسياسيتها من خلال حرصها على خلق مجال انفتاحي مغرض بينها وبينه لا سيما في ميدان التجارة، فما نصت عليه بنود المعاهدة –الاولى والثانية – من تقييدات على ميدان التجارة الخارجية كان يهدف إلى حصر نشاط العمل التجاري لدولة الأمير في التعامل مع الأسواق الفرنسية وبواسطة القنوات التي تحددها العسكرية الفرنسية لذلك التعامل باعتبارها هي الحاكمة في الجزائر.

فتلك البنود مثلا حين تنص على إمكانات التعامل التجاري، بل وعلى حصرها في إطار العلاقة مع الفرنسيين، من حيث تعيين أسواق التبادل والاستيراد وتحديد مراكز التعامل التجاري ضمن إطار سيادتها، فلكي تمنع أي نشاط خارجي للأمير قد يمكنه من إستيفاء حاجته من السلاح والتمون، بل وقد يهيئ له الكسب الدبلوماسي الذي يضر بمشاريع فرنسا الاحتلالية.

ثم إن ذلك التقييد على النشاط التجاري لدولة الأمير إنما كان يهدف أيضا إلى إضعاف علاقة الجزائر مع بعض الدول التي كان الأمير قد استطاع أن يبدأ التعامل معهـــا لا ســيما تجاريا مثل ابريطانيا والمغرب.

لقد سمعنا بعض النواب الفرنسيين يندد بـــذلك الكســب الذي باتت انجلترا تجنيه من وراء تجارتهـــا مـــع الأميـــر، ويطالب بالعمل على تغيير الوضع لصالح فرنسا التي كانت – كما لا حظ–تنفق عشرات الآلاف من العملة لا لكي يستفيد الغير من وراء ذلك.

كما أن في العجلة التي أتمت بها فرنسا رسم الحدود مع المغرب على حساب الجزائر[49] وتوظيف سلاح البحرية في فرض رقابتها على الشواطئ المغربية، وزرع العيون لرصد حركة التعامل بين الجزائر وشقيقتها المغرب لينـــدرج فـــي سياسة العزلة التي فرضتها فرنسا على دولة الأمير وهدفت بها إلى قطع العلاقة التي تربط الأمير بالمغاربة.

كما أن سلوك تلك السياسة الصارمة مع المغرب منعا له من التعامل مع الجزائريين جعـــل المغـــرب فـــي وضـــعية انصياعية لا خيار له معها، إذ أن الضغوط الفرنسية كانـــت تراوح في التلويح له أحيانا ببعض الآمال والرغائب، مثـــل وعود الدعم وحتى الحماية من التهديدات الخارجية، وأحيانا كانت تلوح له بما يُرَهِّب ويُخوِّف، مثل الوعيد بدعم المناطق

[49] – إذ تنازلت فرنسا للمغرب عن بعض الجهات التي كانت تابعة للجزائر.

المعارضة وتشجيع التصدعات الداخلية، إذ لا ننس أن التنفذ التجاري والتحكم الفعلي في شبكة الثغور والموانئ المغربية نتيجة توفر القوة البحرية للعدو الفرنسي كانت من وسائل إخضاع السلطان وإضعاف العلاقة المتينة بينه وبين المجاهدين، ثم لا ننس المناورات التي كان العدو يغذيها بين البلدين والتي كانت تشيع أحوالا من الريبة إزاء الأمير وإزاء الجزائريين.

فلا غرابة أن نجد آثار ذلك كله تنعكس على سلامة العلاقة بين القطرين الشقيقين وتتحول إلى إجراءات سلبية وتصرفات غير حكيمة انتهت بزعزعة أسس الأخوة من خلال مواقف عديدة ظهرت فيها سياسة السلطان مناوئة للمجاهدين، وجرت إلى إحداث القطيعة كما شاء وخطط لها العدو، وكما انطلت في شيء من السذاجة على الأشقاء.

على أنه لابد أن نؤكد أن العهد الأول لقيام الأمير بجاهده ضد العو الفرنسي قد تميز بتلاحم كبير بين الشعبين، فقد كانت القيادة الجزائرية صادقة في ارتباطها الروحي والأخوي بالسلطان المغربي، إذ كانت الدولة المغربية مثالا عتيدا ومرجعية مرموقة من حيث سياسة الملك قياسا إلى الوضع النشوئي الذي كانت عليه الدولة الجزائرية، فكان طبيعيا أن يسلك الجزائريون سبيل الاقتداء وأن يعربوا عن إجلالهم للشقيق المغربي. فالجزائريون لم يعد يسوؤهم أن يستلهموا المثال المغربي وأن يستمدوا منه السداد والقدوة على مختلف المستويات التنظيمية والتسييرية بل وحتى على صعيد السلوك الدبلوماسي نفسه، بعد أن خيب المستعمر

رغبتهم في الالتحاق السياسي بالدولة المغربية والتوحد معها دفعا للبغي الصليبي .

وربما ساغ لنا -كما ذهب إلى ذلك بعضهم- أن نثمن حكمة الأمير عندما تلقب أميرا وليس سلطانا، إعرابا عن ذلك التراتب الذي أراده أن يقوم بينه وبين السلطان المغربي، تأدبا معه وإقرارا بقوامته المعنوية أخذا باعتبارات القدمة والشرف.

إذ لا ننس أن إشكال التسمية في المقامات الرئاسية ظل يسبب تأزمات للمسلمين ولأهل النفوذ حيال بعضهم البعض منذ العصر العباسي على الأقل.. فمفهوم الإمامة والخلافة مفهوم يتناقض مع تعددية المراكز القيادية بالنسبة للأمة الاسلامية إلا في الحالات التي تقتضي فيها الضرورة الحيوية أن يقوم أكثر من حاكم على أبناء الأمة.

ولعل ما سجل مثلا على عبد المؤمن بن علي مؤسس الدولة الموحدية في المغرب الاسلامي، اتخاذه لقب أمير المؤمنين منافسة [50] للمنصب الذي كانت تستأثر به البلاد المشرقية وانتزاعا له عنها بعد أن تهاوت حرمة الخلافة أمام ضربات الصليبيين .

50 – كما يرى بعضهم وإن كنا لا نرى ذلك نحن، إذ أن عبد المؤمن لم يتسم يوما بالخليفة أو بخليفة المسلمين . الأمر الذي يبرئه من هذا الطعن .

فالجرأة التي نال به اللقب كانت سابقة عند المغاربة. ولنتذكر في هذا المقام سيرة - مؤسس الدولة المرابطية -ابن تاشفين مع المشارقة، إذ كانت سيرة تسليم للخلافة العباسية وتبعية روحية معلنة لها، فهو لم يتلقب إلا بأمير المسلمين وظل يتلقى التزكية والتنويه من الخليفة العباسي ومن أهل الشأن بسبب رعايته لحق الخلافة واعترافه المعنوي بها.

والأمير عبد القادر حين يرتبط بالسلطان المغربي على ذلك النحو المتسم بالتقدير فإنما كان يراعي مبدأ الإثبات الشرعي الذي قام عليه الاجتهاد الديني من وجوب التوحد والانضواء تحت قيادة الإمام أو الخليفة المبايع ما توفر للمسلمين ذلك[51].

لقد كانت الضرورة الجهادية تفتح عيون الجزائريين على ما للوحدة والتكامل بين المسلمين من وزن في رد العدوان وحفظ الكيان ودرء الطغيان. وهو ما حاولت أن تسير فيه السياسة الجزائرية حيال جارها وشقيقها المغرب، قبل أن يسارع العدو إلى نسج المناورات بينهما.

لقد كانت فرنسا تخطط لاستعمار بلاد المغرب العربي كافة، وكان جهاد الجزائريين يهدد مخططها ذلك ليس فقط بالمقاومة المستميتة التي أيقنت فرنسا أنها لن تستطيع الالتفاف عليها بالمواجهة الصريحة إذا لم تعتمد في ذلك على أساليب أخرى خبيثة تعترض بها على تصاعد تلك الفاعلية

---

51 - فقه البيعة متداخل وفيه آراء متعددة، يمكن الرجوع إليه في المصادر المختلفة

الفدائية التي ظل المجاهدون يصعدون بها من بأسهم في مواقع الحرب، بل لقد كانت فرنسا -إلى ذلك- تتشاءم من خطور المثل الجهادي الاستشهادي الذي قام الجزائريون يضربونه للأمة ويوعزون لها من خلاله كيف ينبغي لها أن تتعاطى مع مخططات الاحتلال والتخضيع التي كان الغرب يُرتب لها ويقطع بأنها ستكون المرحلة النهائية لتصفية الحضارة الاسلامية التي ظلت تهدده وتسد الآفاق في وجهه قرونا وقرونا.

لقد كان للنتائج التي حققها الاستيطان الأوروبي في أمريكا مبررا كافيا للتوسع وتصفية القارات من أقوامها الأصلية وحضارتها التليدة بحد السيف.

ولقد باشرت فرنسا -طليعة الاستعمار الأوروبي في العصر الحديث- بتصميم صليبي معلن- اجتياحها الإفنائي للمسلمين بدءا بالجزائر، لذلك كان كل مظهر دفاعي موفق يتأتى للأهالي المسلمين يستفزها ويهيجها ويثير مزيدا من نقمتها عليهم.

فهي ظلت ترى في أي مقاومة أهلية اعتراضا على إرادة حضارية كنسية لا مجال للاعتراض عليها.

وحين نتذكر ما قرره ماركس في رسالته إلى انجلز عن صواب الخطة التحضيرية التي كان يقوم بها الفرنسيون (لفائدة المتوحشين بزعمه) فسندرك قيمة تلك الشعارات الانسانية التي رفعها الغرب بمختلف مشاربه المتدين منها

والمتزندق، والأمر اليوم لا يختلف عن الأمس إلا بكون الخبث الغربي الرأسمالي ازداد وحشية وتقمص أدوارا شيطانية لابد للمستضعفين من أن يناهضوها بمزيد من العمل للخروج من التبعية.

على أن ما كانت فرنسا تحرص على تفاديه أكثر هو انتقال عدوى المقاومة إلى بقية الشعوب الاسلامية عندما يحين موعد اجتياحها هي بدورها، لذلك ارتكبت من أعمال الإبادة التي ظلت متواصلة عبر كل مراحل وجودها في الجزائر، ما يخزي وجه الاستعمار على مدى الدهر.

وينبغي أن نسجل في هذا المقام أننا حقا ما زلنا عاجزين إلى اليوم وقاصرين أو مقصرين في الكشف عن صور الإبادية التي تعرض لها شعبنا العربي المسلم على يد المسعمر الفرنسي الذي سلك معنا ما سلكه الغرب مع مجتمعات الهنود الحمر في أمريكا. فلم يتورع عن إبادتنا بكل السموم والأوبئة زيادة عن الحروب والإعدامات الجماعية. شيئ كثير وفظيع يحتفظ لنا به التاريخ، وستكشف عنه الأيام.

أجل لقد ظلت فرنسا تمارس ضدنا كل أنواع الإبادة من أجل إفراغ الأرض من العنصر البشري المسلم وتعميرها بالمسيحيين الغربيين على نحو ما صنع الغربيون في أمريكا. ذلك لأن السابقة الغربية مع الهنود الحمر كانت مثالا لا يحمل إلا على المضي في ما توهمه المستعمرون أنه الطريق إلى الله وإلى بناء مملكة يسوع الأرضية التي يظلها الصليب.

لقد قامت حركة الكشوف على هدي رجال الكنيسة، ونشطت أعمال الاستعمار في ظل تعاليم الكهنوت، ولذلك جاءت فظائع الاستعمار ضد الانسانية رهيبة. وكان على الجزائريين المسلمين أن يدفعوا الضريبة فادحة لوقوفهم في طريق كتائب يسوع من المستعمرين الغربيين. وحاشا يسوع مما ارتكب باسمه على أيدي المستعمرين.

لقد خشيت فرنسا أن يقوم الجهاد الجزائري بإجهاض أحلامها إذا ما نجح في صدها عن الوطن، لذلك عملت كل ما في الوسع من أجل أن تهدر حركة الجهاد والمقاومة. ولما كان التلاحم مكينا بين المغاربة والجزائريين، فقد كان حتما على السياسة الاستعمارية أن تحدث الشرخ بينهما حتى يتسنى لها أن تنحر الثورين[52] معاً على مراحل.

وهكذا تحول الوفاق والتعاون والانسجام المبني على الأخوة الروحية والقومية بين الجانبين إلى فرقة وشقاق وصدام. لكن علينا الآن أن نعترف أن العلاقة بين الجزائر والمغرب قد سجلت في ظل احتدام البواعث الجهادية والأواصر الرحمية والدينية صفحة مجيدة مشرفة رغم النهاية المؤسفة التي آلت إليها تلك العلاقة.

لقد بلغ من حرص الأمير على توطيد علاقته بشقيقه السلطان المغربي أن كان لا يتردد حتى في موافاته بعروض الحال حول جاري الأمور في الجزائر، بل لقد رأيناه يراجعه

---

[52] اشارة إلى المثل العربي "إنما أكلت يوم أكل الثور الأسود"

أحيانا حتى في القضايا التي ينفذها أو يهـم بتنفيـذها علـى الصعيد الداخلي، بل لقد رأيناه يشاوره حتى عن لإجـراءات العسكرية والتنظيمية التي يقدم عليها أحيانا في إطار تعزيـز الوحدة الوطنية، من ذلك مثلا ما رفعه إليه مما جرى بينـه وبين الزاوية التيجانية حـين حاصـرها وأرغمهـا علـى الانصياع لنظام الدولة الجزائرية.

ولا يخالجنا شك في أن الأمير يكون قد اسـتمد نظمـا عديدة من الدولة المغربية على مستوى إدارة الشؤون العامة والتعليم والمراسيم.

**الأمير يباشر التأسيس للفقه السياسي.**

على أن الأمير يكون قد استفاد أكثر ما استفاد في علاقته مع المغرب في المضمار القانوني والاستشاري ولاسيما على صعيد التشريع والفتوى. لقد كانت الدولة الجزائريـة تعـدم المرجعية العليا في مضـمار الفتـوى المتعلقـة بالمسـائل الطارئة. فعلى الرغم من الاسـتحداث الرسـمي للمجلـس الشرعي المتكون من جلة العلماء وأهل الفتوى الجزائريين، وشروع هذا المجلس في العمل وإصدار الفتاوى والتخريجات الشرعية منذ نشوئه، إلا أن الأمير لم يكن ليقضي في مسائل كانت في وقتها نوازل مستجدة تتطلب التثبت وتوسيع دائـرة الاجتهاد إزاءها من غير أن يراجع منابر شرعية اسـلامية منها المغرب.

ولأن الأمير كان مسوقا في سياسته بوازع ديني ملـي، فقد كان يرى أن الحدود السياسية لا ينبغي أن تحـول دون

علماء الاسلام ومراجعتهم فيما يطرأ على المسلمين من وقائع تستدعي التسديد الشرعي. من هنا رأيناه لا يتردد في رفع عددا من الاستفتاءات إلى السلطان وإلى دار الفتوى المغربية تحديدا، من أجل أن يستبين رأي العلماء الشرعيين في مسائل كان يراها تتجاوز نطاق الاجتهاد المحلي والتخريج القطري.

ويذكر هنا أن سنة استفتاء العلماء كانت مطردة في العهود الاسلامية حتى ذاك العصر. لقد ظل البريد يحمل رسائل الفتوى من صقع إلى صقع، وظل العلماء يستفتون بعضهم بعضا، ومن أبرز من نذكرهم في هذا المقام من علمائنا الذين اشتهروا بمراجعاتهم لنظرائهم من أهل العلم عبد الكريم المغيلي وما قام به من مراسلات في شأن مقاتلة يهود توات، ولقد شملت مراسلاته تلك علماء المغرب وتونس ومصر وغيرها، ومن جملة من راجعهم آنذاك السيوطي.

فالأمير في استفتاءاته لعلماء المغرب لم يكن يصدر إلا عن تقليد شرعي وطدته الحضارة الاسلامية يوم كانت مدنية واحدة يمارس علماؤها الاجتهاد لصالح الأمة جميعا. وإنه لأمر لافت أن لا نعنى اليوم بالتجديد المعرفي الذي كان الأمير يومئذ يؤصله من خلال استحداثه – تحت وطأة الضرورة طبعا – ما يمكن أن نسميه: **الفقه السياسي**.

ذلك لأن مراجعات الأمير – هو العالم بالشرع – كانت تتناول قضايا تتصل بميدان السياسية خاصة والمثاقفة التي حصلت نتيجة للاحتكاك المباشر بالآخر بوجه عام.

لقد رأيناه يوسع من دائرة الاستفتاء بحيث أشرك علماء مسلمين من أقطار مشرقية أخرى نذكر منهم العالم الأزهري الشيخ عليش.

فقد راجعه الأمير هو أيضا في شأن نوازل من بينها حكم الشرع في من يختار العيش تحت ظل الاستعماريين الكفرة.

وربما بدت لنا اليوم هذه القضايا بسيطة ولا تستدعي المراجعة الشرعية، لكن لا ينبغي أن يفوتنا تقدير خطورتها في ضوء ثقافة وتفتح عصرها، عصر التمايز الحضاري والمدني.

فقد ظل البحر المتوسطي دهرا حجابا يفصل بين حضارة الاسلام وحضارة الغرب وحاجزا يحد من تأثيرات هذا في ذاك، فلا بدع أن يتحول هذا الفاصل المائي إلى ساحة للجهاد والقرصنة البحرية اعتبارا للتنافر المبدئي الذي ظل يحكم الحضارتين لا سيما بعد أن خيم الانحطاط على مدنية الاسلام، إذ انكمشت وفقدت صولتها وريادتها وباتت حرمتها الدينية والمدنية عرضة لانتهاك الغرب والشرق على السواء، وذلك مصير كل حضارة يقعد بها الجهد عن أن تواصل السباق.

ومما يذكر في هذا الصدد أن مسألة التعامل مع الغرب الصليبي ظلت تطرح على المسلمين منذ أن بدأ نجم حضارتهم يأفل، ذلك لأن الضوابط الشرعية تصون المسلم

عن أن يتعرض للاختراق لا سيما إذا كان يعدم السند المادي أو المعنوي الذي يحفظ له دينه وشخصيته حيال ثقافة ومدنية الغير.

ونسجل هنا أن إشكال المعاملة مع الأوروبيين قد وجدناه يطرح أيضا على الجزائريين في مرحلة سبقت بقليل تاريخ احتلال الجزائر من قبل فرنسا، فقد وجدنا أهالي بعض الحواضر الجزائرية -منهم أهالي وهران وتلمسان- يستفتون الشيخ أحمد التيجاني في ذلك الشأن، ووجدناه يفتيهم بجواز التعامل معهم في ما يفيد المسلمين، ومن ثمة رخص لهم في التبايع معهم للضرورة التجهيزية.

فلا غرابة أن يمضي الأمير على هذا السبيل من التحري الشرعي لا سيما وأن العدو الصليبي قد بات يمتلك مصادر المادة المصنعة ويضع يده على الثغور والمسالك من حيث يسوق المسلمون بضائعهم ويتمونون.

على أن التجديد الذي تحقق للأمير في هذا الإطار الفقهي التأصيلي هو طرحه لأول مرة تقريبا مسألة المثاقفة مع العدو، والتعايش معه، والتفتح عليه.

حقا لقد واجهت مصر خلال حملة نابوليون عليها أحوالٌ كالتي كانت الجزائر المجاهدة تواجهها بعد إطباق مخالب الاستعمار الغربي عليها، لكن واقع الجزائر لم يكن هو واقع مصر في الحالتين، فقد كان الأمير يسعى إلى تبين الحد الشرعي الذي يوافق جو الجهاد العارم والشامل الذي

كانت البلاد تخوضه، خاصة وأنه من خلال فتواه بالهجرة وتحويل أهل الثغور عن ديارهم للتضييق على العدو، إنما كان يسعى إلى أن يضع سورا بين المسلمين الجزائريين وبين الكفار المعتدين حتى يظلوا على تماسكهم في وجه العدو.

من هنا كانت حاجته إلى الفتوى كبيرة، لأنها كانت في ذات الوقت تحريا شرعيا واستشارة مدنية إزاء مسائل واشكالات أفرزها وضع التصادم مع المحتلين.

لقد كانت الدولة تسير على هدي الشريعة، وكانت تقوم بجهاد لا شائبة في قداسته بعد أن هتك الكافر المحتل الحدود وداس حرمة الوطن، ولذا كانت القيادة لا تتردد في الأخذ بأقصى الإجراءات وتنفيذ أشد الجزاءات صرامة لاسيما حيال أحوال الخنوع والتخاذل الأهلي، وكل ذلك من أجل أن تضمن النصر في معركة الجهاد، مستلهمة في ذلك تاريخ المسلمين وواقعة الردة تحديدا التي عرفها الصحابة على إثر انتقال الرسول (ص) إلى الرفيق الأعلى.

لقد اضطرت قيادة المسلمين يومئذ إلى أن تتجاوز حال الاندحار والضعف من خلال اعتماد أقسى العقوبات الحدية في معالجة الردة ومعاقبة المرتدين والمنقلبين على وجوههم كفرا وجحودا برسالة الاسلام.

فتاريخينا الوطني الجهادي بدوره قد أفرز معطيات مدنية وثقافية جديدة عالجها الدين وسعى إلى أن يخضعها لسلطانه ضمن مقاصده الإنسانية والحضارية الراسخة.[53]

ومن جهة أخرى علينا أن نستبين الكسب السياسي والإعتباري الذي كان يتحقق للأمير من خلال ممارسة تلك الاستفتاءات العلمية والشرعية على النطاق العربي الاسلامي. فمن شأن رسائل الاستفتاء تلك أن تنتهي إلى أوسع نطاق من الجمهور المسلم في الكور والحواضر وتنتشر معها أخبار الجزائر وجهادها من خلال التفاعل الوجداني الذي كانت تثوره تلك الرسائل في نفوس المسلمين، فلا تعدم منابر الجمع أن تجد في حال الجزائر وحال مجاهديها موضوعات غاية في التأثير وبكاء حظ المسلمين العاثر وما آلت إليه بعض أقطارهم في تلك المرحلة الانعطافية الرهيب.

**الامير يستفتي علماء المسلمين في شأن السلطان المغربي.**

بل لقد بلغ من أهمية ذلك الأسلوب الاستفتائي الشرعي الذى مارسه الأمير أن أضحى بالنسبة إليه سلاحا ينتصف به من خصمه السلطان المغربي بعد أن تقطعت بينهما الأسباب واتسعت هوة الخلاف ، السياسي نتيجة المناورات الخبيثة التي

---

... ـاص الفقه السياسي في دائرة ما ندرس في جامعاتنا ومعاهدنا الاسلامية ؟ أليس حريا بالهيئات الحاكمة أن تقيم المرافق التي تكون الفقهاء تكوينا سياسيا فقهيا، في خطوة أولى لتضييق الهوة – القائمة في عقول النخب المتغربة- بين الشريعة والسياسة. وحتى يعلم الجميع أن التطابق بين الديني والدنيوي هو ما يميز الدين الاسلامي بالقياس إلى غيره من الأديان.

حاكها المستعمر وغذاها بالمزايدات إحداثا للشقاق وانقسام الصف الاسلامي.

فلقد وجدنا الأمير يستفتي علماء عصره لا سيما المشارقة في موقف السلطان منه، ذلك لأن الخلاف بين الطرفين كان لابد وأن يأخذ وجهة شرعية كي يكتسب معناه وحقيقته أمام الرأي العام الداخلي في كل من القطرين، بل وحتى أمام الرأي العام الاسلامي، لا سيما بعد أن تمادى السلطان في التجريح وبات يطعن في شرعية جهاد الأمير، بل لقد أضحى يلقبه وينعته بجارح الصفات، وكان من جملة ما وصمه به صفة " البداع " وهو مطعن كان في ذلك العهد يردي من يتهم به، إذ لا تشنيع أبلغ يومذاك من نعت المبتدع، لأن الرمي بالبدعة يعني التجريد من رداء الإيمان والتقوى والاستقامة وبالتالي رميه بالزندقة والخروج عن الاسلام.

من هنا كان حتما على الأمير أن يتصدى لتفنيد التهمة وأن يردها بواسطة الحكم الشرعي الذي استصدره من العلماء أهل الاجتهاد المسلمين، لما كان يعرف لذلك الحكم من تأثير بليغ في إخراس التوقولات التي يكون الأعداء والمتخاذلين، سواء في الداخل أو الخارج، قد استغلوها لتوجيه ضرباتهم إليه وإلى شرعية سلطانه.

ونسجل هنا أن الشقاق بين القيادتين قد عرف تصعيدا مؤسفا إذ تجاوز حد الإتهام والطعن ليتحول إلى الفعل الحربي الصريح.

فقد سجلنا تدخل أطراف من الدعاة ممن ظهروا في تلك المرحلة بالجزائر قادمين من المغرب وشاققوا الأمير، بل إن بعضهم كان يطعن في مصداقية الأمير أساسا مستغلين ظروف مهادنته للمستعمرين ليتهموه بالخيانة وترك الجهاد.

وفي هذا الصدد يتحتم علينا أن نراجع بعض فصول تاريخنا لنتثبت من حقيقة بعض من نسبنا إليهم قيادة ثورات وأدرجناهم في سلك المقاومة الوطنية.

لقد تفاقمت الخلافات بين الأمير وبين السلطان المغربي، وتطورت المواجهات الجدلية إلى مصادمات، واستعمل السلطان المغربي وسائل عديدة من أجل زعزعة الأمير، إذ رأيناه يمضي بالعداء إلى حد أن راح يستميل القبائل الجزائرية إليه وإغرائها بترك المقاومة والتنصل من الجهاد في صفوف الأمير.

وقد أفلحت تلك المساعي فعلا، بحيث وجدنا قبائل بني عامر مثلا تغادر مضاربها بالغرب الجزائري وتدخل المغرب حيث سيتظاهر السلطان بكرم الاستقبال والوفادة، لكنه سرعان ما أظهر لها حقيقة دوافعه، وانتهى التصافي بين تلك القبائل والسلطان إلى حال المصادمة.

لقد أذاعت دعاية السلطان بطلان الجهاد تحت قيادة الأمير، بل لقد سهل لبعض القبائل أن تنسحب إلى داخل أرض المغرب مخلية موقعها في الجبهة وتاركة الجهاد، وهو

ما فعلته قبائل بني عامر.[54] ولم يتمكن الأمير من إعادتهم إلى موقعهم الجهادي إلا بعد أن أثبت لهم بالفعل قبل القول مصداقيته في المقاومة وزيف ادعاءات السلطان.

بل لقد رأينا الأمير بعد أن ضاقت عليه أرض الجزائر يضطر إلى الارتداد التكتيكي داخل الأراضي المغربية، الأمر الذي سبب له الصدام بالقوات المغربية وكان على رأسها أبناء السلطان، علما بأن دخول الأمير إلى الأرض المغربية قد وقع بترحيب من الأهالي المغاربة أنفسهم، فقد أثار موقف السلطان المتراجع عن قضية الجهاد في الجزائر استنكار قطاعات واسعة من الأهالي المغاربة، بل لقد بلغ ذلك الاستنكار حد إعلان العصيان والتحلل من بيعة السلطان، فقد وصلت عروض من جهات مغربية كثيرة، بل وحتى من شخصيات تنتمي إلى الأسرة المالكة، تدعو الأمير عبد القادر إلى أن يقبل بيعتهم له وقيادتهم لمجاهدة العدو، بعد أن ثبتت لهم مهانة السلطان وعدم وفائه للمجاهدين الجزائريين انصياعا لتعليمات وضغوط العدو الصليبي.

## رسالة الأمير إلى الشيخ عليش بشأن خلافه مع السلطان المغربي.

وحتى لا نخوض في الأمر ونخرج عن نطاق بحثنا نقتصر على إيراد مقتط من الرسالة التي تظلم فيها الأمير

---

[54] لا ينبغي أن نقنع بما يشاع من أن قبائل بني عامر رحلت إلى المغرب مغاضبة الأمير بسبب ما نالها على يد خليفته عليها. فالأمر أبعد من ذلك السبب، إذ ساهمت يد السلطان في مفاقمة الخلاف.

عبد القادر ضد السلطان لدى بعض علماء الأزهـر، فهـذا المقتطع يعطينا صورة عن سوء العلاقة والتردي السياسـي الذي انتهت إليه الأوضاع بين الجزائر المجاهدة وبين سلطان الشقيقة المغرب. بسبب جنوح السلطان نحـو العـدو علـى حساب المجاهدين، وتحت ضغوط وملابسات لا يحـق لنـا اليوم أن نقلل من شأنها .

لقد جاء في تلك الرسالة التي كانت في حقيقـة الأمـر استفتاء شرعيا شاء الأمير أن يعرف من خلاله حكم الـدين في مواقف خصمه السلطان المغربي، ما يلي:

" فإذا بسلطان المغرب يفعل بنا الأفاعيل التـي تقـوي الكافر على الاسلام وتضعفنا وأضرت بنا الضرر الكثير.

فأول ما فعل بنا أننا لما كنا حاصرنا الكافر في جميـع ثغوره نحوا من ثلاث سنين وقطعنا عليه السبل ومادة البـر من الحب والحيوان وغيرهمـا، تضـييقا عليـه وتضـعيفا له..حتى بلغت قيمة الثور عندهم مائة ريال -دورو- فـإذا بالسلطان المذكور أمدهم - وهم في الضيق الشديد - بألوف من البقر وغيرها.

2- أنه غصب من عاملنا ألفا وخمسمائة بندقية أنكليزية

3- أنه غصب من وكيلنا أربعمائة كسوة جـوخ أعـددناها للمجاهدين

4- أن بعض المحبين في الله ورسوله من رعيته قطع قطعة من ماله الخاص به ليعين المجاهدين، فإذا بالسلطان المذكور زجره ونزعها منه وقال أنا أحق بها، والحال أنه لم يجاهـد،

5- أن بعض القبائل من رعيته عزموا على إعانتنا بأنفسهم في سبيل الله، فمنعهم من ذلك وأعاننا آخر من رعيته بسيوف في سبيل الله، فحبسه إلى الآن زجرا له وردعا لغيره.
6- أنه لما وقعت لهذا السلطان مقاتلة مع الفرنسيين أياما لائل ثم تصالحا واشترط عليه الفرنسيس أن لا يتم الصلح بينهما إلا إذا حل أمر هذه العصابة المحمدية المجاهدين ويقبض رئيسهم، أما أن يحبسه طول عمره، وإما أن يقتله، وإما أن يمكنه من يد الفرنسيس أو يجليه من الارض، فأجابه السلطان إلى ذلك كله، ثم أمرني بترك الجهاد، فأبيت لأنه ليس له علي ولاية، ولا أنا من رعيته، ثم قطع عن المجاهدين الكيل حتى هام جوعا من لم يجد صبرا، وأسقط من المجاهدين ركنا ثم أخذ يسعى في قبضي فحفظني الله منه.. ثم أمر بعض القبائل من رعيته أن يقتلونا ويأخذوا أموالنا .. فأبوا جزاهم الله خيرا.

**رد الشيخ عليش على رسالة الأمير.**

ومما جاء في رد الشيخ عليش مفتي المالكية بالديار المصرية [55]:

" فأنت المكلف بتلك الأقطار دانيها وقاصيها، وإليك مرجع طائعها وعاصيها، ونرجو من الله أن تضاف إليها وإليك جميع بلاد أهل الشرك وتنتظم بطاعتك انتظام الجوهر في السلك وتنفذ كلمتك في الحواضر والثغور. [56]

[55] أنظر تحفة الزائر ص 474. ،
[56] م.س. ص 342

## 8-البناء الثقـــافي في دولة الأمـــير عبد القادر.

قد يكون من الجائز القول إن قطرا ارتبك أمام الاجتياح الاستعماري على نحو ما ارتبك الجزائريون حـين داهمهـم المستعمر الفرنسي في الثلث الأول من القرن التاسع عشـر، لا يكون قطرا ذا عراقة مدنية وشأن في التجذر الحضـاري وبالتالي فإن حظه في مضمار الثقافة لا يكون إلا مبخوسا.

غير أن هذا الحكم لا يستقيم ولا ينسجم بتاتـا مـع مـا عرفناه في تجارب التدافع الأممي عبر التاريخ، مـن كـون الهمجية هي التي ظلت دائما تداهم الحضارات وتربكها وتبدد أرصدتها النفيسة في حقول المدنية والثقافة والعمران. واعتبر ذلك بمصير الحضارات القديمة في العالمين القديم والجديـد على السواء [57].

حقا لقد ساعدت المستعمرين دائما على تحقيق أهـدافهم في الغزو والسيطرة أوضاع الانحطاط التي ظلـوا يجـدون عليها الشعوب والأقوام المستهدفة، إذ أن الانحطـاط يجـنح بالمجتمعات دائما إلى وضع مزمن من الركود واللافعل، أي إنه يضعها على هامش التاريخ، الأمر الـذي يوقـع تلـك المجتمعات في حال من الخذلان والنكوص المدني والثقـافي

[57] -من ذلك مثلا ما تعرضت له حضارة الأنكا في أمريكا علـى يـد الهمج الغربيين.

حين تتضب دينامية الابداع لديها[58]، وتغدو الهمة مقصورة على اجترار ما تسعف به التقاليد وليس أكثر، فهي لذلك تعيش الحياة إما بفصامية أو بضرب من اللاوعي الحضاري بسبب انبتاتها عن الخياة الحق، أي عن صنع التاريخ.

من هنا، وإذا ما اعتبرنا أوضاعنا الأهلية بموضوعية وانصاف، فلا يسعنا أن ننتظر من الشعب الجزائري المسلم أن يأتي من ألوان المدافعة والتماسك إلا ما أتاه إزاء عملية المداهمة الاحتلالية، لا سيما وقد دلت تجربة اجتياح بونابرت لمصر مثلا – وكان بين الواقعتين: واقعة احتلال فرنسا لمصر واحتلالها للجزائر، فترة لا تزيد عن الثلث قرن – أن الروحية كانت لدى الشعبين نفس الروحية تقريبا والهمة نفس الهمة أو تكاد.

إذ لا ينبغي لنا أن نغفل الاتجاه الانحداري الذي كانت عليه بيانية الانحطاط الاسلامي في كلية الأقطار، حيث كانت الأوضاع الحضارية تسير في اتجاه يتعاكس تمام المعاكسة مع ما كانت عليه بيانية تطور ونهوض الغرب، فقد كان تلاحق السنين يزيد من مكاسب الغرب ويصعد من وتيرة يقظته ويرجح أكثر فأكثر سداده العلمي والصناعي، فيما كان التقادم الزمني لا يزيدنا نحن إلا رثاثة وإيغالا في السباتية ومضيا على درب الانقطاع عن الحياة والتاريخ.

---

[58] -راجع د. عشراتي سليمان الابداع والابداعية .حوليات جامعة وهران .عدد5. عام 1998.

لقد ظلت المواجد الروحية والثقافية والفكرية الاسلامية منذ أن علق بها فيروس الانحطاط تترصد ميقات أزوف ساعة الغروب، إذ أنها جنحت باكرا نحو الخمول وخمود الهمة الحضارية، بسبب نضوب الناجز المدني وعدم تمكن العقل الاسلامي من أن يتجدد ويسترسل على ما شحنه به الاسلام من دافعية واستبصار بنّاءين.

من هنا وقعت الأمة تحت طائلة الاستسلام، وأضحت غاية آمالها لا تخرج عن نطاق استشراف المهدوية والتطلع إلى حلول المخلص الذي يملأ الدنيا عدلا بعد أن ملئت جورا.

فالاستكانة كانت شاملة والاستقالة الحضارية كان يبررها منطق لا أساس له من الموضوعية، بتوهم المسلمين أنهم في قعودهم عن الأخذ بأسباب الحياة الكريمة إنما يأخذون بفضيلة التوكل ويسندون الأمر إلى صاحب الأمر والتدبير.

لقد كان ذلك المنطق القعودي السائد هو النتيجة الحتمية لسوء الانحراف بمفهوم التوكل الذي تردى به المسلمون في الدركات حين فسروه بأنه يرادف التواكل والاستسلام اللامعقولين.

من هنا عم الخَوَرُ النفوسَ وشملت السلبيةُ البقاعَ الاسلامية وشل الوهن الروحي والمادي الأمة تماما عن التطلع إلى الأفضل، وربما كانت الجزائر من آخر الأقطار الاسلامية التي جعلتها ظروفها الاعتراكية الدائمة تحتفظ

بشيء من الحمية والبأس مكنتها من أن تطاول العدو وأن تشتبك معه بعناد رغم التفاوت الكلي في القوة والامكانات.

وما نحسب أن هناك بقاعا أخرى إسلامية كثيرة كانت مهيأة روحيا ومراسيا للكفاح مثل ما تهيأت له الجزائر بسبب -احترافها - الجهاد ضد دار الكفر منذ سقوط الأندلس خاصة.

ومع ذلك كانت نتائج الجهاد والمنازلة مع المحتلين الفرنسين غداة اجتياحهم الجزائر عام 1830، سلبية، بل ومأساوية من كل الوجوه تقريبا. وستثبت الوقائع التاريخية التي أعقبت احتلال الجزائر أن الاستعمار الغربي سيتمكن من بسط نفوذه على الأقطار العربية بلا استثناء، بل وسيمزقها إلى كينونات عشوائية دون أن يلحقه أذى أو تعترضه مقاومة مسلحة أو رد فعل جهادي على مستوى قوة وتواصل ما عرفه لدى احتلاله الجزائر.

ومما لا شك أن نتائج الحماية التي فرضها المستعمر على البلاد العربية كانت مخففة إلى حد كبير، قياسا إلى ما تكبدته الجزائر من مَحْقٍ في مضمار طمس الشخصية وإحداث القطيعة مع التاريخ الاسلامي والحضارة العربية.

وإنك لتمر اليوم في المدن والأرجاء العربية، لا سيما البلاد المجاورة للجزائر، فترى صفحات التاريخ الاسلامي ماثلة، على عظمتها وثباتها ومجدها، فيما تبحث عن آثار هذا التاريخ الذي لم يكن حظ الجزائر فيه لينقص عن حظوظ

شقيقاتها إذا لم يزد، اعتبارا إلى السبق السياسي الذي شاد به المسلمون الجزائريون دولتهم المستقلة عن المركزية في منطقة المغرب العربي، فلا تكاد ترى شيئا مما شاد الأجداد وبنى الأسلاف على أديم هذه الأرض الطيبة، ذلك لأن العدو شاءها أن تكون دارا متغربة، تنعطف بانتمائها إلى تاريخ روما وأوروبا، وتتنكر لتاريخها العضوي المجيد.

لقد قاومت الجزائر وأحسنت المقاومة لكنها لم تحقق غاياتها التحررية إلا بعد قرن وثلث من البلاء، وكان صدامها الأول مع العدو مجالا استوثق فيه الضمير الأهلي من كارثية الوضع الحضاري والمدني الذي كانت عليه الأمة قاطبة، لكن ذلك لم يقعد بها عن المدافعة الجهادية الجارفة.

لكأن الجزائر غداة الاجتياح الصليبي تأبت عن أن تعترف بمواتها وعن تقبل حال التعوق التي سرعان ما تبينتها في نفسها، لذلك مضت تنهض من هول الصدمة لتقاوم وتطيل المقاومة، لكن التاريخ كان يمضي في غير وجهتها، إذ أبى إلا أن يلقنها الدرس -الذي يكون حريا بها أن لا تنساه- حين جعلها تسقط تحت أقدام العدو، فتطول عهود محنتها، ولا تتماثل للعافية ومعاودة النزال من جديد لاستعادة كرامتها إلا بعد عناء مديد.

وإنها لحال مؤلمة أن نرى أمم الغرب في ذلك العهد تتبارى في الاختراع، وتفلح في مكننة المدنية وربط الكون بالمسالك البحرية والبرية والأثيرية، في وقت كانت مجالس علمائنا وفقهائنا لا تكف عن اجترار مسائل ملغزة من الفتوى

والترداد البئيس لأبيات الحكمة الدائرة والتباري على مسائل من الإعراب الشذوذي أو الاشتغال بالطلسم وتبادل أنباء الرؤى وسيرة الجنون.

وليت شعري هل اختلفت اليوم حال الأمة عن حالها أمس وقد باتت تطالع بواسطة الفضائيات وما جانسها أحوال الدنيا وتشهد التطور الرهيب الذي يمضي بالأمم الحية على قدم وساق في طريق الرقي الذي فاقت تنبؤاته المستقبلية حدود المعقولية ؟

وقد يتساءل المرء في هذا السياق عن حقيقة الوضع الثقافي في الجزائر وفي العالم الاسلامي في مطلع القرن التاسع عشرة، هل كانت أحواله فعلا متردية ومتوازية مع الحال المادية التي وجَدَنا عليها المستعمرون حين حلوا بيننا والتي يسرت عليهم إلحاق الهزيمة بنا أم أن الأمر غير ذلك، وأن المجال الثقافي كان يختلف عن الوضع المادي، وكان أحسن حالا منه وأفضل ؟

ومما لاشك فيه أن بعض الدارسين سينساق في هذا المجال وراء بعض ما سجله ضباط عاشوا مراحل الاجتياح الأولى وسجلوا ملاحظات عن حال الجزائر آنئذ ومفادها أن ثقافتنا كانت تعم المراكز والمداشر، وأن الجزائريين كانو على مستوى تعليمي عال قد يفوق ما كانت عليه بعض بلاد الغرب عصرئذ نفسها، بل وأن تعليمنا كان على مستوى من العصرنة بحيث كان يشمل الحساب وما إلى ذلك من المواد العقلية المهيئة للرقي الفكري.

الحقيقة أننا لا يمكن أن ننظر إلى الوضع من هذا المنظور، ذلك لأننا نعلم أن البيئة الاسلامية منذ أن شملها الاسلام قد أرسى فيها مبدئية التعليم، إذ أن الاسلام كعقيدة لا يقوم إلا على أساس تعبدي واجتماعي، لأن الشأن الديني شأن تعبدي ودنيوي في الآن ذاته، وذلك ما حتم على المسلم أن يكون متعلما بالضرورة، من هنا كان الكُتَّاب (المحضرة) ركنا أساسيا في الحاضرة وفي البادية المسلمة عا ى السواء.

إذ التعلم والتفقه في الدين ولو على حد نسبي، أمر لازب ولا مناص منه، وحتى الأمي المسلم يجد في المسجد وفرضية الصلاة فيه -إلا إذا أعاقه عائق شرعي - مجالا لسماع الدروس، بل وللتعلم ومعرفة الفرائض بما فيها استيعاب حد من الحساب التطبيقي الذي يجعل المسلم يؤدي ما عليه من عشور وزكاة وما إلى ذلك.

من هنا كان قولهم " إقرأ ما تيسر من القرآن وتفقه في الدين " شعارا عمليا لا يكاد يخرج عن مبدإ إلزامية التعليم على المسلمين.

وإلى يومنا هذا نرى مجالس الحزب في المساجد تعرف التوسع بعدد القراء يوميا..

فلذلك لا يستغرب أن يسجل الملاحظ الغربي - لا سيما في القرن التاسع عشر -وسط هذه الظواهر التثقيفية، وفي ظل ذلك الانخراط التحصيلي العام، ضربا من ديمقراطية التعليم، ومستوى تعليميا متقدما.

وإذا ما التفتنا إلى الجزائر في عصر الأمير عبد القادر وما قبله بقليل، فستفيدنا آثار بعض العلماء - لا سيما الرحالين - عن نوعية ومستوى المعرفة التي كان الناس يتعاطونها. ولو اخترنا من هؤلاء مثلا شخصية أبي راس الناصر، وهو عالم نحرير - وابن معسكر مدينة الأمير عبد القادر - تعدت شهرته نطاق الجزائر ليضحى من مثقفي عصره على الخريطة الاسلامية، لما قام به من سياحة وتجوال علمي في كثير من البلاد العربية، فسنجد كتاباته عن تلك الفترة تفيدنا بما يؤذي الكبرياء ويثير الرثاء.

فقد كانت اهتمامات الصفوة المثقفة من أبناء الأمة وعلمائها لا تجاوز ترداد حظ محفوظ من بعض الشروح التعليمية، يضاف إليها لون ساذج من المطارحات الإلغازية الاختبارية الدائرة غالبا حول بلاغة التكنية أو التعريض والتورية واللحن، أو حول الإجازة القريضية وتبادل الأبيات في سياق المناظرة أو الممالحة.

لقد كانت سوق العقل في البلاد المسلمة يومئذ كاسدة بكل معاني الكلمة، ولو لم يكن في حوزة الأمة كتاب سماوي ظل زنده مهيأ للانقداح، ما نحسب إلا أنها كانت ستتردى نهائيا.

ومعلوم أن ما كشفت عنه رحلة أبي راس الناصر مثلا ستكشف عنه رحلات أخرى سبقت عهده أو تلته، إذ ظلت أخبار الرحالة جميعا تصف تلك الزراية المدنية والعمرانية

وذلك الانحباس العقلي والترقب الفنائي الذي ظلت تصدر عنه العقلية المسلمة منذ أن داهمها الانحطاط.

نخلص من هذا كله إلى أن البيئة المسلمة التي داهمها الاستعمار وغلبها على أمرها، كانت قد هرمت وعقمت وهان شأنها.

وإذا وجدنا عالما مثل أبي رأس الذي كان يعيش قريبا من عهد الأمير وكان يتلقب بسيوطي عصره، يكشف عن ذلك الحد من المعرفة المبلبلة، فمن الطبيعي أن لا ينتظر أن يكون للعلم الذي استوعبته وتعاطته تلك البيئة جدوى كبيرة تفيد الأمة في شيء. وتلك الحال تورطت فيها كتابات الأمير نفسه فجاءت تحمل كثيرا من الضعف الذي لم يكن الأمير ولا غيره مسؤولا عليه، إذ أنها معرفة متوارثة وموثقة وتكرسها بيداغوجية مصونة خطئا بسلطان الاعتقادات. ذلك لأن نورانية الدين الاسلامي نفسها قد تأثرت بشوائب تلك المعرفة فزايلها في الأذهان كثير من ألقها.

ولا يمكن أن يكون شأن الأمير إلا هذا الشأن أو قريبا منه، لذا لا يسعنا إلا أن نسجل محدودية هذا التعليم المتوارث وعدم غنائه، لا سيما إذا ما أخذنا بعين الاعتبار روح التقييد التي ظلت تميز عملية تحصيله واستيعابه، إذ هي روح اتباعية لا هوادة فيها ولا أمل في تجديد معها.

فقد تراجعت مدونة العلوم التي شققها المسلمون من شجرة القرآن المباركة أو تلك التي استحصلوها من الأمم من

حولهم، لتقتصر على العلم الشرعي، ثم ارتكزت على الفقه التعبدي وجعلته رأس المعارف بعد أن أوقفت تسمية العلم عليه وحده حدا وحصرا، متوهمة أنه المقصود من وراء وصايا النبي (ص) والأحاديث الشريفة التي نوهت بالعلم الشرعي، متناسية أن العلم الشرعي أشمل ومدلوله أرحب، وأن الأمة إذا لم تكن متمرسة بكافة العلوم فسيؤول فقهها حتما إلى مجرد فرائض لا تخرج عن نطاق تغسيل الموتى وتكفينهم وتقسيم تركاتهم. وحاشا الاسلام أن يتخير لأمة محمد هذا الهامش الضيق من الضرورات ليحصر علم الشريعة فيه.

لقد تضمن أمر الله الذي ساقته الآية الكريمة: وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل " وجوب تلقي وممارسة كل العلوم التي يستطيع العقل البشري أن يدشنها وأن يحقق فيها الفتوح.

**ما هي محددات البيئة الثقافية التي تحرك ضمنها الأمير؟**

تعتبر مدينة معسكر ونواحيها قلب الجهة الغربية من بلاد المغرب الأوسط أو الجزائر الحالية. ذلك لأن منطقة معسكر قد استجمعت جغرافيا كثيرا من الخصائص الطبيعية والمناخية وبالتالي السكانية للبلاد تقريبا. ويكفي أن نعرف أنها كانت ذات حين مقرا للبايلك الغربي لندرك الأهمية الحيوية التي قدرتها لها الإدارة التركية يومئذ. كما أن صلات معسكر مع المناطق الوطنية الأخرى لا سيما المحيطة بها قد ظلت حية ونشطة على الدوام تقريبا.

فسكان معسكر يوم أن كانت مقرا للإدارة الجهوية شكلوا جزءا مهما من مادة الحكم المخزني ومن العسكرية التي كانت الدولة تضمن بها الأمن وسير النظام، فلا غرابة أن نجد اليوم أشتاتا من أهالي معسكر ينتشرون عبر جهات عديدة من الوطن، كسلالة لأسلافهم الذين استقروا هناك إما معينين كوجهاء أو موظفين.

ولنا أن نتساءل لماذا كان لهذه الجهة كل هذا الانفتاح ؟ ولنا أن نبادر إلى الجواب فنقول إنه انفتاح يتبرر بطبيعة التركيبة السكانية التي تعمر المنطقة. فمعسكر منطقة زناتية قديمة، عاش فوقها الزناتيون منذ القديم، وتزاوجت دماء أهلها مع سلالات المتوسطي والصحراء المتعاقبة على البلاد، حتى إذا كان الاسلام استقرت في الجهة قبائل عربية هلالية، ووسمتها بسمة العروبة، وهيأت الأحداث والتقلبات السياسية السكان هناك ليلعبوا أدوارا في مضمار التوازنات الداخلية والخارجية على مدار التاريخ الوسيط، بل آلت بهم التحولات والأطوار إلى أن ينشئوا كيانات سياسية محلية لا سيما بعد الحكم الموحدي، وامتدت سطوة أهالي تلك النواحي إلى أقاليم الشلف والتيطري وتيهرت وتلمسان وجبال قصور والعمور.

ذلك لأن الهلالية التي استقرت في المنطقة ظلت تحتفظ بروابطها مع سائر فروعها داخل الجزائر وخارجها. فمن الجريد التونسي، بل ومن مناطق الصعيد والبلاد الليبية إلى نواحي مراكش وفاس المغربية، كانت الهلالية تمتد في انتماء قبلي واحد تتوزعه الأقاليم والفضاءات ويشده ضمير الجماعة

المشترك، فيجري المد والجزر القبلي على إيقاع التطورات التاريخية والاجتماعية والسياسية.

من هنا شب بنو معسكر ووازع الانتشار والسياحة في الأرض يميزهم، فقد كانت سجايا النبل والفروسية من أخص خصائصهم، فلا غرابة إذن أن يكون الحصان والصيد والشعر وقِرى الضيف من أهم مآثرهم. ولا عجب أن نجد تلك السجايا تسم شخصية الأمير عبد القادر بعمق وتحدد منازعه الروحية والوجدانية والمدنية.

لقد كانت جغرافية الهضاب العليا في الجزائر موئلا للهلالية، ولذا كانت تلك البيئة بامتداداتها البدوية والحضرية مجالا لبقاء وحياة ألوان من التمرس المعرفي العربي، ولرواج فنون وأذواق ومواجد ومهارات جمالية حجازية، تنقلت بالتوارث وتعاطها الانسان في الأعراف والتقاليد والمرويات والأشعار.

وإذا ما رأينا مثلا عاطفة الحب تنزع بالأمير وتحرك لواعجه إزاء المحبوب حتى وهو في ساحة الوغى يخوض غمار الحرب ويتماس مع الموت في جولاته الميدانية، فذلك لأنه ينتمي إلى تلك البيئة العربية الهلالية التي استوطنت تلك النواحي من بلاد المغرب الأوسط والتي حملت معها – من بلاد نجد- معينها من العواطف والمراسات الوجدانية والفنية وداومت عليها الجيل بعد الجيل إلى أن انتهت إلينا على ذلك الوجه الذي ظهرت به عند جيل الأمير عبد القادر.

لقد كانت مناطق الهضاب العليا منزلا طيبا للهلالية، وكانت قبائل هلال وسليم ومعقل وغيرها تعمره وتتنقل عبر تخومه وكانت قبائل بني عامر من أهم الفواعل البشرية التي تمكنت من أن تغرس أعرافها الثقافية والفنية الحجازية في بلاد المغرب الأوسط وتحديدا في هضابه، من قسنطينة وسطيف والمسيلة وطاقين، وعلى امتداد جبال عمور وكسال وصولا إلى جهات تلمسان أين تتحرك قبائل أولاد نهار، ثم انعطافا إلى وهران وبلعباس وغليزان والشلف وامتداداتها إلى نواحي التيطري والبليدة ومتيجة (= موطن قبائل المعقل المتمازجة مع القبائل البربرية ومع المسلمين النازحين من اسبانيا).

لقد كانت هذه الرقعة الواسعة تشكل بعضا من موطن الهلالية التي نجدها تأصلت ثقافيا وبشريا على نحو لا تزال إلى اليوم تتجلى معه بعض ملامحها الأصلية في جهات بسكرة والوادي والصحراء بأقسامها الشرقية والغربية.

وإنه ليهمنا أن نلفت النظر هنا إلى خصيصة وجدانية واحدة استطاعت البيئة الهضابية - لا سيما في نواحي معسكر وبلعباس وتخومهما الإقليمية - أن ترثها من الجزيرة العربية عن طريق تنقل فصائل من قبيل بني عامر من المشرق إلى بلاد المغرب، نقصد بها نزعة الشعر العذري.

تلك النزعة التي لا تغيب عن نظر المتفحص لشعر الأمير عبد القادر من خلال تلك الترشحات الوجدانية التي كانت تصدر عنه وتلابس أشعاره الجهادية[59].

وينبغي لنا أن نسجل هنا أن بيئة الأمير كانت بيئة ازدهرت فيها جملة من الأذواق الفنية التي جاءت انعكاسا لنزعة العشق والتشبيب المتوارثة عبر الأجيال والتي ظل الشعر الملحون وألحان القصبة والقلال، بالإضافة إلى حلقات الورد الصوفي تجسدها.

بل لن يتعذر على المتفحص أن يلمح الصلة العضوية القائمة بين أشعار الصبابة التي ظلت تتداولها مجالس العشائر البدوية في فن الملحون وبين " الراي" رغم تسفل قطاع من مدونة هذا اللون المحلي الذي عرف ازدهاره حديثا في النواحي الغربية من القطر والذي عكس ثقافة نازحة عن البادية، ثقافة تنتمي إلى تلك الشرائح السكانية التي انجرفت بفعل عوامل التحول الحضاري نحو المدينة وعاشت على هامشها محرومة وعانت من الضياع وأعوزها الرأي والحيلة من أجل أن تحقق لنفسها المكانة الكريمة الجديرة بالبشر.

فتراث الملحون الهلالي كما أومأ إلى بعض صنوفه ابن خلدون في مقدمته، وكما تواترت أصداؤه في أشعار جملة من الشعراء من أمثال بن مسيب ومن شاكله صلته قوية

---

59 -أثرنا أن نخص الجانب الوجاني والفكري دراسة خارج نطاق بحثنا هذا .لــذلك نحرص على ألا نخوض الآن في الحديث عن تلك الجوانب.

بـ(الرأي)، ويمكن للأبحاث أن تجلي هذه الحقيقة بكيفية معمقة.

لقد شاع مصطلح القصيدة العروبية واستخدم إلى ما دون عصر الأمير، ونعتقد أن قصيد العروبية موصول بنسب ما مع فن الراي الذي نشأ في أقاليم الغرب الجزائري.

لقد كانت البيئة المعسكرية بيئة راج فيها الشعر الوجداني العذري لأنها كانت جزءا من تلك البيئة العربية العامرية التي امتدت على محور معسكر تلمسان وجدة الناظور- في المغرب – وغليزان تيهرت والحضنة في الجزائر. ولا غرابة أن تشيع أسماء شعراء متواجدين بالحب، في تلك البيئة على مدى التاريخ ويكفي أن نستذكر اسم مصطفى بن براهيم والخالدي مثلا من المعاصرين وابن خلوف قبل ذلك وآخرين كثيرين، لنتأكد من استرسال الروح العذرية العامرية في قطرنا بما شهر عنها هناك في موطنها الأول الحجاز، من شغف بالمرأة والتوله بحبها والارتقاء بشخصها إلى مراقي السمو والكمال.

ومما لا شك فيه أن ما تلقاه الأمير في كنف أسرته الشريفة، وما أتاحه له الجو الثقافي والعلمي الذي كان يسود الجهة، بالإضافة إلى جولته الطويلة في بلاد المشرق، قد جعله يغدو شخصية ثقافية وقيادية في بيئته تلك، إذ كان تكوينه المتعدد الجوانب وإطلاعه على مجريات العالم الاسلامي يؤهلانه لأن يكون مَعْلَمًا فكريا وفاعلية ثقافية وسعها أن تحقق انجازات بوأتها فعلا لأن تكون شخصية

مرجعية رائدة سنظل نحيل عليها في كثير مما ننجز ونشيد، لا سيما في المضمار الثقافي.

**الأمير ومشروع إرساء الثقافة الوطنية.**

لكن ما أهمية الدور التثقيفي الذي كان على الأمير أن يقوم به حين أصبح على رأس الدولة الجزائرية، وهل من جدوى للثقافة بالنظر إلى الحاجة الجهادية الملحة يومئذ؟

لا نشك أن المعركة الجهادية الضروس كانت تطغى بمطالبها ومستلزماتها على الحياة العامة بحيث لم يعد يسوغ معها – البتة –الحديث عن أي نشاط آخر، مهما كانت صبغته، خارج نطاق الفعل الاستنفاري والتجييشي الذي كان يشمل الأمة وهي تخوض معركة المصير.

إذ ليس من المعقول في شيء أن ندعو الناس إلى شهود حلقات الفن والطرب أو مجالس الشعر أو حتى إلى التفقه والاستزادة من العلم، وسيف الموت يحصد الجموع والعدو يفتك بالأعداد والحشود.

ويوم أن تداعى المعسكريون ومن انضم إليهم من جماعات الاستنفار العام إلى بيت الشيخ محي الدين لم يقبلوا عليه يدعونه لتكثيف نشاط زاويته الروحي وتوسيع مجالس التحصيل والتلقي فيها، بل جاؤوه ليقوم على رأسهم يشهر السيف ويحمل البندقية ويدافع على الوطن ويبذل روحه مع أرواحهم صدا للانتهاك.

من هنا لا بدع أن نجد المصاحف تطوى والألواح توضع في رفوفها ليتفرغ الناس - ورواد الزاوية من الطلبة في المقام الأول - ويهبوا لأخذ موقعهم في الصف وليتوجهوا نحو الجبهة.

لقد كان الوطن في خطر، وكان حتما أن تتعطل كل الأنشطة من أجل حشد القوة الكافية لتلبية داعي الجهاد، وذلك ما جعل الأولوية تعطى للعمل الحربي، وذلك أيضا ما جعل دائرة الاهتمامات الثقافية والروحية البحتة تتقلص، إذا لم نقل تتعطل.

على أنه لابد لنا أن نستدرك في الحين، لنؤكد أن المرامي الجهادية وإن كانت دفاعية في المقام الأول، إلا أنها كانت في الحقيقة لا تخلو من جانب ثقافي يندرج ضمن الضرورة الجهادية ذاتها، إذ لا ننس أن معطيات الاستنفار كانت تقتضي توسيع دائرة التحسيس ليشمل بقاع الوطن على أبعد مدى، وكان ذلك التحسيس في نفسه يعد وجها ثقافيا حيويا فاعلا ومستجدا لم تألفه البلاد على ذلك النحو الشمولي والحماسي الذي كان يتم د

لقد كان على النخبة أن تشكل كيانها أولا وأن تتداعى إلى صعيد الفعل الجهادي والسياسي الذي فتح المجال أمامها كي تلحم صفوفها وتتخطى حدود العزلة التقليدية التي ضربتها عليها عهود من التهميش والتجاهل والاحباط، وهو ما مكن المجموعات المثقفة والمتنورة من أن تتعارف

وتستبين أقدار بعضها البعض من خلال المـراس الميـداني والتجربة الحية التي باتت الساحة مسرحا لها.

إذ كان على الكفاءات الأهلية أن تخـرج مـن إطـار نشاطها القبلي ومن نطاق الدور الذي ظلت تلعبه ضمن دائرة المحلة والدشرة لتضطلع بدور أوسع آفاقا وأبعد غايات هـو إطار القومية والوطنية، وذلك كان يقتضي انصهارا عميقـا وتجارب شاقة وابتلاءات متتالية حتى تتمايز القدرات وتنفرز المعادن وتتسق ضمن تصنيف استحقاقي تأهيلي تسفر عنـه تفاعلات الوطن في تعاطيه الحربي والسياسي لصد العدوان الأجنبي.

وكان من جهة أخرى على هذه النخبة أن تباشـر تعلم أبجدية التمدن والعصرنة في مضامير السياسة والقيادة ليكون التأهيل على مستوى الأحداث التي لم تعد محصورة في إطار حضاري منغلق، بل لقد باتت التحديات تحدق بالانسان المسلم في عقر داره وكان من ثمة على النخبة أن تتصـدى علـى الصعيد المعرفي لترد على التحدي ولتجد الأجوبة الملائمـة على ما كان فعل الاختارق الاحتلالي يطرحه مـن مـؤرق الأسئلة والاستفزازت.

وواضح أن المعرفة نفسها في تلك الانعطافة الجارفة لم تعد تتحدد بمعانيها التقليدية المرتبطة بمسائل الدين والتـراث وبالخبرات التي ظلت متداولة بين الناس عبر الأجيال، بل لقد باتت المعرفة تعني إلى ذلك كله أبعـادا صـراعية ولـدها حضور العدو على الأرض ودوسه للشرف وتهديده للوجود.

من هنا تطلعت الجماعات إلى القادة والرواد من أهل الاستنارة لتجد في كنفهم أولا الحماية من العدو، ولتستمد منهم بعد ذلك مادة معرفية جديدة أضحت تتطلبها حياة الكفاح ضمن نظم تأسيسية لكيان الدولة الوطنية وما يفرزه ذلك الكفاح من تعقيدات متزايدة عبر المراحل، وهو ما جعل مهمة المثقف شاقة ولا يستطيع الإيفاء بتبعاتها حيال الأمة والجماعات إلا من كان على ألمعية وخصال لا تحصى.

فالمهمة التي كان تلح على الطليعة المجاهدة مهمة مزدوجة: إذ كان عليهم أن يعلموا أنفسهم بأنفسهم فنون الحكم والقيادة ليسوسوا الأهالي بروح مؤهلة لمقتضيات الجهاد، وذلك المطمح نفسه كان يحتم عليهم أن يباشروا مهمة تعليمية تستهدف الفئات الأهلية تأهيبا لها وتكييفا مع ثقافة المواجهة، من خلال بسط القيم التنظيمية والانضباطية التي تتطلبها الحياة الجماعية الجديدة.

فمن خلال توسيع نطاق السلوك المدني الصارم المتناسب مع مناخ الجهاد كانت أسس الثقافة الجديدة ترسو على تربة المجتمع المجاهد.

إذ لا ننس أن النموذج القيادي الذي كان لا يزال ماثلا في الأذهان وفي الضمير الأهلي هو نموذج منفر يحيل على إدارة فالسة وعلى صلات اجتماعية وجهوية مفككة ظلت الإدارة التركية، وبالتالي الدولة البائدة، رمزا لها، لذا كان على الدولة الوطنية الوليدة وإدارتها الناشئة، أن تراعي في أهدافها التجديدية مقصدين إثنين على الأقل:

-أن تخلق أداة هيكلية جماعية تحافظ على حيوية وفتوة العراك والجهاد.
-أن تبذل الجهد الكامل في نسج لحمة الجماعة والمجتمع الجديدين، من خلال صهر الكيان الجزائري في بوتقة مدنية وإنسانية تهيئه للمنازلة التي بات واضحا أنها لم تعد حربية فقط، وإنما هي حضارية أساسا.

بهذا الثنائية البنائية كان البناء المدني يتم متدرجا شاقا وعسيرا، وكانت النخبة تجد الاطار الحيوي لابراز كفاءاتها وتفتيق عبقريتها على نطاق عملي وملح.

وستجد النخبة المثقفة في الابتلاءات الشاقة التي تطور إليها الكفاح ما يعجم عودها ويستثير كوامن العطاء فيها، ولنا أن نتصور فقط الهمة التنظيمية والتأطيرية والتنشيطية والتأمينية التي سيطرحها قرار اتخاذ الزمالة عاصمة للوطن، لندرك خطورة التحولات التي عاشتها الثقافة الجزائرية عصرئذ.

فالمؤكد أن تجربة كتلك ما كانت لتتحقق لولم يكن الجهد التثويري التثقيفي الذي اضطلعت به الطليعة المتنورة قد أهب الجماهير على نحو لا يمكن أن يوصف إلا بكونه خارقا.

لم تبتدع قيادة الأمير في ذلك المجال فحسب، بل لقد اطرد لها التوفيق على أصعدة كثيرة، ذلك لأنها راهنت ومنذ المنطلق على انجازات كبرى وفي مقدمة تلك الانجازات بناء الدولة الوطنية، فغدت من ثمة تلك القيادة متأهبة على الدوام

للمبادرات التأسيسية ذات الوقع المدني الحقيقي، ولنذكر هنا فقط مشروع تمصير الهضاب العليا الذي باشره الأمير، فقد خطط لبناء شريط من المدن على سلسلة جبال الأطلس التلي، مراعيا في ذلك اعتبارات تمدينية باستقطاب البدو إلى الدولة من جهة، واعتبارات أمنية بحيث تغدو تلك المدن بمثابة القواعد الخلفية التي تحمي الظهر في حالة ارتداد دفاعي أثناء المقاومة ضد العدو. وإن الهيئة التي اكتملت عليها مدينة متبحرة مثل تاكدمت، والارتفاقات التي تجهزت بها لا سيما على الصعيد الثقافي، من دور للعلم (أول ثانوية وطنية أنشئت بها على يد الأمير) ومكتبة كانت بحق هي المكتبة الوطنية، فضلا عن دور العبادة والحمامات والحدائق ومسارح الخيل وفضاءات الترفيه الأخرى، كل ذلك يدل على أن النخبة بقيادة الأمير لم تكن همتها معلقة ببسيط الأهداف أو تافهها.[60]

ولابد أن نرك أن برنامج التمصير والنسق التجهيزي والتعميري المتكامل الذي سار فيه إنما كان من غاياته الأسمى تحوير ذهنية الفرد، وتطوير ثقافته وتزيد الفضاء الأهلي بأسباب وحوافز تدفع به نحو التمدن.

فكل ذلك التفعيل المدني المتعدد المستويات كان يتضمن – بداهة – الرغبة في الخروج من عقلية البنية القبيلة إلى

---

[60] متى يا ترى تتجه الإرادة الوطنية لبعث حاضرة تاقدمت في صورة مصر حضاري متكامل، حافل بما تجهز به غداة النشأة من مرافق علمية ومركبات صناعية ومؤسسات ثقافية ؟

عقلية البنية المدنية بناء للفضاء الحضاري الأكثر انفتاحا على العصر.

فالمجتمع كان يقتضي الارتقاء الجذري بمبادئ القبيلة، وكان العامل الجهادي من أهم الأصعدة التي وضعت الحس القبلي موضع التكييف الإيجابي، إذ البذل والقتال لم يكن يقصد به صون منازل العشيرة ولا جهات إقليمية معينة، وإنما كان يستهدف تحقيق الغلبة على الكفار وصون البيضة وحفظ الوطن. من هنا كانت عملية استزراع القيم النهوضية العصرية ترمي إلى توسيع ثقافة الوطن والمواطنة على نحو ما كانت تتيحه المنازلة مع المحتلين.

وينبغي أن نتذكر هنا أن قيمةالأرض والتمسك بها لم تكن يرقى في ثقافة السلف إلى مستوى قيمة العقيدة وحفظ الدين.

فالعقيدة ظلت في خلد السلف مكونا وجوديا حاسما ورأس الأمر والارتكاز الذي لا يدانيه ارتكاز، من هنا رأينا الفئات الجزائرية تبدي أول الأمر نوعا من التهيؤ للانسحاب عن الأرض إذا ما غلبهم الكفار عليها حفاظا على العقيدة التي لا يمكن للمسلم أن يفرط بها بتاتا.

لكن هذا التهيؤ لإخلاء الموطن فرارا بالعقيدة سرعان ما رأيناه يسقط من تفكير القيادة ما أن اطردت وتيرة الجهاد ضد الأعداء، بدليل أننا وجدنا الأمير وقيادته يبدون كل الإصرار على التشبث بالأرض ويظهرون المواقف الصارمة

إزاء حوادث اختراق الحدود من قبل الأعداء ( من قبيل إمرار جيوشهم داخل الحدود التي كان المجاهدون يعدونها ضمن سيادتهم ) بل لقد وجدناهم لا يترددون في اتخاذ قرار استئناف الحرب في كل مرة كانوا يرون فيها العدو يتخطى حدود الدولة الجزائرية.

وهكذا ألفيناهم يعلنون التحلل من المعاهدة الثانية المبرمة مع العدو- معاهدة بيجو- ما أن رأوا ابن الملك الفرسي يجتاز الحدود في الجبهة الوسطى متوجها إلى شرق البلاد، تماما كما فعلوا في مرحلة سابقة حين رأوا القادة العسكريين يخترقون الحدود ما بين أرزيو ووهران، فلم تتردد القيادة الوطنية في الرد عن ذلك بالحرب.

ذلك لأن المعركة كانت قد عمقت لدى المجاهدين معاني الوطن والوطنية وجعلت أمر التمسك بالأرض جزءا من التمسك بالعقيدة سواء بسواء.

فإزاء ذلك الوعي المتنامي بقيمة الأرض وما ولده الصراع من إحساس صريح بالوطنية لم يعد يسع القيادة أن تفكر في الانسحاب أو في الهجرة أو إتاحة الفرصة للأعداء كي يحتلوا بالقوة أو من غير مقاومة مزيدا من أراضي الوطن، على الرغم من العجز الذي كانت عليه آليات المقاومة الجهادية.

على أنه لابد لنا أن نلاحظ هنا أن معاني المواطنة في أول مراحل الصدام مع الغزاة لم تكن قد استوعبت بعد مبدأ

الارتباط بالأرض، فقد كانت حياة البدو تقوم على الارتحـال وتسقط منازل الكلإ، ذلك لأن علاقتهم بالموطن كانت علاقة انتفاع بدرجة أساس، فهم يرتادون المكان الخصيب ويطيبون به لكن ما أن ينالهم القحط حتى يهجروه ويختاروا غيره.

ثم إن سنة الهجرة النبوية كما تمثلها الوجدان الجمعـي الاسلامي كانت تفتح أمام المسلم باب ترك الأرض والتخلي عن الممتلكات مقابل النجاة بالدين متى ما دهم الخطر.

ولعل الفهم القاصر عن استبانة مقاصد الهجرة النبويـة هو الذي ظل يلحق بنا النكبات لا سيما على صعيد التفـريط في الأرض مثلما حصل لنا في الاندلس أو في البلقان أو في فلسطين أو..

فالهجرة كما سـنها الرسـول (ص) كانــت تكتيكيـة واستراتيجية في الآن معا، ثمرت عاملي المكان والزمان من أجل أن تحقق الثبات وتثبت الوجود، فهـي مجـرد اجـراء ظرفي يتيح للمقهورين أن يعيدوا الكرة على العدو فيجلـوه عن قواعده ليتمركزوا فيها ويشرعوا منها في إرساء الكيان.

فهجرة الرسول (ص) كانت فعلا تحفزيا ينسـجم مـع جدلية الكر والفر الواثقة من كفاءتها في حسم المصير، وإلا كيف نفهم خطته -ص- التأهبية التي بناها على أساس تهجير طائفة من المؤمنين إلـى الحبشـة، إذ لا يعقـل أن يكـون الرسول-ص- شاء بذلك الإجراء الدينامي أن يخلي الحجاز إلى وجهات أخرى.

إنما المؤكد أنها كانت هجرة أولى تصون ما توفر للدعوة من قوة، وتؤهبها للمواجهات اللاحقة.

فالهجرة بهذا المعنى التخطيطي لم يدرك مراميها المسلمون في عديد من الامتحانات الوطنية حينما أذعنوا لبواعث التهجير الجماعي ولم يمارسوا كفاءتهم في المطاولة، إذ لم يتعد فهمهم المستوى الحرفي لمقاصد سنة الهجرة.

لذا سنجد تلك الرخصة تضحى في الاجتهاد الفقهي الاسلامي رديفا لمتاركة الموطن وتنازلا عنه لصالح العدو خلاصا بالدين.

ربما كانت الوقائع التاريخية هي التي سارت بالهجرة على طريق التخلي بسبب المصير التنصيري الذي طفق المسلمون يعرفونه ببقائهم تحت سطوة المتغلبين الكفار كما حدث في الأندلس مثلا.

لذا تَوَجَّبَ تجديد مفهوم الهجرة ومقاصدها الشرعية والجهادية، حتى لا نقع في مغبة التفريط المجاني.[61]

لقد ظل العبء الجهادي الذي انخرطت فيه البلاد يَطبع سيرتها العامة بطابع التجند والاستنفار، وكانت دواعي بناء

---

[61] وإنه لمن الواضح في تاريخنا المعاصر أن بقاء عرب 48 في فلسطين كان سدادا وتوفيقا من الله، إذ من خلاله لبث الأمل قائما في الصمود وفي الانقضاض على العدو طال الزمن أو قصر

الدولة تقتضي فرض النظام وسن الخطط ورسم الحدود التي تقوم ضمنها علاقة المواطن بالجماعة القومية وبالدولة وبسلطتها وحرمتها وليس بسلطة القبيل وسيادته فقط.

وكان ذلك يتطلب اتباع أساليب إنضاج وتحضير كانت تستلزم حقا مزيدا من الوقت لتسري القيم والثقافة الجديدة في سلوك الناس وتستوعبها الذهنيات، لكن الظرف الحربي فرض على النخبة أن تسابق الزمن وتعمل على تلبية الحاجة المدنية بكل السبل بما فيها سبيل الصرامة والالزام.

وكل ذلك كان يجعل القيادة العسكرية نفسها تضطلع زيادة على الأداء القتالي بأداء كافة الأدوار المدنية والثقافية التي كان النظام يقتضيها.

على أن هذا لا ينبغي أن يعطينا الانطباع بأن الدولة كانت عسكرية على النمط النظامي المعروف في تجارب النظم العسكرية اليوم، بل علينا أن ندرك أن الوضع الجهادي كما تواطأت على تعاطيه البيئة المسلمة لم يكن يقوم على الفصل بين القطاعين المدني والعسكري، ولا بين المراتب والاعتبارات، ولا بين النشاطات والميادين، فالفعل السياسي هو نفسه فعل ثقافي وفعل اجتماعي وتنظيمي، إذ الاسلام بطبيعة تعاليمه الجمهورية والجماعية جعل المجتمع يتصدى للواجب الجهادي من منطلق الفرضية الدينية، الأمر الذي انتفت معه كل روح للتمايز الفيئوي أو القطاعي.

ذلك لأن فريضة الجهاد المتكيفة بين الواجبية العمومية (فرض عين) والواجبية الخصوصية (فرض كفاية) والمراعية لمقتضيات الظرف الحربي والمخاطر المداهمة، كانت تشريعا دينيا مناطا بالجماعة أو بالدولة وقيادتها، قائما على مبدإ التضحية والشهادة التي تتجاوز في ضمير المسلم إطار الإلزام والخضوع للأوامر الخارجية. فالمقاتل يهب روحه لله ورسوله، دون أن يفكر في ما سينال من مكاسب دنيوية أو مجد أو صيت.

فلا بدع أن نجد المسلمين في عهود عزتهم يتنافسون على الانخراط والتطوع ضمن صفوف المقاتلين ويتباهون بعدد المرات التي شاركوا فيها في الغزو وفي المدافعة.

من هنا كانت العسكرية في الاسلام هيئة قتالية ذات صبغة جماهيرية شعبية، وبالتالي مدنية استنفارية، أكثر منها عسكرية، قطاعية.

ومن هنا أيضا كان الأداء العسكري من صميم الخدمة الثقافية ووجها من وجوه العملية المدنية الشاملة التي تنهض بها الأمة وفي طليعتها قيادتها الجهادية.

فلا بدع أن تتماهى أنشطة الدولة في عهد الأمير وجهود القادة والهياكل الجهادية في صميم الفعل الثقافي الذي كانت الوقائع تتمخض عنه بصورة دائبة، ذلك لأن الباعث القتالي كان شرطا شموليا يتصل بالوضع الأمني والنفسي

الاجتماعي وبالروحية التي تقاتل بها الجماعات وبالآمال التي تلوح في وجهها والمعنويات التي تتخطى بها العثرات.

ويكفي فقط أن ندرك التوسع الذي أخذته في الضمائر قيمة مثل قيمة الشهادة في سبيل الله، لنعرف مدى التجدد الذي كان ينفذ إلى الذهنية المسلمة والآفاق التي كانت تنفتح أمامها.

وإذا كان المسلمون ظلوا يقاتلون طيلة العهود السابقة من أجل السلامة أو الفتح ونشر الاسلام أو المدافعة عن البيضة، فإن المسلمين الجزائريين وجدوا أنفسهم في تلك المنازلة الشاقة مع الاستعمار، يراهنون على إقامة الدولة والكيان السياسي الذي سيحميهم من التنصير ويكفل لهم رد العدوان واسترجاع الشموخ والكرامة ضمن دولة كانوا يرونها تقوم على الحق والشرع والقسطاسية.

فالتوسع شمل القيم وانفتح بالمفاهيم على الآفاق المدنية والسياسية التي ظلت مغيبة عن ضمير الانسان المسلم بسبب الانحطاط، فكان عليه أن يواجه الكافر وأن ينازله على صعيد احتلالي صليبي غاشم كي يحصل له -من قلب المعركة الجهادية- الوعي الحضاري الجديد، وحتى تأخذ أفعاله الثقافية رجاحة دنيوية وارتقاء مثمرا يعيد له الصلة بالمدنية الحية التي انقطع عنها منذ عصر المعتصم تقريبا.

ويكفي من جهة أخرى أن نعلم فقط الكيفية التي كانت تساس بها القوات المسلحة في دولة الأمير لندرك مدى

التحول الذي طرأ على الواقع الحياتي في البلاد، إذ كانت الوحدات المجندة تتأطر بعدة قضائية وأمنية أوكِل إليها النظر فيما يجدُّ من الخلافات بين الجنود[62]، وكان لذلك الإجراء التنظيمي والانضباطي تأثيره ليس على العسكرية فحسب ولكن على البيئة برمتها إذا هيأتها على صورة مطردة لأن تتطور نحو مجتمع المؤسسات وتنسلخ أو تسعى إلى الانسلاخ عن منطق العشيرة.

لقد سعى الأمير بذلك النهج إلى إنفاذ روح العدل بين الجند ضمن قطاعهم، وبينهم وبين الأهالي، وقد تمكن بذلك من وضع لبنة أساسية في مجال بناء اللحمة الجماعية والوطنية بين الناس، وكفل على ذلك النحو الضمانة المعنوية التي قربت الأهالي من الدولة وجعلتها تغدو أكثر فأكثر محل ثقة واحترام وهيبة.

لقد كان القضاء من أنشط المرافق التي هيكل بها الأمير المجتمع وأوصل لحمة الدولة بالمواطن، وسعى إلى أن يخرج بواسطتها الذهنية الجزائرية من حال التفكك إلى حال التواشج الجماعي البناء.

فمن خلال إرساء المسطرة الفقهية والقانونية كانت الدولة الجزائرية تفتح في وجه الانسان الجزائري أفق انتظار

---

[62] وتلك خطة إسلامية متبعة منذ عهد الفتوح، فقد استطاع الخلفاء لا سيما عمر– ر– أن يجنبوا من خلال تفعيل الجهاز العدلي العسكري بين الحاميات والبعوث مظاهر التمزق التي كان الغنم يسببها لا سيما بين فيئات تستحكم فيها الروح القبلية،

مليء بالجاذبية والطمأنينة، كما أنها كانت في ذات الوقت ترسي دعائم الصرامة والمسؤولية بحيث كانت الجزاءات الردعية التي بلغت أحيانا ذروتها، لا سيما عندما كان الأمر يتعلق بمسائل الدين والدولة - الردة - أو ما يمكن أن يسمى الخيانة الوطنية الآن، ولنعتبر في ذلك بما نال الفقيه قاضي أرزيو بن الطاهر- وهو أحد أساتذة الأمير نفسه - إذ نفذ فيه الإعدام جراء الدور الخياني الذي أداه للمستعمر حين اعترض على الجهاد وأفتى بعدم وجوب هجرة الأهالي عن مدنهم، وبعدم جواز مقاطعة العدو الدخيل، مخالفا في ذلك ما قرره مجلس الإفتاء الأعلى للدولة عندما ألزم أهالي بعض الثغور بمقاطعة العدو والانفكاك عنه.

وحين نجد العسكرية تخضع لنظام جزائي - عقابي ترعاه الدولة وتنفذه بكامل الحرص، فإن ذلك يعني أن مسؤولية الدولة كانت شاملة وعلى يقظة كبيرة لأنها أخذت بمبدإ العدالة الذي هو أساس الملك والضامن الفعلي والمعنوي لكل تلاحم وكل مشاركة.

ولا يعني هذا أن المهمة التمدينية كانت يسيرة ومتأتية بحسب ما تمليه المشيئة والنوايا الخيرية، بل لابد أن ندرك أن إرادة تعميم القيم وإخضاع الناس لنفس المعايير والمرجعيات إنما هي حال تريد أن تجعل الناس على قدم المساواة تقريبا مع ما يترتب عن ذلك من فقدان الامتيازات والمكاسب، وهو ما كان يشكل مصدر رفض ومعارضة فئات كثيرة كان الهم المصلحي يتحكم في ضمائرهم.

من هنا كانت صور المعارضة تتعدد، لا سيما وأن هناك جهة استعمارية ظلت توظف كل إمكاناتها المادية والتأثيرية من أجل أن تفشل تلك التجربة التمدينية الرائدة والرائعة التي بدأتها الجزائر في عهد كان السبات يطبق فيه على باقي الأقطار العربية والاسلامية تقريبا.

لقد كانت الآليات الجهادية في دولة الأمير هي آليات ثقافية بدرجة أولى وذلك بسبب وظيفتها التنظيمية والتمدينية البارزة التي كانت تفاعل مجتمعا قبليا بدويا أو هو في الغالبية من أهاليه شبه بدوي.

إذ أن الثقافة هي تعليم وتنظيم ونشر للقيم وارتقاء إيجابي بالنظرة إلى الذات وإلى الآخر واكتساب القدرة على الخلق والمواجهة ليس في الميدان الحربي فقط ولكن في المجال المدني بالخصوص.

من هنا يمكن أن نسجل بكل ارتياح أن البرنامج التصنيعي الحربي الذي شرع في تنفيذه الأمير كان وجها متقدما للثقافة الجديدة التي أفرزتها الظاهرة الجهادية في البيئة الجزائرية، إذ لا أيسر من أن نقدر الشوط البعيد الذي قطعته البلاد -وفي بضع سنوات - في مضمار خلق الجاهزية الحربية، وفي بناء جسور التقدم والارتقاء المدني.

فالبلاد التي كانت شبه سائبة أو مهيكلة جزئيا بمؤسسات أهلية عتيقة تتمثل في مفردات الزوايا وما كان يسيطر على ثقافتها من فكر كفافي، قد أضحت فجأة تقف على عتبة تحول

جذري تأخذ فيه الأمة بأسباب حياتية كان المجال التصنيعي التسليحي، فضلا عن تنشيط ميادين المالية والاتجار والدبلوماسية، من بين منجزاتها الواعدة، وكل ذلك جعل – حقا –تلك المرحلة بمثابة المقدمة الرائعة في مضمار شق الطريق نحو الحداثة والعصرنة لو أن البلاد أكملت سيرها ولم تداهمها الدواهي.

وفي المجال الانساني لا جرم أن ثقافة الجهاد كانت تمضي على طريق خلق الانسان الجديد، الانسان الجزائري المسلم المتأهب لأخذ زمام مصيره بيده، إذ أن شعيرة الجهاد قد شرعت تهذب في نفسيته كثيرا من رعونة عهود السيبة والتوحش والتعصب المقيت ورفض النظام، لتنمي فيه بدل ذلك قيم التسامي والترابط والانسجام من خلال شحذ روح التكافل والتضامن التي بعثها جو الكفاح المسلح وعززتها الأوضاع المتفجرة والانكسارت التي قربت بين القلوب وكشفت للأهالي عن العدو المشترك.

لقد أضحى لدروس المساجد وحلقات الوعظ ولقاءات الناس في أفراحهم وأتراحهم موضوعات مشتركة وخطيرة ولا أحد يسعه أن يغض عنها، يتداولونها بكامل الاهتمام والعمق والاستغراق، لأنها كانت موصولة بوجودهم وبكينونتهم وبروحيتهم.

لقد ولد الموضوع الوطني المشترك الذي نسخ ألوانا من الشجون البالية والمستهلكة والرثة التي ظلت تلوكها ألسنة الجماهير المسلمة قرونا دون طائل، وشرعت أصداء النزال

مع العدو المحتل تنسج خيوط أسطورة العصر الجديد، إذ كان مجرى الأحداث يبذر في الذهنيات ملامح جديدة وخطوطا غير متكاملة بعد، لأخبار غير موثوقة بعد، عن غد غير بعيد، وعن موطن فردوسي ليس ناء ولا مغيب قطعا، وعن سيادة ونعيم وعن حرية وانعتاق.

بل لقد ترابطت هموم الناس، وأضحت الواقعة الإخبارية العاجلة تسعى إلى أن تضع الفرد الجزائري بإزاء تأهب لا تنفصل فيه أحوال الآخرة عن أحوال الدنيا، من حيث الحث على ترجيح قيم الصلاح والبذل والتضحية بالنفس من أجل سعادة الدارين.

فحتى الدرس التفسيري تحول في شيء غير هين من أدائه إلى وجهة أخذت فيها آيات الإيمان والعمل الصالح دلالات أخرى راشحة بالمعاني الحضارية المتمازجة مع الفعل الصدامي التحريري.

ولا يغيب عنا في هذا المجال البرنامج التهذيبي الوطني الذي استهدف به الأمير تغيير الخلقية وصقل السلوك الاجتماعي وتنظيفه من شوائب وعادات علقت به على مدى الزمن، من ذلك مثلا محاربته الصارمة لظاهرة الدعارة، لقد تشدد في هذا الشأن وشجع على الزواج وسلط الجهاز الأمني على تتبع أماكن الفساد وعالج المسألة علاجا اجتماعيا بكفالة المحتاجين ماليا، ومعالجة نفسية من خلال تأهيب المعنويات، وأمنية بواسطة ردع المتهتكين. ونفس الأمر اتبعه مع ظاهرة التدخين التي كانت تعتبر – وينبغي أن تعتبر في كل وقت–

آفة اجتماعية مدمرة، وتتبعها بالعلاج حتى بات المجتمع خاليا ممن يتعاطى التدخين، ولقد اعترف الأمير نفسه أن من كان يخترق قاعدة حظر التدخين كانوا أفرادا أو فئة لا تؤثر، ونفس الصرامة اتبعها في القضاء على اختلالات أخرى كانت فاشية في المجتمع نتيجة الفقر والجهل والسيبة [63]، فهيأ للمجتمع نوعا من الطهارة لم ترهق الناس، ولكنها وسعت عليهم، وباتت المرأة أكثر حرية في المجتمع لأنها ضبطت نفسها بمناخ عام توجيهي وتكفلي حقيقي، وأمنت من جهتها شر المجتمع، فباتت لا تجد إلا المحبة والتوقير أينما حلت.

لقد تزاوجت في برنامج الأمير الترشيدي الفاعلية الخلقية مع تحقيق الكفالة الاجتماعية والأمن المعاشي، وذلك نتيجة ما باتت الدولة تنفقه على مشاريع العمران والبناء، الأمر الذي أتاح للأهالي أن ينالوا نصيبهم المادي بفضل الحركية الاقتصادية التي تحسنت بها حياة الناس، فقد عمل الأمير على تنشيط مالية المجتمع وتثمير أموال البلاد في التجارة والصفقات ليس داخليا فقط ولكن خارجيا أيضا، فقد كانت للدولة ملكيتها، إذ سارت في هذا المجال على آثار البايلك الذي كان يمتلك الأراضي الفلاحية والأوقاف وغيرها، وزادت دولة الأمير على ذلك استفادتها من موارد شرعية توسعت في جو الجهاد ومن تنافس الأسخياء على البذل.

---

[63] - منها السكر وغير ذلك من المفاسد.

إذ أن ضبط مدونة سلوك عمومية لا تجدي كثيرا ما لم يجد الانسان أمامه النموذج السلوكي البديل الذي يقوي فيه نوازع الكمال والرقي.

في غمار هذه التحولات الجارفة كان حتما أن تتولد قيم جديدة ومفاهيم طارئة وتنشأ معها علاقات إنسانية متجددة، فعوض نفسية النعرة والتعصب وتوارث الإحن القبيلية والجهوية كان لزاما أن تبرز نفسية الإخاء القومي، وأن ترتد كثير من المسلمات البالية إلى وراء، وأن تنزاح كثير من البداهات المتعلقة بالمكان والنسب لتختفي وراء علاقة المواطنة التي كانت دولة الأمير تؤسس لها.

لقد كانت نظم التسيير بحد ذاتها مادة تكوينية وتثقيفية استخدمتها الدولة الفتية من أجل تقوية الحس المدني بين الأهالي، فالمراسيم المكتوبة والنداءات العمومية عبر الحارات والأسواق والرسائل الخطية المرسلة إلى الجهات، وزيارات التفقد، والمناسبات المعظمة والأحداث السعيدة والمفرحة، وسائر الوقائع التي كانت تعتمل بها ساحة الوطن كانت تلعب دورا تكييفيا يوسع من الأفق الثقافي الباهر الذي فتحه الجهاد ضد الكافر أمام الجزائريين.

من هنا كان التوجس وكان التردد، بل وكان الارتباك الأهلي وهو يتلقى هذه التعاليم الجديدة يتزاوج مع حماسة الاقدام التي كانت الطليعة المجاهدة تجسدها يوما بعد يوم في جهادها الشامل.

بل لقد أفرزت الحركة الثقافية الجهادية أخلاقياتها الجديدة، وأفلحت في ظرف زمني غير طويل أن تولد السلوك المدني الراقي بين المجاهدين، وهكذا انكسر شيئا فشيئا سلوك الأنفة الفردية أو التعصبية وأضحى الانصياع النظامي هو ميزة الجهاد المرعية، وصار خلق الطاعة والاستجابة للنظام من مظاهر الأداء الجهادي، وغدت طاعة أولي الأمر عنوان الانتماء إلى الوطن والانقياد بحدود الشرع والتجاوب مع روح الجهاد التي أناطت أهدافها بصنع الغد الدنيوي والأخروي السعيد.

كما أن الثقافة القومية قد تجددت وتنامت مساحتها على صعيد آخر تمثل في جدلية التعامل مع الكافر ومداورته ومناددته ليس فقط في المجال القتالي، ولكن على المستوى المدني أيضا، فالسياسة والدبلوماسية كانت مجال تواصل مستمر مع العدو، وتلك حال من العلاقات لم يكد الجزائريون يعرفونها قبل قيام دولة الأمير، فقد كانت الإدارة التركية تكفلهم في هذا الميدان وكانت تتولى مخاطبة ومقارعة الأجنبي، وهو ما ستنهض به وعلى نحو مبهر تقريبا الدولة الجزائرية في عهد الأمير.

فرغم الارتباك الذي ألفيناه يميز الانطلاقة السياسية الوطنية، إلا أن وتيرة التعامل الدبلوماسي جرت على أصول دولية متبعة، وهو ما كفل مساحة غير قليلة من التطور في مضمار التعامل والتعرف على ثقافة الآخر.

وإنه لثابت أن الجزائيين قد تعلموا سريعا كيف يسجلون مدى تباين طباعهم وثقافتهم مع طباع وثقافة المحتلين ويضعون ذلك في الاعتبار. فكتابات الأمير في هذا الصدد قد عددت التنبيه إلى هذا التمايز، الأمر الذي يدل على نباهة وقابلية لفهم الآخر والتعامل معه، وهو ما لم يستطع أن يحققه المستعمر، إذ ظل يبني حساباته واستراتيجياته على أخطاء فادحة مردها إلى عدم فهمه على النحو الدقيق حقيقة ضحيته: الانسان الجزائري. لقد كانت لحون الجلالة

أجل يمكن أن تشكل مراسلات الأمير ومخاطبات أعوانه للفرنسيين ميدانا مهما لإبراز ذلك التمايز بين الطرفين، فقد طفق الأمير مثلا يلفت مخاطبيه الفرنسيين إلى نواحي الاختلاف بين الأمتين المسلمة والفرنسية، حتى في مجال الحرب وكيفيات القتال، الأمر الذي يبين مدى الاعتناء الذي كان يتهيأ للنظرة الأهلية وهي تتفاعل مع المحتل حربا ومهادنة، وكان ذلك من المؤثرات التي عملت بمرور الوقت على تصويب رؤية النفور التي كان المسلم يحتفظ بها للكافر في ذهنه.

إذ لا ننس أن الذهنية العامية كان لها نبضها الجانح أبدا إلى التهويل لا سيما حيال موضوعات المجهول، ولما ظلت الصلة بين المسلم والكافر[64] صلة عداء، فقد أفرزت المخيلة الجماعية ولدى الطرفين : المسلم والنصراني، صورة مريعة

[64] – غير خاف أن استخدامنا للفظ الكافر إن هو إلا التوظيف للمعنى التاريخي كما كان متداولا في ما مضى.

للآخر. ويمكن هنا التذكير بما ظلت تحيل عليه مثلا صورة باربروس في مشاعر الأوروبي من رهبة ورعب.

ومثل ذلك الارتعاب سكن بواطن المسلم بسبب ما كان يسقطه من نعوت التوحش على الكافر، إذ بات لفظ الرومي مناط الرهبة والخوف.

من هنا كانت صدامات الحرب وما صاحبها من أحوال تداخل وتقارب، تعمل رغم دمويتها على تحديد صورة أخرى غير الصورة الذهنية التي كانت للمسلم عن الكافر يوم كان مجرد تمثلٍ ذهني فظيعٍ.

لقد أضحى الكافر ماثلا حياله وأضحت العلاقة بينهما علاقة نزال ومغالبة، الأمر الذي ساهم في حلحلة المشاعر نحو الاعتراف المتبادل ببشرية كل من الطرفين.

فقد بات المسلم يدرك أن الكافر إنسان، وذو طبيعة بشرية لا تختلف عن طبيعته في شيء، وأن الفرق البارز بينهما إنما هو جاهزية الكافر وتوفر عدته ورقي مدنيته ونظامه. وفي ذلك كان الحس الثقافي الأهلي يتصدع، إذ كانت النقائص – والكمالات على حد سواء تبرز – ظاهرة للعيان.

وربما ظلت أحوال المسلم الرثة تعمق في مشاعر الرومي صورة النفور، لكن النفور أضحى الآن بعد حصول

الغلبة، يحمل معاني الاحتقار بكل ما يورث ذلك من الاحساس بالتعالي والصلف .

ومع كل هذا لا بد أن نؤكد أن التواصل الحربي والسياسي والتعاملي كان له أثره الايجابي على كل حال، إذ بين مدى التخلف الذي كان يقصي المسلم عن خصمه في مضمار الجاهزية والمدنية، لذلك رأينا الأمير يشمر عن ساعد الجد ما أن تمكن من السيطرة على الوضع الأهلي، ليباشر سياسة بناء وارتفاق طموحة.

لقد شاءت دولة الأمير أن تخطو في مضمار التجهز خطواتها الأولى لتخرج البلاد والجماعات الأهلية من حال الرثاثة التي كشف حضور العدو عن مدى عمقها وزرايتها، لذلك حرصت دولة الأمير على أن تشرع في العمل الجبار آملة أن تصل في أسرع مدة إلى بلوغ الدرجة التي تؤهلها لأن تضاهي عدوها في أحواله وامتيازاته المدنية تلك.

ولا عجب والحال تلك أن نجد الأمير في بعض جدالاته مع القادة الفرنسيين يطالب بأن يتركوه على حالة سلم مدة عشرين سنة ثم يبارزونه بعدها في الحرب إذا شاؤوا، فعندها – كما يرى – ستكونون معذورين أمام ضمائركم وأمام العالم إن أنتم غالبتمونا، لأننا سنكون يومذاك دولة ناهضة ومتجهزة ومعتدة بعدة الحرب .

فالأمير بهذه الروح كان يبني تصميمه على استراتيجية استغلال الزمن لتحقيق المعجزة، وهو ما كانت في نفس

المرحلة أمة اليابان العظيمة تراهن عليه، فكان حظها غير حظنا.

لكن إذا فات جيل الأمير أن يحدث الانبعاث فهل عقمت الجزائر في أن تنجب الجيل الذي ينطلق بذات الروح التي انطلق بها الأمير ليحقق ما أجهضه المستعمرون من أحلام الأمير؟

وإنه لثابت كذلك مدى زيف ومكر ادعاءات المحتل -في تلك الفترة -إذ ظلت تزعم أن الاحتلال إنما يستهدف تمدين الجزائريين المسلمين.

ومن غير شك أن الأعمال الدموية الفظيعة التي ظل العدو يقترفها على الدوام كانت تتوازى بلفتات وادعاءات إنسانية طبيعتها إغرائية تسكينا للقلوب، وذلك ما هيأ لقطاع من الأهالي أن يركن إلى المحتل ويشكل أول جسور التساكن الذي سيعرف في بعض أحواله مآلا تغريبيا تنسلخ به فئات عن هويتها العربية أو البربرية الاسلامية.

لقد حاربنا العدو بسلاح النار وسلاح الثقافة، إذ حرمنا من العلم الحق، ونفث فينا قيم فتاكة أودت بأرواح الكثيرين ولا تزال إلى اليوم. لقد كانت سمومه تستهدف المناعة من روح الانسان الجزائري، لذلك أضحى بيننا اليوم كثير من الفئات التي تحمل الفيروس، فهي ضحايا وجديرة برأفتنا وتعاطفنا.

لقد حتم برنامج الاستيطان على المستعمر أن ينتشر عبر الأرجاء وأن يتخذ من الأهالي خدما وعمالة، بل وأن يكفل لفئات منهم حدا من التعليم لمقاصد تسيير وخدمة، وكان ذلك بابا تمكن أن ينفذ منه إلى تخريب الهوية القومية، إذ استطاعت – إلى حد– وسائله وبيداغوجيته أن تزرع في الضمير الأهلي جرثوم احتقار الذات .

فالتساكن –ولا أقول الانصهار– التمديني كان يفرز فيئات وعناصر اجتماعية مهيأة للاختراق ولها قابلية الدجانة.

ففي خضم المد الجهادي الذي كانت تنهض به دولة الأمير ومنذ ذلك الوقت بدأ المجتمع يلفظ النفايات البشرية المستهلكة والمتمثلة في المجموعات المستلبة أو كما سماهم الأمير المتنصرة[65]، إذ أن الوهن وفقدان العدة وازدياد النكبات دفع بفئات مختلفة إلى الجنوح نحو العدو ووسع قاعدة المنهزمين الذين تقبلوا الاحتلال من أول ساعة . وكانت الثقافة الوطنية منذ ذلك الحين تعرف –على ذلك النحو– الانشطار والفصامية الذي لن تبلو منه إلى اليوم.

على أننا نؤكد هنا أن القريحة القومية آنذاك قد تاقت –بنحو ما –إلى أن تفيد من بعض المكاسب الثقافية المتاحة

---

[65] - مصطلح التنصر استخدمه صاحب التحفة وهو ينعت الجزائريين الذين والوا المحتل وساكنوه وامتنعوا عن مقاتلته خلال كفاح الأمير للغزاة الفرنسيين وسيصبح لهذا المصطلح مرادف آخر يؤدي معناه تقريبا ولكن بدلالة مدنية أكثر منها دينية هومصطلح المتغرب.

التي حصلت لها نتيجة تفاعلها مع العدو لتسخرها في بناء نفسها وتعمير وطنها وتقوية جانبها. ويكفي أن نستحضر الخطوات الجبارة التي قطعها الأمير في إرساء وبناء المرافق والمؤسسات الحكومية والاقتصادية والصناعية والعمرانية، لندرك أن حضور الآخر قد فتح عين الجزائري على أهمية التحديث وجعله يسعى إلى أن يحتذي انجازاته المختلفة ويستوعب -ما أمكن- الشروط المادية والمعنوية التي جعلت العدو يقوى ويصل إلى تلك الدرجة من التمكن.

ومما لا شك فيه أن المهمة البنائية كانت شاقة ومحفوفة بالمعيقات القاهرة، فالدولة لم تكن تتوفر على الكفاءات الفنية حتى في المجال الأدبي بله المجال التقني والتعميري، وحسبنا أن نذكّر بموقف عاشه الأمير وهو يفتتح مدينة تلمسان لندرك مدى الفقر والعوز الأدبيين اللذين كانا يميزان واقعنا يومئذ، لقد وجدنا الأمير الفاتح ينظم بنفسه قصيد النصر والفتح وينشده في الناس، احتفالا بتلك المناسبة التي تداعت إليها الوفود الأهلية من الأرجاء جميعا، وقد جرت العادة على أن حدثا مثل ذلك إنما تتبارى في إشهاره وإقامة مراسيمه طواقم من الشعراء وأهل الفن ،وليس السلطان حصرا.

وإن ما دفع الأمير إلى أن ينشد ما أنشد في تلك التظاهرة هو انعدام الشعراء في جانبه، لذا رأينا الأمير ينطق بلسانين في ذلك القصيد، لسان السلطان الفاتح ولسان الشاعر المفاخر بما صنع الأمير . إنها ملاحظة بسيطة أردنا أن نبرز من خلالها الإمكانيات الحضارية والأدبية المحدودة جدا

التي كان المجاهدون ينطلقون منها وهم يجهدون لتأسيس دعائم دولة أهلية في ذلك الظرف العاصف.

ويوم أن تغلب المستعمر على المقاومة بقيادة الأمير العظيم، ركز على أن يطمس معالم وانجازات تلك التجربة القصيرة والفذة من تاريخنا الحديث، حتى يتيسر عليه اجتثاثنا وإفقادنا ذاكرتنا، وبالتالي القضاء علينا.

. ويوم أن باشرنا إعادة بعث الدولة الجزائرنا كان مرة أخرى حادينا الاستسهال واللارشد، وبدل أن نؤصل ما كان وضع أساسه الأمير وهو يرسي أسس دولته، اكتفينا بتبني ما ورثناه من إدارة استعمارية وظفقنا نضيف إليها بكل بلادة ما نستنسخه من نظم الآخر بكل اعتباطية في كثير من الأحيان.

**الزمالة مصهر مدني هيأ لميلاد الذوق الوطني المعاصر.**

لابد أن نلفت إلى دور المهم الذي لعبته الزمالة في تنشيط الثقافة الوطنية وفي لحم أوصالها وتهييئ المجال لميلاد البواكير الذوقية والجمالية الجماعية المشتركة.

لقد كانت الزمالة فضاء أهليا تفاعلت فيه عن كثب عوامل الثقافة والاجتماع والمشاعر ففتح المجال لتلاقح الأذواق والطبوع والمهارات الفنية والثقافية الوطنية وتمخض ذلك التفاعل الإيجابي عن ميلاد الأسس الأولى لما يمكن أن يسمى القالب الثقافي والجمالي الوطني الحديث، إذ أن الفئات الأهلية التي تساكنت في تلك الحظيرة القومية

المتنقلة كانت متنوعة في تركيبتها البشـرية، تنتمـي إلـى جغرافية الـوطن بكاملهـا، فالشـاوي والقبـائلي والتلـي والصحراوي والكولوغلي والمسلم الرومي جميعا يتبـادلون الخبرة ويصوغون نظما مدنية وانتفاعية في مجال التعـايش الجهادي والمرابطة.

ويكفي أن نعلم أن أحياء الزمالة كانت تضم النحاسـين والنجارين والحدادين والصباغين والخطاطين ومربي الخيول ومعلمي الكتاتيب والخبازين والـ.. لندرك مـدى الحيويـة الثقافية التي استطاع الجهاد أن يبعثها في ذلك الوسط الـذي كان يمارس دورا تنويريا يشع على باقي الجهات الوطنية.

لقد كانت الزمالة الرحم الذي ولد فيه النمـوذج الثقـافي والفني والجمالي الوطني للجزائر المعاصرة، وعلينا أن ننقب عن خصوصيات ذلك النموذج، لأن المستعمر أزال الآثـار عن تبييت إجرامي مغرض.

ثم إذا علمنا أن اهتمام الأمير بالأنشطة الثقافية انطلاقـا من تكوينه كشاعر وكرجل زاوية وكسلطان يحرص على أن يضفي على هيئات ملكه ودوائر دولته كل صبغة تعزز مـن قيمتها ومن مكانتها بين الأهالي، أدركنا سر ذلـك الاحتفـاء الكبير الذي كان له في ميدان إرساء البروتوكول.

لقد كانت مراسيم ركوب ونزوله تتم وفق خطة الملـك التي ظل القادة المسلمون وأهل السلطان يتبعونها منذ القديم، كان طاقم العبيد الملازم للخدمة والحاشية والحضور يبـادر

إلى إرسال صيحة الترحيب والتشييع والدعاء للأمير ما أن يحضر أو ينصرف: الله ينصر مولانا ناصر الدين".

كما أن التزامه بإحياء المواسم والمناسبات الدينية كان يندرج ضمن تفعيل الطاقة الثقافية كجزء من عملية تسيير مدني متكامل. ويمكن من بعض الوجوه اعتبار الأمير وما مارسه من نشاط في ذلك السبيل امتدادا لسلاطين بني زيان، فقد رأينا أهمية ونضج مرصودهم التمدني لا سيما على مستوى الأذواق الفنية والجمالية القومية.

ونذكر في هذا الصدد ازدهار الكفاءات الإنشادية والتجويدية، لا سيما الأداء الترتيلي، فقد كانت طواقم القراء تلازم موكب الأمير ومجالسه، وكان ذوو الأصوات واللحون المتميزة ينضمون إلى موكبه وينخرطون ضمن ما يمكن أن يسمى الفريق الفني الرسمي الذي ترعاه الدولة مباشرة، زيادة على التقليد الأهلي المتمثل في وقف أهل اليسار أموالا على القراء والحزابة وشراح العلوم الشرعية، وهو أمر اغتنت به فنون التجويد والأداء الوطنية، وذلك بفضل تعارف البيئات المحلية فيما بينها واطلاعها على ألوان وصيغ كانت تميز بيئاتهم، واتسع هذا إلى مجال الأناشيد واللحون الطربية وباقي المستويات الجمالية الأخرى.

وإنه لطريف أن نتمثل أجواء الفرح والرقص والطرب التي كانت الزمالة تحيي بها ليالي أفراحها وسعاداتها، لقد كانت مواكب الخيل تصطحب العرسان تحت الطلقات إلى ساحة الاحتفال أين يعقد بينهم القاضي، ثم تدق الطبول

وتشدو الصبايا وتتسع مجالس السماع وتتنوع طبوع الطعام وتتلون مواد السهرة من غناء وأذكار ورواية أخبار وأشعار وتلغيزات وألعاب للفتيان والأطفال وما إلى ذلك..

وربما كانت ظروف الحرب تقتضي إقامة احتفالات الزواج الجماعي، وهو ما كان يعطي للتظاهرات الاحتفالية بعدا جاهيريا كرنافاليا إذا صح التعبير، ضمن آداب المجتمع البدوي الذي كانت الفواصل فيه بين الجنسين محدودة وأرسخ عفافا، لأن قيم الطهر والسمو كانت هي القاعدة التي يرعاها الجميع.

وإنه لثابت أن الألعاب الليلية كانت متنوعة، وأن خيال الظل، ذلك اللون المسرحي الأهلي كان رائجا، وأن أهل الزمالة وشبابها وصباياها كانوا يشهدونه، وأن المستعمر سوف لن يلبث أن يأخذ ذلك التقليد منهم، إذ أضحت فرق العساكر تمارس لعبة خيال الظل وتعقد حلقات القصبة والبندير في المعسكرات وأضافت إليها ألوانا أخرى أكثر تهتكا في سهراتها هي أيضا. لقد كانت لحون الجلالة والتجليل لون يتعطاها المجتمع على نطاق واسع ازدهرت به الأنشودة المدرسية في ذلك الزمن.

لقد أتاحت الزمالة اندماجا ثقافيا واسعا بين المواطنين، واستطاع الذوق الوطني أن يبرز لأول مرة على نحو عملي من خلال المشاركة الأهلية الواسعة والمتنوعة التي هيأتها بيئة الزمالة للفئات من مختلف بقاع القطر، والتي أرهصت وأسهمت على ذلك النحو في بلورة الذوق المشترك، وهذا

على أصعدة النشاط المختلفة، في الطعوم والألبسة والأعراف والفنون والحرف والمهارات وفي سائر الأداءات. وهو ما سيساهم إلى حد في تهييء المناخ أمام انبثاقات جمالية نموذجية وطنية وقومية.

لقد كانت الزمالة مصهرا فذا مكن من مد الجسور في كل الميادين، بما في ذلك المستوى الانساني، بعد أن أضحى التصاهر واختلاط الأعراق يهيئ لنوعية من الخلف مازج بينها جو الجهاد واللحمة الوطنية.

وكان فن الموسيقى نشاطا يتعلم ويكتسب بالتمرس، وكانت الفرقة الأميرية تتلقى العناصر الماهرة من داخل الوطن وحتى من خارجه، إذ أن المعلمين كانوا إما من قدامى الجيش التركي أو من الأهالي، وبعض كان من النصارى الذين ضمهم الأمير إلى العسكرية من أجل الاستفادة من خبرتهم في شتى الميادين.

ولقد كانت للأمير محبة لا تمارى للقراءة وقراءة الحزب والأوراد وشهود الحلقات وزيادة على مطالعاته الشخصية ذات الطابع الفكري والتاريخي، كانت قراءة حزب خليل والصحيحين من أهم ما يرتبه الأمير لنفسه، إذ كان تقليدا جرت عليه العادة في البيئات المسلمة لا سيما المغاربية، إذ كانوا يتخذون قراءة خليل وسيلة من وسائل التوسل والاستخارة، زيادة على القيمة التثقيفية الشرعية الأساسية التي يكفلها.

ثم إن الأمير كان يلازم الدرس العمومي والمحاضرة الموجهة، يلقيها على الجنود في حال المعركة كلما انفصلوا عن الاشتباك مع العدو، ويلقيها أيضا في حال التأهيب، بحيث كانوا يقضون سهراتهم في جو العلم، وكان يقضي جزءا كبيرا من وقته - لا سيما زمن الهدنة والمسالمة - في تعليم الناس داخل المساجد وفي الهواء الطلق، أينما حل وارتحل، لقد رأيناه مثلا وهو يحاصر المدية يلازم نشاط التعليم وتثقيف الجند، فلما فتحها قضى في مسجدها مدة وهو يدرس الفقه والتفسير والشعر وما إلى ذلك، وكان من بين ما درسه للناس هناك كتاب أم البراهين للسنوسي. ونفس العمل قام به أثناء حصاره لواحة عين ماضي وتلمسان وغيرهما.

وسنراه يتفرغ في سنوات نفيه للتدريس والكتابة، ولعل من أهم ما يذكر له هنا اتخاذه مؤذنا كان صوته يرتفع لدى كل صلاة، وكان راهب AMBOISE يضرب للناس المثل بالأمير وجماعته وكيف كانوا يحرصون على أداء صلواتهم بصورة منتظمة ودائمة

**9-تحسس أولي لمظاهر الضعف والقوة التي كان عليها العالمان: الاسلامي والغربي غداة احتلال الجزائر.**

نريد أن نعرض الآن، في عجالة، إلى الجانب التجهيزي، أو إلى الجاهزية المدنية والحضارية التي انطلقت منها الجزائر بقيادة الأمير عبد القادر للتصدي للغرب في حملته الاستعمارية المعاصرة.

وقد تعمدنا أن تكون مادتنا لاستشفاف خصائص ذلك التجهز الحضاري الاسلامي، بعض مراسلات الأمير عبد القادر التي وجهها إلى بعض الدول الغربية، وإلى اسبانيا تحديدا. حيث كان يتطلع بعين الرغبة والأمل إلى أن يتفهم حكام هذه الدولة - الجارة- أوضاع الجزائر، ويتخذوا من صراع الجزائر مع فرنسا موقفا يدعم نضال الجزائريين من أجل السيادة والحق في استعادة وطنهم.

ان القراءة الأولى لتلك المراسلات تكشف الفارق المذهل بين مستوى الحضارتين، والتباعد الشاسع الذي يفصل بين أشواطهما، من حيث العدة والمدى المادي والتمرسي المنجز على الأقل.

أول ما يتضح لنا من ثنايا هذه الرسائل اتحادها في الغاية التي كتبت من أجلها، وهي استمداد القوة والتسلح وفي ذات الوقت الاعلان عن إرادة التحالف التي كان الجزائريون يعرضونها على الاسبان.

كما أن مصدر هذه المكاتبات كان الأمير عبد القادر نفسه، فقد وجدناه يراسل الملكة إيزابيل الثانية، ووجدناه من ناحية أخرى يراسل قادة عسكريين اسبان لا سيما حاكم مدينة مليلية.

وإنه لواضح أن الأمير كان في هذه المراسلات يباشر بصورة حيوية مهام رئاسية وأخرى وزارية دبلوماسية وتفاوضية، الأمر الذي يبين الطبيعة التسييرية التي آلت إليها الإمارة لا سيما وهي تعيش في المهجر، لاجئة في بلاد المغرب. فقد اقتضت ظروف البلاد من القائد الوطني أن يتحول في تلك المرحلة الاستنفارية الحاسمة إلى مباشرة العمل من دون مراعاة مبدإ التراتب والسلمية وتقسيم المهام.

فالأمير كان يستجمع جملة المهام السامية في شخصه، فهو القائد وهو الدبلوماسي وهو المفاوض وهو القائم بمهام التجارة والتجهيز الحربي وهو المتصدي لمواجهة كل طارئ وكل مطلب.

فيما تواجهنا في الجهة الأخرى -فرنسا وأوروبا عامة- أمة متمكنة، تعيش فوران التطور السياسي والديمقراطي والعسكري والعلمي والتوسعي. فانقلاب الكومون كان على الأبواب، وستعقبه أفعال سياسية وعسكرية أخرى مزلزلة تستتبع ردود أفعال أشد وأكثر جذرية، وستستمر المخاضات ويتصاعد الصراع بين القوى المدنية في الغرب وستمضي عجلة الاصلاح في الدوران، الأمر الذي كانت مظاهره تنعدم في سماء الجزائر، لا لأنها الجزائر لم تكن تعرف الطريق

إلى التطور، لا سيما بعد أن دكتها الصدمة مع الغرب، ولكن لأن وقوعها في الفك الاستعماري قد جعلها تغدو لقمة سائغة، لا سبيل لها إلا التخبط على نحو ما فعلت، عزلاء من كل سلاح إلا سلاح الاصرار.

لقد نبهتنا صدمة الاحتلال إلى واقعنا وإلى ما حولنا، وانبرينا بعد ذهول نسعى لتدارك الوضع المتفجر، لكن الأمر كان قد قضي ولا راد لمشيئة الله.

كانت مصر يومئذ تتماثل ليقظة مشجعة، وكانت أفكار ومفاهيم الديمقراطية والجمهورية والتعليم العام وتعليم المرأة وتطوير الصحة والفلاحة وما إلى ذلك قد انتهت إلى المجتمع المصري، وكانت دفعات طلابه قد عادت مزودة بروح تجديدية ربما كانت شخصية الطهطاوي خير من يعبر عنها. وحال شبيهة شملت لبنان والشام لكنها جاءته مزيجة مع قيم أخرى ضارة، سببت عطبا في الكيان، لا سيما على صعيد التوحد، لا زالت الأمة تعاني مضاعفات.

وفي تونس كانت الوقائع التي عرفتها الجزائر تسهم عن كثب في تحريك الذهنيات وتلفتها إلى فداحة التردي الذي كانت عليه الأمة، لذلك رأينا تلك الموجة من الوعي تتمخض عن ظهور مشروع إصلاحي جسدته أفكار خير الدين التونسي. لكن الترصد الاستعماري سيعمل على إخماد تلك اليقظة في المهد، وسيقوم المستعمربالفعل نفسه تقريبا مع المغرب وفي كل مكان من العالم الاسلامي.

وأما في الجزيرة العربية فإن الحركة الوهابيـة كانـت تسعى بكثير من المشقة إلى أن تسرب شيئا من الحلحلة بين القبائل البدوية والفئات القروية، وكانت نظرتها السلفية تنبـه الناس إلى ما يرين عليهم من سبات وضلال مقيت تلبست به العقيدة منذ القرون.

وعاشت العثمانية من جهتها تململات وبـذلت جهـودا اصلاحية لم يكتب لها أن تفلح رغم العناد الباهر الذي أظهر الشهيد عبد الحميد الثاني.

لقد كانت الحركات السياسية والايديولوجيـة بمختلـف مشاربها المعاصرة -ومنها الصهيونية - تتوسـع وتصنع شبكات تواصلها في العالمين القديم والجديد (أمريكا)، وتتهيأ لتنفيذ أخطر الخطط في مجال السياسة والمال والاعلام، لقد ارست منذ ذلك الحين أسس استراتيجية عالمنا المعاصر بكل ما يعمه من خوف ودمار وهستيريا نعبشها في مطلع الألفية الثالثة بكثير من الاخفاقات العالمية التي تساوت فيها الأمـم التكنولوجية والأخرى التي ما زالت في الحضيض.

وكانت من ناحيتها قيم الاشتراكية تفرخ وتنتشـر مـن خلال كتابات أباطرتها، مهيئة العالم الغربي لتحـول كانـت مقدماته تلوح في الآفاق. ومن غريب الصـدف أن يصـرح ماركس -وقد عاين أوضاع الجزائريين عن كثب في تلـك المرحلة - بما يوحي بالإزدراء وعدم التعاطف، ممـا يـدل على عنصرية تعرت بها مبادئ ثقافته التي كان تدعي روحا انسانية.

فالوضع بين ضفتي المتوسطي كان متفاوتا على صعيد الحضارة والتأهل ورزنامة المشاريع المستقبلية، وكانت الحركة المحتدمة هناك في الجانب المقابل تعصف بقيم ثقافة القرون الوسطى الكنسية، أما حركية واقعنا الملي فإنها كانت تظهر باهتة ومحدودة ومرتبطة بالأفراد والطلائع أكثر من ارتباطها بالجماهير وبالسواد العام، فحملة الافغاني كانت حملة فارس استبسل ثم مضى، رغم ما تركت مساعيه العابرة من حميد البذور ستتمرس بها وعلى نطاق بناء، كوكبة منها الشيخ عبده وبن باديس وآخرون. فالقابيلية التجديدية في الغرب كانت تأخذ معاني متوسعة وشاملة وستنتهي بأن أضحت عقيدة وسلوكا وتقاليد انتاج تقوي منها دينامية المنافسة التي كانت قيم الاقتصاد الحر والمركانتيلية تؤجج من سعارها، على عكس ما كانت عليه حالنا. إذ أن الركود كان نتاج افلاس حضاري وخمود روحي، وشلل غابت معه البوادر وتكرس الاستسلام.

وإذا ما شئنا أن نوازن بين رموز تلك الحركة المدنية التي عاشتها أوروبا والغرب يومئذ فإننا سنجد الوازع الامبراطوري التوسعي هو الذي كان يحكم مسارها، وربما كانت شخصية بونابارت – علامة بارزة لذلك الظهور الغربي الجامح في مرحلة صدام الحضارات آنئذ – فتلك الشخصية بمنازعها الاستبدادية والطموحية المتطلعة إلى إحياء ماضي روما والسيطرة على البحار وضفافها تبدو لنا هي أقرب الواجهات التي تعبر عن ذلك الوضع الغربي الناهض. ومن جهتنا، لا نشك أن الأمير عبد القادر كان الرمز القوي لذلك التحدي الأعزل الذي صمد في وجه

العدوان الاجتياحي، وتكيف معه، وسجل بإزائه ما أمكنه تسجيله من صفحات القوة والضعف.

وحين نقرأ بعض ما خلفته لنا المنازلة الحضارية في تلك المرحلة الحاسمة بين الجانبين في مجال المراسلات والمخاطبات الدبلوماسية، فإننا سنجد أعراض هزالنا الحضاري الانحطاطي بادية بوضوح، تقابلها مظاهر البطر والتفوق الغربي من جهة ثانية. لكن الاستبسال في رد العدوان كان عاما، إذ عارك الانسان الجزائري المسلم واستمات من أجل أن يتجاوز شروط العقم التي كانت تطبق عليه من كل صعيد.

لقد لمسنا في مراسلات الأمير عبد القادر كثيرا من العلامات والقيم والعوامل الفارقة التي كانت تسند الجانبين وتشكل خلفيتهما في مقابلتهما الصدامية الدامية.

فمن جهة نجد دولة –دولا – استكملت منذ قرون بناء مؤسساتها المدنية والحضارية ومضت تخوض عراكا من أجل تعميق منجزاتها المدنية والثقافية والاجتماعية وصوغ تلك المنجزات في مشروع حضاري صليبي امبراطوري، ومن جهة أخرى نجد تشرذما أهليا- الأمير وفرق المجاهدين- منزاحا عن موطنه يسعى باستمرار إلى لملمة ريشه في كل منعطف، لا يفتأ يستبسل في مواجهة القوة العتيدة ويرد العدوان بكل سلاح، حتى بالحجارة وبعتاد آرتيزانالي تعيس.

كما نجد الإيمان بالعقيدة الروحية ملاك أمر المسلمين ورأسمالهم الذي به يشحون، فهم وإن دأبوا تحت الضربات الضارية يعرضون من التنازلات كل ما يمكن عرضه، تحصيلا للغاية الاستقلالية، إلا أن تمسكهم بالدين كان المرصود القدسي الذي ظلوا متعلقين به تعلقهم بالوجود، إذ كانوا موقنين بأن بقاءهم من بقائه، فلذلك لم يقبلوا مساومة فيه أبدا، وهو ما طفقت مراسلات الأمير تؤكده لملكة اسبانيا كما تظهر الرسائل.

ومقابل هذا كانت الروح الصليبية أحد العوامل الموطدة للاستعمار الغربي وانتشار نفوذه عبر القارات وعبر دار الاسلام بالخصوص، إذ أن بسط راية الرب الأوروبي على هذه الرقعة كان مظهرا ايمانيا يقوي في النفوس إرادة الاحتلال.

لقد كشفت المراسلات الأميرية عن نظرة الاستحقار والاستخفاف التي كانت تلازم الغرب حيالنا، نظرة لا ترقى إلى مستوى حرارة النداءات التي لم يكف الطرف المسلم عن توجيهها إليهم من أجل التصافي والتعاون وتجاوز الصراع.

و لما كنا سنخصص قراءة أخرى للخطاب الدبلوماسي في الدراسة التي نعدها حول تراث الأمير الفكري والأدبي، فقد آثرنا أن ننتقل الآن إلى استعراض هذه النماذج الخطابية، أو مقتطعات منها، لنضع أمام القارئ صورة عن تراجح الكفتين الحضاريتين الذي نراه ما زال يشملهما ويشكل علة

هذا الاختلال اللامعقول في العلاقة بين العالمين الاسلامي والأوروبي الذي نراه يحكم العلاقة بينهما إلى اليوم.

وإنني حين أتابع هذه الاستعدادات الغربية- المضحكة المبكية - من أجل ضرب بن لادن أجد نفسي استعرض أحوالا أليمة مما عاشته بلادي وعاشه الأمير عبد القادر غداة ذلك العصر، عصر الصدام الحضاري في القرن التاسع عشر.

فلنستخلص العبرة، ولنأخذ بالعدة، لا لنحارب ونتغطرس ونقهر البشر، ولكن لنرد عن أنفسنا ضيم التخضيع والقمع الذي لازم المسلمين منذ سقوط إيالة الجزائر وتحطم اسطول بحريتها المجاهدة.

**الأمير والاعتراف بالسبق والامتياز للغرب.**

تبرز الرسائل واقع التخلف والانحطاط الذي كان يعيق مشروع الانعتاق والنهضة. فانعدام السلاح والجاهزية المادية الحربية هو بعض ما كان يعيق برنامج التحرر الذي خاضه الأمير .

ورسالة الأمير التالية تخاطب الملكة الاسبانية وتكشف لها عما كانت عليه عدة الجزائريين من هوان، وتترجى كرمها أن تزودهم -تجارة- بما يدافعون به عن أنفسهم وشرفهم وحمى وطنهم:

"إننا على بلد قليلة الحزم عديمة الحوائج التي تصلح للقتال من البارود والرصاص وغير ذلك، وكنا قبل هذا لم تأنس مكاحلنا وجيوشنا إلا للمصالح الرومية، فلم يصلح لنا منذ سنين إلا البارود الرومي والرصاص، ولم يلق بنا بارود القبائل ورصاصهم، فأردنا من كرمكم أن تراعوا حق الجوار والمضايفة وتسمحوا لنا بالنزول بقرب معاهدكم ليحسن عليكم لنا حسن ضيافتكم، أن تعطوا الكلمة والاذن منكم للقبيرة Le Gouverneur الذي بمليلة أن يبيع لنا ما نحتاجه من ذلك، وإن عرضت لكم حاجة واحتجتم قضاءها فاعلمونا بما تحتاجونه نقضيه لكم من غير تراخ ولا تقصير، فإن لنا الوفاء بالعقود والوقوف عند المواثيق والعهود، ونبذل جهدنا في المعشرة الحسنة وإن كنا أضيافا عليكم بنزولنا قرب عمالتكم نستحق لذلك اكرامكم واعظامكم وتوقيركم واحترامكم، فإنكم بيت ملك كبير ودائرة سلك عبير، فكذا نحن لا نتوانى ولا نعجز في مصالحكم، ولا نقصر في قضائها[66].

فالرسالة تصرح وتعترف بأفضلية السلاح الرومي والذخيرة المستوردة، ولا مجال لمقارنتها بمثيلتها الأهلية، وهذا اعتراف حرفي بتفاوت الأشواط بين الجانبين والعالمين المشرقي المسلم والغربي المستعمر.

[66] د. بوعزيز .الجديد في علاقات الامير عبد القادر مع اسبانيا وحكامها العسكرين بمليلية. تحقيق وتعليق مشترك. ط1.دار البعث. الجزائر.1982

بل إن حال العجز الحضاري والقصور التجهيزي تظهر في بنية هذا الخطاب على أكثر من مستوى:

فالعجز يقوم في قصور الدولة عن امتلاك أو صبك خطاب دبلوماسي يرتفع إلى صعيد المخاطبة الدولية.

إذ العرف الخطابي هنا عامي، ساذج، وذلك ما يكشف عن حال سلبية شاملة انطلقت منها المجموعة الوطنية في المنازلة. ولهذا لابد لنا أن نقدر على الوجه الأكمل ذلك النضال الباهظ الذي اضطلع به الأمير، ليس فقط في مضمار الصراع العسكري وبناء الدولة الوطنية، ولكن أيضا في مجال ابتكار الخطاب الدبلوماسي والسياسي المتأهب للمنافحة ومقارعة خطاب الاستيعاب الذي مارسه الآخر ضدنا بشتى الأساليب بما فيها أسلوب المناورة والتضليل.

فالواقعة الاحتلالية اقتضت المبارزة كذلك بالمخاطبات، وكان الرصيد القومي في ذلك قاصرا، وسنجد الأمير يعمل على الارتفاع بالخطاب الشعري إلى مستوى التوظيف الكفاحي سياسيا ودبلوماسيا.

فالكتابة السياسية والتدوين الدبلوماسي المعاصر شق الأمير غماره، وشمل بجهد ذاك غرضي المنثور والمنظوم، لذا لم يكن بدعا أن نجد بذور القصيدة النضالية العربية المعاصرة تولد على لسان الأمير في خضم تلك المعركة، بغض النظر عن الحالة التي ظهرت فيها قصيدة النضال كما أنشأها الأمير من حيث مستوى وصبغة فنيتها.

كما أن المنطق الخطابي الذي ساد تلك المخاطبات منطق عاطفي، فيه تودد يسف بالمكانة ويوعز بالبدائية. فالسياسة الدولية منذ ذلك الوقت كانت لها بلاغتها ومرتكزاتها التحسيسية مكرسة:

Manque d un registre epistolaire diplomatique

لكن الأمير في اصطناعه لمشاعر التودد والانقياد كان يعبر عن وضعية استراتيجية حضيضية وجد نفسه فيها، فهو المنفي المهدد بالمطاردة، الذي تشرذمت صفوفه، وتحالفت عليه القوى الخارجية، وبات مصنفا ارهابيا، فلا غرابة من أجل ذلك كله أن يتلبس خطابه بهذه الخصائصي التضرعية الرجائية الاستغاثية. المنحى التصوفي يظهر هنا أيضا، فروح الاستغاثة هي المادة الشعورية التي راوحت عليها ثقافة المسلمين طيلة قرون الانحطاط.

كما يكشف الخطاب عن قاعدة شعورية أخرى مؤسسة على روح بدوية، إذ وظف مرصود الأريحية ومنطق المبادلة وقابلية الرد بالمثل، وكل ذلك يشكل أساس القيم البدوية.

إن الحوار ليس بين أمير لاجيء وملكة ركينة السيادة والصولجان، بل بين حضارتين ومدنيتين، أحداهما ناهضة متأججة والأخرى واهية متردية.

فاستنقاص الذات معلن، لأن بارود العرب لا يساوي مفعول وقيمة بارود الاوروبيين.[67]

---

[67] نفس المرجع ص.88

كما يظهر القصور في الاقرار بلا نجاعة الجاهزية القومية، إذ هي – كما أسلفنا– جاهزية آرتيزانالية رغم الجهود الجبارة التي بذلت في مضمار التسليح، لقد تكررت مواقف الاخلال بالمواثيق ونقض المعاهدات مع الأمير قصد الحيلولة دون المضي بالبرنامج التصنيعي في طريقه، ونفس التجربة ستعاد في جهاد عربية واسلامية أخرى، إذ اعترض الغرب على جهودها التصنيعية مستغلا سوء حيطتها ووثوقها من نواياه، كما حدث لمصر مثلا، فالمعركة التي خاضها الأمير كانت تتغذى بذخيرة وسلاح أجنبيين، وإذن فحظوظ نجاحها كانت منذ البدء محدودة، لأنها كانت تعدم الوسائل الكفاحية.

ولقد كانت السياسة الغربية مضبوطة بمصالح استراتيجية أبعد، فالأمير كانت رجاحته في تلك المعادلة تتوازى مع حظوظه من حيث القوة والجاهزية، الأمر الذي كان يجعل منه موضوعا لمناورة الآخرين وتلاعباتهم، وهو ما عبرت عنه رسالة حاكم مدينة مليلة الاسباني الموجهة إلى الملكة الاسبانية، إذ أعرب لها عن رأيه في مسألة طلب الأمير إياهم تزويده بالذخيرة وبأدوات الحرب.

يقول : ألح الأمير في طلبه البارود وأدوات الحرب الأخرى وليس من السياسة في شيء تسليمها له ما دامت حكومة صاحبة الجلالة على علاقات حسنة مع فرنسا والمغرب. ولكن من جهة أخرى يبدو مهما لحكومة صاحبة الجلالة أن تكون لها علاقات حسنة وممكنة مع الأمير كذلك. قلت إذن لحاكم مليلية ألا يعطي جوابا سلبيا له، ملهيا إياه

بمهارة حتى تخبروني سموكم عن التصرف الذي اتبعه بناء على الحالة التي نحن عليها، لأن سموكم يعرف جيدا أنه من اللائق كثيرا لأمن المدينة، إرضاء حاجات الناس الــذين لا يحترمون الصداقة إلا بالقــدر الــذي يخــدم مشــاريعهم.[68] فالرسالة تكاد تشف عن رؤيةٍ احتقار يتمثل في هذا الاتهــام بعدم الوفاء الموجه إلى الأمير، لا يمكن بحال من الأحــوال أن تكون أخلاق الأمير العربي المسلم بالصفة التي رماه بها هذا العسكري الغربي.

وقد تكررت مشاعر الاستنقاص هذه في مراسلة أخرى، إذ قال كاتبها، وهو يتحدث عن المسلمين:
"لأنه بفضل هذا النفوذ الهام تستطيعون أن تعملوا بحيث يتعقل أكثر هؤلاء الناس الغير المروضين.[69]

ومن جهة أخرى علينا أن نسجل أن المنازلات كانــت تتم بالبنادق وبالحجارة، بالنظر إلى انعدام الجاهزية، وهو ما تبينه كتابات بعض الاسبان بعد أن وقع هجوم قبائل عربيــة على مليلية.[70]:

---

[68] المرجع نفسه ص.85

[69] المرجع نفسه ص72

[70] المرجع نفسه ص.83

**رسالة باشكيو وزير الخارجية الاسباني إلى السفير الاسباني بباريس، يتحدث عن الأمير بما يخالف الحكم السابق:**

إنه رجل ذو قيمة كبيرة، كون في خلال ستة عشر عاما من المعارك دولة قوية بحدود غير مضبوطة، ولكن في بعض الأحيان كان على وشك الاحاطة بالجزائر، ولربما ابتلاع المغرب الأقصى في المرة القادمة.

اعتقد إذن أنه إذا عرض من طرفه علاقات، يجب أن نقبلها وننميها، وأعتقد أنه يجب علينا أن نجيبه ونعمل شيئا لإغرائه ليصبح لربما مدة في فلكنا.[71]

**رسالة من باشيكو إلى مازاريدو وزير الحرب. (سري).**

يجب أن يعرف سموكم أننا لنا فائدة كبيرة في الحصول على صداقة القبائل العربية التي عبد القادر رئيس لها.(نظرة الاستنقاص والاستصغار للكيان المسلم) كل ما يعمل في هذا الاتجاه سيكون عملا جيدا ومرضيا لصاحبة الجلالة، بشرط ألا يضر ذلك بمصالح فرنسا التي هي مثل الجار ومثل الحليف.[72](وانظر إلى هذا الترابط والتفاهم الغربي على حساب الغير).

والرسالة التالية من الأمير إلى الحاكم العسكري بمليلية، وتبدو مترجمة.

---

[71] المرجع السابق.ص.59

[72] المرجع السابق ص.61

سأكون لكم ممتنا بالجميل الكبير إذا كنتم صديقنا كما نتصور ولم ترفضوا لنا: هذا الطلب لنا قطعة صغيرة من الكواترو بدون مرصاد ولم نجد هنا من يصنعها لنا، وسنكون لكم جد شاكرين إذا زودتمنا بها بأي سعر كان، وهذا العمل يجب أن نشكركم عليه.

نخبركم أيضا بأننا أخضعنا المغاربة المجاورين لكم والذين يدعون بالقلايعية فلا تخافوا أي شيء منا.

أقول لكم أيضا أنه إذا احتجتم إلى أغنام سمينة وصوف وتمور الصحراء والزبدة والعسل نقدر أن نزودكم بهذه المنتجات بالتبادل بالشعير والقمح، وأتكلف أنا شخصيا بنقل هذا من هنا إلى الميناء حيث أبحر الأسرى الفرنسيون. أستطيع أن أضمن لكم أيضا المكان والحراسة الكافية والقوية من أجل تثبيت وتدعيم النظام التام إذا أردتم انشاء سوق. يكفي من أجل هذا أن تخبروني عن اليوم الذي يوافقكم، ولا ينبغي أن يكون لديكم أي خوف من طرفنا، من أجل تسوية هذه الأمور سأرسل إليكم خلفائي فقط لهذا الغرض.

أرجوا ان تخبروني على كل ما تقدرون أن تعرفوه من أية جهة كانت، وفي انتظار جوابكم أكرر لكم بأني صديقكم من أعماق القلب.

تذكروا اليوم أنكم الحماة لي تجاه الحكومة الفرنسية، لا تتوقفوا عن العمل لصالحي، وأنا وأنتم جميعا على يقين بأنكم لا تخسرون شيئا. عزيزي العقيد أرجوكم أن ترسلوا لنا

سجلين من الحجم الكبير.. وقضيبا حديديا . ونصف طزينة من الفتايل[73].

**وجاء في رسالة الأمير إلى ملكة اسبانيا ازابيل الثانية:**

رسالتك بالاسبانية والفرنسية وصلت إلى أيدينا، وبعد أن جبنا فيها بالنظر .. استخلصنا بوضوح بأن صداقتك نحونا متواصلة، وصارت كل يوم أكثر وضوحا وظاهرة للعيان، وبفضلها عرفنا أنك ترثين لحالنا السيئة ومنشغلة بأمورنا، وكتبت إلى سفيرك في باريس ليكلم ملك الفرنسيين ويشفع باسمك لصالحنا، هذا هو الذي ننتظره منك ونتضرع أن تعمليه، مع العلم أنك واحدة من تلك العائلة، ولك نفوذك مع هذه الحكومة الملكية، الله يرشدك ويسهل لك في تمنياتك التي تسعين لتحقيقها، إن الذي لا ينقص فعله في هذا العمل هو معرفة أنك تمنحينني ودك وتحبين جيدا أن أوضع تحت حمايتك الكاملة لأجل تنمية سلطتنا ليس فقط فيما يخص شؤوننا الخاصة، ولكن أيضا فيما يخص الفرنسيين.

قلت لي في رسالتك أنه إذا نجحت في مسعاك فلن يكون هناك حرب، وشرارة الحرب الأهلية سوف تنطفئ إلى الأبد، نعدك بأن يكون الأمر كذلك لأن هذه المملكة التي لنا ستكون ابتداء من هذا اليوم لك، وسوف لن يكون فيها سوى إرادتك في كل شيء ما عدا في الأمور التي تخص شرعنا وديننا المقدس، سوف لن نكون جاحدين إلا إذا نسينا هذه الفائدة الكبيرة ..

[73] المصدر نفسه ص. 71

ورغم هذا فمن أجل مساعدتك في المفاوضات مع ملك الفرنسيين ترين أنه من النافع أن نرسل لك أحد مستشارينا الأكثر قربا إلينا ليحضر في هذه المحادثات تحت رعايتك الملكية وحمايتك، كذلك تستطيعين، عند الاقتضاء، القبول والموافقة على كل معاهدة أو اتفاقية تريدين تنفيذها باسمنا بدون الاعتراض كلية على كل ما تقولين أو تقررين، لأننا وضعنا ثقتنا فيك بعد الله سيد كل الخليقة[74].

**رسالة أخرى من الأمير إلى الملكة الاسبانية:**

".. وبعد فإن جنس اصبنيون هو الجنس العظيم الذي كانت تظهر منه الأفعال العظام في الزمان القديم، وهم أهل المملكة العظيمة والرياسة الفخيمة، والآن إنه لا يخفاكم حالنا وأمرنا من الفرنصيص، فلا نعرفكم به فإنكم عارفون بكل شيء من أمورنا وأمور الفرنصيص، وأردنا من دولة اصبنيول أن تدخل في كلام الخير بيننا وبين الفرنصيص، فإن جعل الله الخير على أيديكم تكون المزية لكم عندنا وعند الفرنصيص، وإن قدر الله برجوعنا إلى الوطن نكون معكم كما تحبو إن شاء الله . وما زال الملوك (استنهاض الهمة والندبة إلى التوسط وبذل المساحي الحميدة) من قدم الزمان يمشون في الخير بين المتعادين حتى يوفقوا بينهم، ونحن أفعالنا وعهودنا ومواثيقنا لا ينكر حسنها حتى العدو.[75]

[74] المرجع السابق.ص.69

[75] المرجع نفسه ص.52

**رسالة أخرى إليها:**

"أرجوكم ملكتي الطيبة ألا تدخرين وسعا من أجلي قبل الحكومة الفرنسية، لقد كنا في الزمن الماضي في حرب، واليوم نرى النتيجة. كوني على ثقة بأن مساعيكم التي ستقومين بها من أجلي لا تقول بأننا سننساها من طرفي أنا ومن طرف خلفائي الذي هو من حولي وهم يسلمون عليك.[76]

إن هذه الرسالة تعرب عن تطلع الأمير إلى مباشرة المنافحة والمرافعة عن نفسه بنفسه، لو وجد من المستعمر سبيلا، وما ذلك إلا لأنه كان يؤمن بأن الحق معه، وكان يغيب عليه أن الحق والباطل من القيم التي يتعامل بها الغرب السياسي وفق منطق النسبية.

**جاء في رسالة باشيكوإلى السفير الاسباني:** كتبت إلى عبد القادر جوابا سأبعث إليكم نسخة منه، واجتهدت أن أعطي لهذه الورقة (الرسالة) لهجة علنية مهيبة، وشرقية تتوافق مع البلد الذي ستوجه إليه.[77]

**وفي نفس الرسالة جاء :** عبد القادر لم يكن ملكا معترفا به من طرفنا (فرنسا نعم عندها صلات معه وتناديه سلطانا ) . وإذن نحن لا نقدر أن نعين رسميا وسيطا، ولكنه صاحب الكلمة بالفعل، إنه رئيس حقيقي لعدة قبائل. مثلا فلأن يطلب منا التدخل كوسطاء ليس من حقنا ولا نقدر أن

---

[76] المرجع السابق.ص.52

[77] المرجع السابق.ص.60

نكون على الحياد في عمل خطوات في هذا الاتجاه، فطنتـك ومهارتك يمليان عليك كيفية التخاطب في هذا الأمر مع السيد قيزو.[78]

**رسالة الأمير إلى ملكة اسبانيا** : وكل ذلك فهمنا خطابه واستوعبنا وجيزه واطنابه من أنك جادة في أمرنا وغاضـك حالنا وضررنا، وأنك بعثت لباشدور يتكلم مع الري، وذلـك المقصود منك والمطلوب منا لمعرفتـك جعـل الله الفائـدة والمزية على يديك ولا يكن إلا كذلك إن شاء الله لأن النـاس الآن شاع خبرنا معك بالمحبـة والاصـطحاب ( اسـتثارة المروءة والنخوة والاستعطاف) وارتفع عند عامـة النـاس نصارى وأعراب، وإن قدر الله بهذا فجميلك على رؤوسـنا وكل خير يعود بيننا في مستقبلنا وأمسنا، وذكرت لنا إن قدر الله بالخير فلا حرب ولا جمر ونار موقود. نعكم إن الأمـر إليك وبيد وأنت الوكيلة والجميلة في الأمور القليلة والجليلـة إلا أن ما لا يجوز في شرعنا، فلا نرضوا بـه فـي أمـر ديننا(التحسيس بالدين بالإحالة إلى الله، واظهـار الروحيـة الشرعية التي لا فكاك عنها في أي معروف )..

وإن أردت ظهر لك الكلام من عند افرانصة وأردت أن تبعثيه مع بعض خواصك يحل في الكلام ويعقد ويجيز ويرد، فذلك لك ولا نخالف قولـك ورأيـك، وإلا ففيـك الكفايـة والاعتماد وعليك الدرك والاستناد، ثم الكل من الملك الجواد رب العباد، ونحن الآن قد ربطنا عارنا لله ولاصبانية لأننـا

[78] المرجع السابقص60

حللنا بقرب بلده (استثمار القيم العربية =حقوق الجيرة) وسمع بنا حاضر الناس وبده، ونحن العوم لهذا المرام .. وتكن هذه المزية (تأكيد مدينيته لها والفضل المحتسب لها في ذمته)على كرسيكم الأعظم ورأيكم المقوم الأقوم ويضحى كل الناس يدعو لكم بخير ولكم علينا جميل كبير ونحن لو وجدنا من يقم بحقنا مع الجنوس لطلبنا الشرع بينهم لينظروا ( التطلع إلى منبر قضائي دولي =الأمم المتحدة ومحكمة لاهاي) في هذا الأمر ويرفعون بإذن الله الغبن والقهر، حتى وأن الآن السلطان المغربي والفرنصيص كلهم يتعاونوا وهذا غير قانون مرضي عندكم (يهز أعطاف أريحيتها) والواجب على كل الناس رفع الغبن والبأس ونحن بالله والاعتماد على الله ومرجعنا إليه .[79]

وإذا كان لنا أن نعترف بهوان الشأن الحضاري العربي الاسلامي آنذاك كما تعكسه هذه المخاطبات الخالصة، حيث أن الأمير عبد القادر لم يكن إلا نتاجا من أرقى معدن استطاعت تربة تلك المرحلة أن تظهره على الساحة، فالذي لا ريب فيه أن حال ساستنا اليوم، متعلمهم وجاهلهم، لا تختلف في شيء عن حال الأمير في تلك الظروف المباغتة التي واجهته أعزل. غير أن الأمير شمر عن الساعد ومارس شوطا من العمل الاستدراكي الذي شاء به أن يصمد ويواجه الغزاة، الأمر الذي لم يباشره ساستنا بالجدية والحصافة المطلوبين رغم مواتاة الظروف لهم قياسا بما كان عليه الأمير .

[79] المرجع السابق.ص.63 .

وربما استثنينا تجربة العراق على الرغم مما صبغها من غباء، إذ سعى ذات يوم لبناء المادة الضاربة. فليس من السهل بعد هذا الذي يحدث أمامنا أن ندعو إلى ترجيح العقل وقد بتنا مهددين في عقر ديارنا. لقد بات ملموسا تخوف الغرب من أن يناله الأذى من خارج نطاق معسكره الغربي، وإذا كانت المجتمعات الغربية تعتقد أن بن لادن قدير على صنع الشر وامتلاك القنابل، وإذا كنا نراهم يتهيأون بشيء من البجح الجبان لمواجهة احتمالات الكيماوي والتجرثم، أليسوا بهذا السلوك، يحفزون جموع القانطين من مختلف الديانات والنحل وأولئك الذين ما فتئ الغرب يمارس ضدهم القهر، من أجناس سمراء وصفراء ورمادية على أن يقدموا على الفعل.

لم تكن الانسانية أحوج إلى رسل الله محمد -ص- وإلى المسيح عليه السلام، وإلى من استلهم دعوتهم السمحاء من أمثال النورسي وغاندي و لابي بيار، وأخرين، منها حاجتها اليوم.

# الفهرست

الإيداع القانوني : 552-2002

ردمك :08-130-54-9961

دار الغرب للنشر و التوزيع

حي 52 مسكن رقم ENSEP 101 - وهران -

الهاتف:(041).31.65.41/ الفاكس: (041).31.94.41

من هنا حرص العقل البشري وهو يكرس سيادة الدولة والسلطان على أن يربط الاعتبار المعنوي للدولة بمنظومة من الرموز والشارات تعبر عنها وتومئ إليها وتنيط بها وظيفتها وحرمتها. لذا كان الرمز من اهم الوسائط الحسية التي تأخذ بها السلطة في تكريس السلطان.

فالدولة ترتبط بالإنسان أولا، لأنها تتم به ومن أجله، لكنها تنزع في ذات الوقت نحو التعالي عنه، إذ لا يمكن أن تتماهى الدولة في الانسان الفرد باعتبار محدودية فرديته بموازاة مع ماهية الدولة وموضوعها الذي هو تمثلٌ معنوي شمولي يتلبس شتى مجالات الحياة المدنية.

من هنا نجد الدولة تعتمد الرموز في رسم حضورها، إذ الرمز يأخذ مظاهر ومدلولات جمة، تتعدد بتعدد الموضوعات والمجالات التي يفصح عنها الرمز والمقاصد التي يؤشر لها. وثقافة الدولة قبل أن تكون سلوكات وأعرافا هي قبل ذلك وبعده تواضعات سيمائية عرفية من وضع القريحة البشرية ترجيحا لمنطق الثبات على منطق التغير.

فشخصية الملك أو الرئيس مثلا، إنما يجسدها - على الصعيد الحسي، الواقعي - فاعل بشري بعينه يضطلع بالمهمة التسييرية العليا، لكنه من الوجهة القيمية رمز تناط به سيادة البلاد وعزتها كلية، لذا يغدو ضمير الشعب متعلقا بشخصه على نحو يجعله أقرب ما يكون من النفوس بل ومن الذوات في حالة الإيجاب والرضى والتأييد، وقد يتحول التعلق إلى صلة نفورية ونبذية في حالة السلب والرفض والمعارضة.



دار الغرب للنشر و التوزيع